وحش القلزم

رواية

تأليف

عماد البليك

طبعة ٢٠١٧

البليك، عماد.

وحش القلزم: / رواية –عماد البليك .- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٧ .

٢٨٠ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٥ ٥٣٥ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ - العنوان

٨١٣

وحش القلزم

رواية

تأليف

عماد البليك

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٧/٣٢٩٩

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٥٣٥-٥

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : وحش القلزم

المؤلف : عماد البليك

الغلاف : إسلام البلاط

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

الجزء الأول

سرجون[1]

١- سرجون (بالأكادية: "شارّو كِن"، بمعنى الملك الاسد)، وقد استخدم الاسم في منطقة الساحل الشرقي للبحر الأَحمر في عصور قديمة ثم انقرض. ويقال إنه ملك من الجن الذين استوطنوا مدينة سواكن (سواجن) في السواحل الغربية للبحر الأحمر، شرقي السودان.

●●●

«وكدت لا أفهم ما يحدث

ما أبشع أن نفهم ما يحدث»

محمد الفيتوري

●●●

أولاً: ظهور الجزيرة

(١)

انتشر خبر الجزيرة التي ظهرت في وسط البحر الأحمر، قريبا من الميناء الساحلي الذي اخترعه الإنجليز منذ مائة عام لنقل المعدات والبضائع الحربية إلى داخل السودان[٢] ومن ثم تحول إلى مرفأ تجاري للبلاد وأصبح مدينة كبيرة، وبين حيرة الجغرافيين والعلماء والسياسيين، كان الجميع يسألون عن سر هذه الجزيرة الغامض كيف ولدت بالضبط؟ إذ لا توجد أدلة تاريخية أو جيولوجية، تشير إلى أن ثمة قطعة يابسة في هذا الموقع. لا أحد متأكد من ذلك، يتحدث كل بما شاء في الفضائيات ومواقع الإنترنت والتواصل الاجتماعي، دون حقائق دامغة.

باتت سيرة الجزيرة الجديدة المانشيت الرئيسي في صحف العالم والخبر الأول في نشرات الأخبار في التلفزيونات الغربية والشرقية، وظهر عارفون ببواطن الأمور في الغالب هم مدعّون، يظهرون على أنهم ملمون بكل شيء بعد أن يكون كل شيء قد اتضح، قالوا إن طبيعة المنطقة الجغرافية تتيح مثل هذا التغير الجغرافي المفاجئ: هناك هزات أرضية في عمق البحر الأحمر، وهذا يحدث كثيراً خلال السنة

٢- المقصود مدينة بورتسودان، ميناء السودان الرئيسي غربي البحر الأحمر.

الواحدة، غير أن قلة منها يتم رصده لأنه يقع في الأعماق البعيدة. ومثل هذه الهزات، واحدة منها كفيلة بتوليد جزيرة جديدة من العدم.

ظهر محلل سياسي في فضائية عربية، يرتدي بدلة حمراء في إشارة للبحر الأحمر، عرف دائما بمزاجه العجيب في مضاهاة ألوان ملابسه لطبيعة الأحداث السياسية والاقتصادية والكوارث الطبيعية. قال للمذيع التلفزيوني:

«ظهور الجزيرة مرتبط بأعمال نووية تجريبية تقوم بها جهة ما لسنا متأكدين منها حتى الآن»

«أتعني أن ثمة تجارب نووية تجرى في المنطقة؟»

«هذا صحيح قطعا.. وسبق أن حدث ذلك في تسونامي بآسيا»

«لكن لم تظهر جزر هناك!»

«ليس بالضرورة»

يواصل تأملاته المبتكرة للتوّ ولكن في اتجاه آخر:

«الإنسان يعمل على تغيير التاريخ الجيولوجي للكوكب، وهذا خطر حقيقي على الحياة ومستقبل الكائن البشري نفسه»

يتنفس عميقاً، يتحسس نبض المذيع وقدرته على تصديقه، وكيف لا يأخذ كلامه على محمل الجد، والرجل كما يشاع أنه صاحب أكبر

راتب في تاريخ المحللين العرب في الفضائيات، وصاحب العمود الأكثر شهرة في الصحف العربية الورقية التي تصدر من لندن، وهو مستشار لعدد من الزعماء السياسيين وعضو مجلس إدارة لكبار المصارف والهيئات الاستشارية والأكاديميات العلمية والبحثية.

«كل شيء ممكن، هناك أناس خارقون، ليس من سبب يدعو للتشكيك في ذلك»

يقول المذيع لنفسه، وهو الذي طالما حاول في حياته أن يصبح أكثر من مقدم برامج تلفزيوني، فلم يفلح، ينتظر في نهاية كل شهر راتبه الذي بالكاد يكفي إيجار شقته المتواضعة وتوفير حاجيات بيته هو وزوجته وثلاثة من أطفاله، بنت وولدين. ثم ينسى كل ذلك فهذه فرصته ربما الأخيرة لكي يستفيد إن كان ثمة فائدة ممكنة، فهاهو الرجل أمامه، كيف لا يغامر ويطلب منه ما يختمر بقلبه من طلبات عديدة غير واضحة كأن يدبر له وظيفة محترمة.

«محترمة هي الكلمة الوحيدة التي تصف حاجتنا للأشياء الضرورية بعيدة المنال في اللحظة الراهنة»

هذه مقولة طالما أحبها، دون أن يتذكر قائلها. فهو رجل سريع النسيان. ثم ينسى أمر المقولة ليسأل نفسه بجدية تامة، لماذا لا يستفيد من علاقته بالمحلل فعلياً؟!

ثم يقرر ألا يفعل، لأن هذا طبعه.

«لا يمكن للإنسان أن ينزع جلده ويلبس غيره»

يكرر مع نفسه الحكمة الخالدة، تنتهي الحلقة التلفزيونية، يغلق باب الاستديو، يخرج الضيف والمذيع، في طريقهما عبر ممر ضيق إلى كافتيريا الفضائية، يتناولان قليلاً من المرطبات، في حين يرغب المحلل السياسي في التدخين، فالبقاء في سجن غرفة البث المباشر لأكثر من ساعة دون تدخين أمر لا يحتمل، لولا أنه تعود عليه..

اعتذر المذيع للرجل:

«لا أعرف لما يحاربون التدخين، الكل يدخن وفي كل مكان، لا أدري لماذا يمنعونه أمام جمهور المشاهدين على الشاشات؟»

الفكرة أعجبت المحلل السياسي، دون أن يشغل باله بها كثيراً. كان يفكر في أمور أخرى من ضمنها التداعيات الخطيرة الفعلية التي يمكن أن تترتب عن ظهور هذه الجزيرة التي اطلقوا عليها «القلزم».

من أين جاء الاسم ومن نعتها به؟

لا أحد يعرف، ولكن كانتشار النار في الهشيم، كانت وسائط الإعلام المسموعة والمرئية والورقية وهي تقاوم صمودها أمام قهر الشاشات.. كل سكان الأرض ممن سمعوا بالخبر، كانوا يتكلمون عن

جزيرة القلزم الوليدة، وسط مزيج من الدهشة لما وراء هذا الخبر من تداعيات تلاحقت في مختلف الوسائط.

يدرك المحلل السياسي أن الجزيرة لم تظهر نتيجة أي أعمال تفجيرية نووية أو أي من هذه الخطرفات، لديه معلومات من مصادر قوية أن أمراً عجيباً قد حدث يصعب تفسيره، ولو قال ذلك في التلفزيون فلا أحد سيصدقه، صحيح أن الناس مغرمون بالأساطير والخرافات، غير أنهم لن يصدقوا أن ظهور هذه الجزيرة لا يمكن تفسيره بالشكل الموضوعي، خاصة مع تداعي الأخبار اللاحقة المتعلقة بها التي بدت في التداول أولاً كشائعات، وهي الآن تحتل صدارة نشرات الأخبار وعناوين الصحف.

في الحلقات التلفزيونية، ما يعرف ببرامج «التوك شو» لا يقال كل شيء، حتى لو أن طبيعة هذه البرامج تبدو كما لو أن الفرد يتكلم فيها مباشرة من دماغه دون أن يمرر الأفكار والكلمات على أي مصفى معين. الواقع غير ذلك. الإنسان دائما له مصافٍ تعمل بطريقة غير مرئية. كل فعل وكل إرادة لابد أن تخضع لذلك الغربال.

ينهي المحلل تأملاته مع النفث الأخير من السيجارة، يكون قد قال:

«هاي.. باي باي»

يقولها بطريقة مجتزئة وعابرة.. ثم يهرع إلى السيارة التي تنتظره أمام بوابة الفضائية ذات المبنى المكون من طابقين وقبو تحت الأرض، والتي تبدو من بعيد كأنها قلعة للاستخبارات العسكرية وليست مكاناً لعكس الرأي العام. وهو تشبيه عبر لذهن المحلل كثيراً، ويعلم أنه قد يكون حقيقياً. ففي البلدان العربية لا فرق بين الإعلام والسياسة وما يطلبه الزعماء وقادة الجيش، لا يوجد فصل بين ما يسمى السلطات الثلاث أو الأربع إن كانت الصحافة أو الإعلام هي رابعها كما يقال في الغرب، بل يوجد دمج لهذا كله بطريقة مربكة لا يمكن تفكيكها لأي عقل جبار.

يدخل المحلل السياسي، الفندق، بقامته القصيرة ولحيته الصغيرة وعينيه من طراز العيون التي ركّبت فيها عدسات لاصقة تُضفي عليها جمالاً وتسبي من بعيد قلوب الحسان حتى لو أن مظهره العام لا يعكس وسامة؛ على أي حال فكم من المغرمات بهذا المحلل الذي يظهر براعة كلما ظهر على الشاشة. وهو لا يهتم بسوى سيدة واحدة مطلقة لا تُلقي له بالاً في أغلب الوقت، رغم أنه حاول أن يشتريها بالمال، ولم يجرب بعد الوسائل الأخرى الممكنة التي تختصر الطريق، هي الآن تشغله بعد أن فرغ ذهنه عن أمر الجزيرة فلكل مقام مقال، يجب أن يشغل باله بها قليلاً، يستحضرها في هدأته وهو جالس على الكرسي القماشي الهزاز في حديقة الفندق باتجاه رمال البحر، في حين تضرب الأمواج قوية في هذا اليوم ليس كعادتها، بالأمس عندما

وصل هنا كانت هادئة لا يبدو ثمة ما هو مزعج، اليوم هناك قلق تتداخل فيه ضربات الأمواج مع جنون الهوس، شغف الحب الإنساني، أن تعشق امرأة مطلقة عمرها أكبر منك أو قريب منك، ليس هذا بالمهم، فالذي يعيشه المرء هو صدقه الذاتي، الأحاسيس التي تخرب عقله ثم تعيد تركيبه. إنه الوله العجيب.

يفكر في الاتصال بها غير أن الوقت متأخر، هل ستكون مستيقظة إلى هذه الساعة من الليل، ثمة فرق في التوقيت بين هنا وهناك. ولكن..

لا يكمل الأفكار إذ يداهمه النعاس بعد يوم طويل ومضن، رحلات طيران متواصلة من هناك إلى هنا، وغدا إلى هناك. الحياة رحلة طويلة لا تتوقف. طائرة محلقة بأزيز قوي، في مجرة الكون المتسع.

«ياه..»

يجرها بنفس طويل وعميق. يكون قد أشعل أكثر من سيجارة الواحدة تلو الأخرى، وقد امتلأت المنفضة أمامه، وصارت الغرفة مشبعة بالدخان الكثيف، لا يعد يتذكر سوى أطياف من ذكريات في حياته، بعضها بائس.. أشياء قديمة وغريبة لا يمكن القبض عليها. ينام مثل بطة ذبيحة على الكرسي، إلى أن تشرق شمس يوم آخر. يوم لا يعرف حدوده أحد.

●●●

(٢)

نقل خبر عاجل.. لوكالة أنباء رويترز نبأ انتقال فريق من الاستخبارات الأمريكية إلى الجزيرة لتحليل الوضع الأمني هناك. لا أحد في البدء يعرف أي سبب يربط بين خبر من هذا النوع وظهور جزيرة في البحر، مجرد تغير في التضاريس يمكن أن يحدث في أي بقعة من الكرة الأرضية حتى لو بعد ملايين السنين. المهم أن حصوله ممكناً.

لكن يجب الانتظار لفهم بقية الحكاية، ما يجري بالضبط! فالعادة أن الأسرار الكبيرة لا تخرج مرة واحدة، تظل تصب نقطة فنقطة، وربما لا يفهم الناس حتى بعد مرور أيام وشهور وسنوات. فالبشر مغرمون بإضفاء الغرابة على حياتهم ووجودهم على هذا الكوكب منذ أن وجدوا على ظهره.

قال شيخ في قناة تلفزيونية تبث برامج في العقيدة وهو يمسح أسفل لحيته المصبوغة للتوّ:

"إنهم يريدون أن يحاربوا معجزة الله.. إنها إحدى علامات الساعة وعلى الناس ان تستعد للصرخة الكبرى وقبل ذلك علامات القيامة"

واستشهد قائلاً:

"كل الأدلة تشير إلى نهاية الزمان.. الفساد والرشوة والحروب والبغضاء بين البشر.. والكفر البواح والعري والجنس الحرام وشركات الربا.."

استمر يعدد علامات النهاية:

"تطاول البنيان.. العواصف الرعدية والأمطار في جزيرة العرب، خروج دابة الأرض.. خروج الأعور.. ثم خروج الدجال.. ذلك الذي سوف يخرج من جزيرة في البحر.. إنها العلامة الكبرى وقد بانت.. اللّه أكبر، ومن ثم سيكون نزول عيسى على الأرض.."

قال المذيع المحاوّر يسأل الشيخ:

"ولكن أين العلامات الأخرى لماذا لم نرها، أين الدابة وأين الأعور؟"

يفكّر الشيخ قليلاً، يبتكر إجابة يتقبلها المذيع وهو يهز رأسه دليلاً على الإعجاب:

"نعم.. الدابة هي تلك الآفة التي اسمها الإنترنت. إنها غيّرت حياة الناس وهي اللعنة التي خلقت الفوضى بين البشر"

"والأعور؟"

يبتسم الشيخ.. كان هو الآخر أعور.. لكنه لطيف قال:

"أتظنه أنا؟ أبداً الأعور هو رجل يصحب الدجال وسوف يأتي مصحوباً معه فدعنا لا نستعجل"

صمت قليلاً، وأكمل:

"وثمة روايات أنه هو نفسه. الدجال هو الأعور"

ثم تحوقل الشيخ وأكثر من الدعاء سائلاً الله النجاة من أهوال يوم قادم، تسبقه أعوام من المعاناة والاختبار الشديد والتمحيص للبشر، حروب ومجاعات ومعجزات كاذبة يصدقها بعض الناس لكي يضلوا الطريق..

كانت فتاوى الشيخ قد تم تناقلها سريعاً بين المسلمين وغيرهم من سكان المعمورة، منهم من أخذها بمحمل الجد وهناك من شكك فيها، وبين هذا وذاك كانت الأخبار تتواتر.

وصل الأعور بيته، بعد نهاية مساء طويل قضاه متنقلاً بين برامج التلفاز فهذه موسمه وعليه أن يربح بأسرع وقت. فإذا فات عليه الربيع فمن أين سوف يحصل على الورود الفواحة؟ الأموال. لا يوجد من أحد يكره المال، لقد تحوّل أمر الجزيرة.. القلزم.. إلى سبب لثراء الكثيرين وإفقارهم في غضون أيام وجيزة من تواتر أخبارها.

أخذ حماماً ساخناً لشعور ببروة جسده وسط التكييف المركزي الضارب في الاستديوهات، ثم صلى لله شاكراً له أن منحه فرصة العمر فنهاية العالم سوف تجلب له السعادة وعلى أي حال فالفائز من سوف يكسب الجنان، وقبل أن يكون ذلك فإن الله أمر المؤمنين بأن يسيروا في الأرض وأن يعملوا فالعمل عبادة وهو بحمده يجني الرزق الحلال من خلال ما يبثه من علم في الناس.

ضاجع زوجاته الثلاث مرة واحدة متنقلاً من غرفة لأخرى، وفي النهاية جمعهم في غرفة واحدة، ونام عارياً يرى في أضغاث أحلامه صورة الدجال وقد خرج ليطارد المؤمنين أمثاله وعلى رأسهم هو طبعا. كانت الجزيرة قد خرج منها دخان كثيف جدا يلاحق السماء. كان ثمة بشر يصرخون يبحثون عن الخلاص من هول يوم القيامة قبل أن يأتي اليوم الموعود، واستيقظ هلعاً يكلم إحدى نسائه التي لم تنم بعد فقد كانت ساهرة أمام التلفزيون في الغرفة تشاهد فيلما سينمائيا من بطولة جوني ديب.

نظر الشيخ بنصف عين مغمضة وأخرى مفتوحة، أدرك أنه الفيلم الذي طالما أحبه، (قراصنة الكاريبي) الذي سبق له أن حضره في شاشة السينما بالمجمع التجاري الكبير في المدينة، وهو يرتدي قناعاً على طريقة مايكل جاكسون حتى لا يشعرن به أحد من الناس، لأنه سبق أن أفتى بأن الشاشة الكبيرة حرام، وحتى لو أنه في قرارة نفسه تراجع عن تلك الفتوى إلا أن الناس الذين سبق لهم أن سمعوها لا يمكن أن يتراجعوا أبدا. كان لديه يقين كبير بذلك.

●●●

(٣)

كتب محرر صحيفة "ذا ناشيونال أوف ذا قلزم"، التي لا يعرف أحد كيف خرجت بهذه السرعة، وأصبح لها موقع على الإنترنت وملايين القراء والمتابعين وباتت مواقعها على الفيسبوك تنال آلاف اللايكات في دقائق وجيزة، تقريراً يوضح فيه نتائج أولية لعمل الفريق الاستخباراتي الأمريكي. ذكر فيه أنباء مزعجة عن العثور على كائنات غريبة في الجزيرة، يصعب التفاهم معها. هم يشبهون البشر ولكن ليس ثمة تأكيد إلى الآن هل هم بشر؟ أم سلالات قديمة من قبل بني آدم. لكن التقرير أكد أنهم متسامحون لا يمسون أحد حتى لو اعتدى عليهم ولهذا فإن هذا يجعل مهمة القضاء عليهم سهلة لو تأكد من ناحية إجرائية قانونية أن ذلك لا يمثل جريمة في عرف القانون الإنساني والمواثيق الدولية التي تقدمت في عالم اليوم وأصبحت تحمي حتى الأشجار والبيئة والغابات المدارية والطيور والأفيال.

نشر الموقع كذلك أول صور سوف يتم تداولها كالعادة في أسرع من البرق مع تقدم وسائل التواصل وتلك الدابة التي تحدث عنها الشيخ – الانترنت –، تظهر تلك الصور أناس يظهرون من الوهلة الأولى متوحشين لا يظهرون أي نوع من الوداعة ولا السرور، لكنهم في الواقع يبدون مكتئبين حزانى، رغم أنهم يتمتعون ببدانة لا بأس بها،

ولم يتضح بعد ماذا يأكلون أو أن التقرير لم يوضح ذلك، غير الإشارة إلى أنه لا خوف على اللحوم الآدمية، فهم ليسوا مفترسين أو من أكلة لحوم البشر.

في واحدة من الصور يظهر طفل وديع من هؤلاء القلزميين، أو "القلزميون" كما سوف تطلق عليهم الأنباء، وكالعادة لا أحد يعرف من أطلق الاسم أولاً.. لأن تقرير "ذا ناشيونال أوف ذا قلزم" لم ينعتهم بأي اسم معين. كان القلزمي صغير السن، يجلس بجواره كائن آخر، تقريباً هي أمه حيث يصعب التفريق بين الذكر والأنثى إلى الآن، وهما يحتميان من رجل أمريكي يحمل بندقية، في حين كان آخرون يحملون كاميرات تصوير معقدة تستطيع أن تصوّر الأجزاء الداخلية من هؤلاء الكائنات الغريبة حديثة الاكتشاف في كوكبنا.

تقرير علمي آخر نشر خلال أقل من يوم لمركز الأبحاث في وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) قام بتفنيد أقوال تم تناقلها أن هؤلاء القلزميين هم كائنات فضائية، أشار التقرير بوضوح تام. ليس ثمة دليل على ذلك، الحقيقة أن هؤلاء بشر حتى لو أن لهم خصائص مختلفة عنا بعض الشيء، وهذا قد يُفسّر لأسباب تتعلق بالمناخ أو التطور الجيني، لأناس عاشوا ربما آلاف السنين معزولين عن العالم.

كان اللغز الذي عجز الكثيرون عن حله، أين كان هؤلاء القوم إذا كانت الجزيرة قد ظهرت فجأة.. أو هكذا بلا مقدمات، أين كانوا يعيشون بالضبط؟

هل كانوا في أعماق المياه؟

وهل لديهم خياشيم كانوا يتنفسون بها، خاصة أن أجسادهم معتدلة الامتلاء، تبدو طرية لها حراشيف تشبه الأسماك؟

في الواقع أن كل تقرير يخرج أو خبر جديد، كان يُعقِّد الوضع أكثر مما يقدم تفسيراً أو يحل معضلة معقدة غير واضحة البتة. ما يجعل موضوع الجزيرة أكثر إثارة في التناول بعد أن أقصى كل الأخبار الأخرى لتصبح غير مهمة وصار في الصدارة.

ظهر الشيخ الأعور من جديد، على فضائية أخرى وفي برنامج ثانٍ يقدم هذه المرة فتوى حول هذه الكائنات المكتشفة. بدا المذيع هذه المرة أكثر انتباهاً فالأمر جد خطير ويتطلب عمقاً في التركيز، وهو نفسه متشوق لمعرفة الإجابة من العالم الجليل..

"ليس ثمة تأكيد علمي على أنهم بشر، يبدو أنهم من قبائل الجن التي سكنت البحار قبل آلاف السنين"

قال الشيخ ثم مطّ شفتيه كأنه يريد إخراج فكرة عبر فمه، واصل كلامه:

"لا تنسى أن هذه الجزيرة لا تبعد كثيراً عن مدينة سواجن في شرقي السودان.. أو سواكن كما يسميها أهل البلاد.. الواقع أن اسمها الأول هو الصحيح وقد تم تحريفه مع الزمن، وهي من سجن. أتعرف أمر هذه المدينة الغريبة؟"

زاد انتباه المذيع، واصل الشيخ:

"إنها عاصمة الجن في العالم أيام سيدنا سليمان عليه السلام ويوم ذهب إلى ربه بقيت الجن مطاردة بينها والبحر المحيط بالمنطقة"

"أتعني البحر الأحمر؟"

"نعم الأحمر أو بحر القلزم كما كان يُسمى عند قدماء العرب"

"ولكن يا شيخ هل الجن يظهرون مجسمي الشكل؟"

"نعم يستطيعون التشكّل بأي شكل شاءوا.. هذه قدراتهم التي منحها الله لهم"

"وماذا بشأن أنوفهم الخياشيمية كالأسماك.. سمعت عالماً يتكلم أنهم كائنات برمائية.. يمكن أن تعيش في الماء وفي اليابسة"ضحك الشيخ بطريقة مختصرة. وأبدى جدية، فكّر قليلاً، قال:

"ليس من مشكلة أبداً.. يمكن للجن أن يكون برمائيين.. هذا ليس إشكالاً"

لم يكن الشيخ متأكداً من حقيقة ما أفصح به، هل هؤلاء جن أم لا؟ لم يسبق له أن رأى أحداً من قبيلة الشياطين والجن رغم أنه عالج الكثيرين جداً من وساوسهم واستطاع أن يخرج المردة من الأرواح إلى الأبد فتعافى المصابين والمرضى وصاروا أناساً صالحين كما تم عرض نماذج لهم كثيراً في واحد من برامج الشيخ في الفضائيات.

في هذه الليلة، الثانية، ظل يهجس إلى قريب من حلول من الفجر، مقلباً في المراجع القديمة من كتب التراث، يحاول أن يصل إلى إجابة محددة تتعلق بمعلومة يظن أنه قد مرت عليه ذات يوم ثم نسيها، مفاداها أن أمر هذه الكائنات قد ورد ذكره من ذي قبل، أو أنهم يعيشون في جزيرة الدجال الذي يخرج في آخر الزمان، وعندما أرهق كثيراً بعيداً عن نسائه بخلاف ما تعود في سابق الأيام فقد غفا على الأريكة في صالة البيت الفخم، وهو يرى أطيافاً للقلزميين تحوم أمامه وهو يتخيل أنهم قد دخلوا أفواجاً في دين اللّه، وحملوا السيوف ليحاربوا في الحرب القادمة، يناصرون الحق ضد الدجال الأحمق الذي سوف يخرّب الأرض وصفائها ويوجد الفوضى بين البشر.

●●●

(٤)

وسط حمى الجزيرة والاهتمام الكبير بأخبارها، كانت العديد من الحقائق تغيب، كثير من الأفكار المفترضة والضرورية لا أحد ينشغل بها، فالناس تمسك بالنهايات وتنسى البدايات، كيف تشكل الشيء أو صار، فقد طرح شاب عشريني من أصول عربية، في قناته على اليوتويب سؤالاً أثار اهتمام الكثيرين؛ حول من هو أول من علم بخبر الجزيرة أو رآها، ذكر أنه بحث كثيراً جداً في مواقع الإنترنت واستقصى ولم يصل لإجابة، موضحاً بأنه رغب في معرفة كيف تشكّلت أهمية هذه الجزيرة في أذهان الناس بهذه السرعة، لتكون حديث الإنسانية.

"سؤال مشروع"

كتب أحد المعلقين عليه، لكنه ردّ.. بأن:

"ذلك ليس مهماً. يمكن أن تكون سفينة قراصنة قد اقتربت من الموقع ورءوا الجزيرة في مكان لم يعتادوا أن يشاهدوا فيه يابسة"

حتما كان يسخر، وأولئك الساخرون يبددون شغف المعرفة عند بعض الناس، فيتحول الأمر الجاد إلى هلوسة لا معنى لها، وفي النهاية يفقد صاحب الأفكار النيّرة اللهفة في الاكتشاف ويتحول إلى أسئلة جديدة أو ينسى المسألة برمتها كما حدث مع ذلك الشاب.

قطعا يمكن اختراع عشرات الإجابات التي قد لا تكون مهمة أم لا..

صادف في مساء اليوم نفسه، أن تم تداول نبأ الفريق الاستخباراتي الأمريكي فتناسى أغلبهم سؤال الشاب، وبدأ الاهتمام بهذا الموضوع الأكثر نضوجاً، فالسرعة باتت سمة عصرنا، كل شيء ينمو سريعاً ويموت بأسرع من لمح البصر. لا شيء بمعنى واضح يمكن القبض عليه أو التأكيد عليه مطلقاً.

شاهد الملايين.. صورة مروحية تهبط بخمسة من الرجال الذين يرتدون أزياء المارينز، وكأن في الصورة إشارة إلى أن ثمة حرب قادمة، لماذا يرتدي المستكشفون أو الاستخباراتيون أزياء الجنود؟

وكأسئلة كثيرة مضى الناس إلى ما بعدها متغافلين موضوع الزي، رغم أن ثمة من يؤكد أن الأمريكيين لا يمكن أن يفعلوا أي شيء عبثاً، إذ لابد من رسالة أو مغزى محدد يريدون إيصاله.

يبدو الطقس في الجزيرة حاراً، وثمة عاصفة تهبُّ بشدة، فقد كانت الريح تلفح وجوه الرجال وهم يحاولون تغطيتها بقبعاتهم العسكرية، ثم يتقدمون ببطء في الفيديو الذي ذاع انتشاره، لا يمكن سماع أصواتهم بدقة ماذا يقولون، وربما لا اهتمام في الأساس بنقل طبيعة ما هم مشغولون به. يكونون قد أدركوا تلة خضراء مغطية

بالعشب تماماً، غزيراً يظهر أطول من الرجال ومن القلزميين الذين هم أقصر قامة من الأمريكيين. وقد تجمع هؤلاء القوم من أهل الجزيرة، متجمهرين، يشاهدون ما يجري، لا يمكن تخيل كيف ينظرون إلى الوافدين الجدد إلى بلدهم حديث الاكتشاف، أو الطريقة التي يفكرون بها اتجاههم..

القضية تتعلق بالعقل، هل لديهم عقول متطورة مثلنا كبشر؟

هل هم يفكرون، هل اللغة عندهم متطورة أم بدائية؟!

استفهامات كثيرة كانت تدور في الأذهان.

فقط يمكن سماع همهماتهم التي تكاد تقترب من نعيق البوم في الليالي المظلمة، وهي لا تعطي أي دليل على أنه يمكن فهم أي كلمة.

ما وراء الفيديو.. وما لم يره العالم، جرت أحداث كثيرة، كما يحدث في العادة أن الإعلام لا يقول كل شيء، كما أن المصالح تختصر الصورة والمشاهد على المطلوب فعلياً وما سواه ليس مهماً إلا في حدود ما يطلبه المنتفعون.

فكّر الكثيرون بذلك، وراحوا يعملون خيالاتهم في تصور مستقبل سكان القلزم، هل سيتم التعامل معهم بأدب وذوق بعد أن تطور الإنسان وارتقى وصار ابن الحياة الحديثة؟ .. وهو قول ليس دقيقاً

لأن الحروب موجودة والصراعات والدماء تسيل كل يوم والعنف لا يتوقف، ما يجعل التعامل الإنساني مستبعداً يضاف لذلك وجود الإشكال القانوني حولهم في شأن تحديد من هم بالضبط، ومن ثم ضرورة إصدار قرار من الكونجرس الأمريكي بهذا الشأن بعد سماع الإفادات العلمية الجلية حول هوية القلزميين. أم أن هؤلاء الأبرياء كما قيل بشأنهم من فاقدي الثقة في السلوك الإنساني الرحيم، سوف يتعرضون للتنكيل والتبشيع بهم كما فعل الإنسان كثيراً عبر التاريخ وهو يدخل مناطق جديدة مكتشفة في العالم، كما حدث مع شعوب الهنود الحمر بعدما اكتشف كولومبس القارة الجديدة. في تلك الحرب التي أفنتهم، كان ثمة معتقدات قوية بأن الإنسان يقضي على أعداء لا يمثلون أي قيمة، فهم ليسوا بشراً وهذا هو المهم في القضية كلها، رغم أن البابا يوليوس الأول أصدر مرسوماً في سنة ١٥١٣م جاء فيه: «نعم الهنود الحمر بشر، وتجري معاملتهم طبقا لذلك»، كان يرد على الأوروبيين الذين كانوا يتعاملون معهم بقساوة وحقارة باعتبارهم ليسوا بشراً.

الآن يستدير التاريخ، تعود الأسئلة نفسها، ترتفع الأصوات هنا وهناك، وجماعات الضغط واللوبيات كذلك المتطعون كجماعات الخضر، يزعمون أن الطبيعة الخضراء والأشجار أهم من الإنسان وأحق بالعناية، هم لا يقولون ذلك مباشرة لكنهم يعنونه بشكل غير

مباشر. لهذا ظهرت على الفور جماعة من هذا النوع لن تكون الأولى حتماً، أطلقت على نفسها «المدافعون عن حقوق سكان القلزم» وكان أمامهم الإشكال الذي لم يجب عليه أحد بعد، هل هم بشر فعلاً؟! لأن اختلاف المعادلة قد يبيح محظورات كثيرة.

تشكيل هذه الجماعة لم يستغرق سوى يومين، منذ وصول الفريق الأمريكي وانتشار الفيديو الذي يظهرهم مع القلزميين، وقيل إن المحرك الرئيسي وراء ظهور «المدافعون» كما أسموا أنفسهم اختصاراً، ترتب عن مشهد قاس رآه أغلب الناس، تم حذفه لاحقاً من الفيديوهات إلا تلك التي تسربت أولاً، يظهر فيه رجل أمريكي قصير القامة يصفع قلزمياً ثم يرمي به على الأرض ويدوسه بحذائه المطاطي الذي يرتفع إلى قريب من الركبة خوفاً من الحشرات وهوام الأرض في منطقة حديثة لا يعلم الناس عن مصائبها حتماً.

الجماعة في ثاني بيان لها بعد البيان الأول الذي أعلنت فيه تأسيسها طالبت بمحاكمة هذا الرجل المتوحش – كما وصفته – على تصرفه اللاأخلاقي وأن ينكل به، رغم أن القانون الأمريكي لا توجد فيه بالطبع إلى الآن مادة دستورية تفسّر بوضوح كيف يمكن معاقبة إنسان اعتدى على كائنات غير مدرجة في سلم التطور البيولوجي أو التصنيفات العلمية للمخلوقات على كوكب الأرض. وهذا يحتاج بعض الوقت مع المسائل المعقدة الأخرى.

ما جعل المسألة تتلاشى تدريجياً ليس النسيان فحسب، بل أنه رغم حذف المقطع، فقد ظهر الرجل مجدداً في فيديو خاص يصوّره وهو يحني رأسه معناقاً الكائن القلزمي ومن ثم يكيل عليه القبلات، في حين كانت ابتسامات سكان الجزيرة واضحة وهم يتحلقون حولهما، في مشهد أثار الملايين حول العالم، وقام آلاف بوضعهم في خلفيات صفحاتهم بمواقع التواصل الاجتماعي.

أدرك الناس عندها أن بإمكان هؤلاء الكائنات الجدد اطلاق الضحكات التي لا تختلف عن قهقهات البشر بل هي أقوى وأشد وقعاً تظهر معها أسنان قوية عريضة وطويلة، وفي الطرفين من الفك تبدو أنياب بارزة مسننة حادة، أما المثير في المشهد وما سبقه من مشاهد فهو الجسد العاري تماماً وهو الموضوع الذي كسب الكثير جداً من الاهتمام والتسويق وربما تم توظيفه إعلانياً كما فكرت بعض الشركات فعلياً، لكنها أيضا كانت متخوفة لأسباب تتعلق بحقوق الملكية الفكرية والقانونية، الذرائع البشرية المرهقة.

« القانون.. الحق المشروع.. الذريعة التي يتخوف أمامها الجميع رغم أنه لا أحد يوقرها حقيقة»

كان ثمة من يهمس ويجهر بذلك. في انتظار ما سيحدث!

●●●

(٥)

ظهر المحلل السياسي مرة أخرى، كان عائداً من رحلة عمل مرهقة كما أشار في بداية الحلقة التلفزيونية الأسبوعية، لم يحدد المكان الذي عاد منه بالضبط، المشاهدون خمنوا أنه ربما كان في جزيرة القلزم ولم يحب الإشارة لذلك فليس من حديث غيرها هذه الأيام، كان يكحّ كحاً شديداً ما يعني أنه ربما دخّن كثيراً قبل أن يدخل الاستوديو ليعوّض ساعات من الطيران في السماء دون تدخين ومن ثم طريق لربع ساعة من المطار إلى الاستوديو، ولم يتأخر في صالة الوصول المخصصة لكبار الزوار باعتباره من النجوم والمشهورين.

أراد أحدهم أن يستفسره من أمر يتعلق بإمكانية تدخل روسي في الجزيرة على شاكلة التدخل الأمريكي، مثلاً: هل سيرسل الروس طائرات استطلاعية أو رجال الاستخبارات أو ربما جيوش حقيقة؟ فالعادة أن الرؤساء الروس لهم سلوك مبالغ فيه أحياناً بسبب الصدمة التي حدثت ما بعد تفتت بلادهم لتصير مجرد جمهورية تتبعها جمهوريات صغيرة، بعد أن كانت ضخمة تفوق الولايات المتحدة الأمريكية.

كان ذلك «أحدهم» شاب يعمل في النظافة بالمطار، وهو من المعجبين ببرنامج المحلل السياسي، ويراه رجلاً لطيفاً وهو يوزع

الابتسامات الرائعة في الشاشة ويفسّر الأمور العويصة ويحلل الوقائع السياسية وما يستجد في الكرة الأرضية، وفي هذا اليوم جاءت الفرصة التاريخية تسابق القدر، لكي يسلم بنفسه على هذا الرجل المشهور ويسأله السؤال، الذي ظن الشاب أنه من إبداعه الشخصي، لأنه لم يسمعه في التلفزيون من قبل. وحتى لو حاول أن يوجهه عبر البرنامج في اتصال هاتفي، فالخطوط مشغولة أو لا ترد، لقد جرّب أكثر من مرة في الماضي أن يسأل أسئلة أو يُعبِّر فقط عن إعجابه بالمحلل كما يفعل بعضهم خاصة الآنسات والسيدات، ولم يتحقق حلمه. كم هو محظوظ اليوم!..

لم يتوقع أن يمر به المحلل مروراً ولا يكترث به ليقف ويسلم عليه، ولما كان عامل النظافة ملحاحاً فقد ظل يكرر السؤال وهو يجري مسرعاً خلف الرجل، الذي كان يمشي مسرعاً هو الآخر، إلى أن دخل حافلة صغير مكتوب عليها اسم القناة الفضائية التي تستضيف البرنامج الأسبوعي، وبعينين تشعران بالألم المخلوط بالهزيمة وربما الشعور بالغضب، كان الشاب ينظر إلى المحلل السياسي وهو يعاين من نافذة الحافلة إلى حديقة المطار قائلاً له:

«ركّز على عملك وسوف تكون ناجحاً.. ألا ترى أن الحديقة حزينة من الإتساخ»

لم يفهم مغزى ما أراده الرجل، ولم يرد عليه، حيث اعتصره مزيد من الجنون الفعلي باتجاه هذا الكائن المتوحش، الذي يظهر على أنه طيب القلب في الشاشة، رمى بآلة حصاد العشب وتشذيبه جانباً، يفكر في بؤسه والحياة الذي أوصلته لأن يكون مجرد عامل نظافة مهاجر عن بلده البعيد، لا يعرف ماذا يخبئ له مصيره ولا مستقبله، هو الذي ضيّع حياته في دراسة الهندسة وحصل على شهادة جامعية بعد خمس سنوات من الإرهاق والمنصرفات التي كان يتكبدها والده المسكين. كان يفكر بشكل مشوش، ما الذي يجعل الناس تتفاوت في هذه الدنيا، كيف صار هذا الكائن القلزمي إنساناً له قيمة؟

دون أن ينبته كان قد اصطدم بسارية الإنارة في الحديقة، نظر باتجاه الأرض والممرات كانت نظيفة ورائعة، إذ أين الإتساخ الذي يتحدث عنه هذا الكائن القميء؟

وقرأ الآية:

«إنها لا تُعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»

ثم أسرع باتجاه شاشة التلفاز الكبيرة في صالة الوصول بالمطار يشاهد الحلقة التلفزيونية رغم معرفته المسبقة بامتعاضه من المحلل.

اندمج مع الحوار وكلام الرجل، نسي موقفه الشخصي، أو تناساه، فقد كان مغرماً بسماع ما سيقال اليوم حول الجزيرة.. وجاء اتصال من مشاهد، كان قد سأل السؤال نفسه، ما أراح الشاب قليلاً وهدأ من ألمه النفسي:

«هل ترى أن الروس أو أي دولة كالصين أو كوريا الشمالية قد يحاولون التدخل بأي عمل من نوعه في الجزيرة؟»

رد المحلل السياسي وهو يواصل الكحة:

«تذكرني بعامل نظافة كان يسألني السؤال نفسه وأنا قادم قبل قليل عبر المطار، أحب الإشادة به في اهتمامه المعرفي وعقليته»

انتبه الشاب بدقة لما يقال، لم يكن مشغولاً بسماع الإجابة بقدر الاهتمام الذي أبداه به المحلل السياسي، هل يقف في وسط الصالة ويصرخ للجميع، هذا أنا الذي يتكلمون عنه، غير أنه لا أحد سوف يصدقه.

على أي حال كان يشعر بنشوة كبيرة أنسته ألم الغضب، ترك إكمال باقي الحلقة وراح يعمل بنشاط في تشذيب باقي أغصان الشجر رغم أن حرارة الجو كان عالية والطقس لا يحتمل خارج الصالات المغلقة والمكيفة. ويبدو أن بعض من الأوساخ تجمعت في أسرع من لمح البصر، من أين جاءت بهذه السرعة؟

«يبدو أن المحلل السياسي على حق»

كان الشاب يكلم نفسه بصوت مرتفع.

●●●

ثانياً: قبر القرصان
(١)

قبل أن تبدأ حكاية الجزيرة في الانتشار. كان لابد من بداية. هكذا هي القصص.. وهكذا هي حقيقة الحياة على الأرض. بغض النظر عن طبيعة ما جرى، هل هو صحيح أم مزيف! إذ سرعان ما تصبح بعض القصص الخرافية طبيعية ويصدقها أغلب الناس ليحدث العكس، أن يصبح الأسطوري والخرافي والغريب، واقعياً وماثلاً يمكن التعامل معه بأحاسيس بشرية غير مزيفة.

يُروى أنه ذات ليل في منتصف الشهر حيث كان البدر قوي الضياء.. أن أتت سحب ركامية ليس كعادتها في مثل هذا الوقت من السنة أن تغطي السماء. ملأت الأفق والتحمت بأمواج البحر الضاربة، كان ثمة غموض في تفسير ما يحدث.

بالنسبة للقراصنة الذين يجوبون البحر.. فهم معتادون على هذه الأجواء فقد توارثوا عن آبائهم وأجدادهم في جيناتهم كيف يتعاملون مع بحر القلزم، منذ رحلات زمن جدهم الحبشي، النجاشي الأول، فالحياة مع الماء المضطرب هي سمة من سماتهم الإنسانية وجزء من طبيعتهم لا تنفك عنهم. رغم ذلك كان ذلك اليوم غريباً. ليس عليهم قطعا، بتمرسهم التاريخي وخبراتهم التي تثير الإعجاب لمراسلي

الصحف الذين يقضون معهم بعض الأوقات وهم يرسلون تقاريرهم عبر الأقمار الاصطناعية ليكشفوا هذا العالم الخفي عن العالم، حيث أن الناس دائما ترى الوجه الأول أو الثاني من الصورة ويغيب الكثير عنهم. دائما لا توجد قصة مكتملة، وهذا يجعل التعطش للمزيد قائماً. لهذا لو أن صحفياً كان موجوداً في هذا اليوم العاصف، الغريب، لربما كتب قصة أخرى، حكاية عن جحيم البحار.

من بين القراصنة كان هناك قرصان كبير مشهور، رجل تجاوز الستين من العمر، خبراته لا تُضاهى، يسمي نفسه أسماء كثيرة وفي كل مرة يظهر باسم جديد. تلك هي هوايته. كما أن له مزاج يتناسل مع أمور أخرى، مثل أنه عاشق ولهان لكل تجربة غريبة فيما يتعلق بعلم البحر، يحب أن يسافر في الأجواء التي يخافها غيره ويغامر بكل شجاعة كأنه روبنسون كروزو حقيقي، إفريقي. بعينيه الغائرتين وراء نظارة طبية داكنة الإطارات، تعطيه شكل عالم فيزياء خجول أكثر من صورة القرصان الطمّاع الذي يرغب في كسب المال.

بالنسبة للأموال ولكي ننصف ذلك الرجل الستيني، فإنها لا تهمه. أبداً لم تكن شاغله ذات يوم. كان تشغله المغامرة في حد ذاتها. اجتذاب العالم الخفي، تحريك الحدس الداخلي الذي يُحدِّثه بالاكتشاف أن وراء كل حكاية، لابد من حكاية أخرى.

●●●

(٢)

«تسافر كثيراً.. تتعلم كثيراً»

قال العجوز نجاشي.. هذه المرة أراد أن يكون ذلك الملك الحبشي القديم الذي استقبل وفد النبي محمد إلى بلادهم ما وراء بحر القلزم. فهو يعتقد أن ذلك الرجل قد يكون جده، لا أحد لديه التأكيد لينفي أو يثبت؛ المهم أن تكون أنت مقتنعاً.

يسمعه الفتى الجالس قبالته في الزورق السريع، المجهز بكل المعدات والإمكانيات لمهام القرصنة، يرد عليه:

«لكننا يا عمي لا نسافر.. نحن ندور في المنطقة نفسها.. ونعود إلى البدايات ذاتها»

يضحك العجوز يزيح نظارته، يرد عليه:

«ما زلت صغيراً لتفهم يا ولدي.. يوم ما سوف تتذكر كلامي جيداً. السفر يا ولدي ليس مجرد بحر نعبره أو محيط نشق عبابه ونمخره بشدة، بل هو علاقة بين عالمين لصيقين.. قلة من الناس تعرف كيف تفرز بينهما عالم الروح الخفي، الملكوت الإلهي والرباني.. وعالم الخيالات الخارجية التي نراها»

«أتعني أن العالم ليس إلا خيالاً يا عمي؟»

«أصبر علي يا ولدي.. أنت عجول في تقدير الأمور.. المعرفة لا تؤخذ بالعلل الخارجية»

يسرح الصبي ساهماً يعاين أمواج البحر تضطرب في هذا اليوم العاصف، الغريب. كأن لعنة سوف تصيبهما هو والعجوز واثنين من الرجال الجالسين في ركن من القارب أحدهما كان المسؤول عن إدارة دفة المحرك. لا يتكلمان. فقط ربما يستمعان لما يدور من حوار بين الرجل والصبي، وهما يعلمان أن الستيني جسور ومغامر وخبير، غير أنه في بعض الأحيان يتخيل ويتوهم أشياء لا وجود لها.. هذا الوهم الذي يسكنه هو سبب إخفاقاته بقدر ما هو ناجح في عمله. يكسب الكثير من البحر ويسكب ما يكسبه في البحر من جديد. يعود به إلى فقراء وأناس غرباء يعرفهم وحده يوزع عليهم المال. لا يحتفظ به لنفسهم يظل بائساً وفقيراً وليس له من زاد سوى الاستمرار في توليد حكمة الحياة ورعايتها لكي يعيش بها خالداً، كان يكرر لهم:

«أتعلمون أن خلود الإنسان في ذكراه الطيبة بين الناس. عمله الذي لا يتكرر.. تفرده الذي لا يشبه ما يقوم به الآخرون»

يشتد الموج الضارب.. يرتفع القارب ويهبط.. يكاد القمر لا يظهر مع السحب التي بدأت الآن كأنها جزء من تكوين الأذهان البشرية.. الأمواج القاسية التي لا تعرف الحب كما يبدو تفسيرها الأقرب الآن.

«هذا البحر مطية الكراهية ولا منجاة منه»

يفكر الرجل الذي عجز عن تحريك دفة القارب ولم يكن أمامه سوى الاستسلام.

أخذ الستيني الدفة بعد أن أزاح الرجل جانباً ووصفه بتمتمات لا يمكن تمييزها، تشير إلى أنه لم يخبر البحر جيداً، لأن البحر لا يحب من لا يحبه، ولا يحمي من لا يحميه.

«البحر هو ابن الحياة والحياة ليست لعبة، هي تسلية مروعة ومخيفة، الشجعان فقط هم الذين يلعبون بجدارة ويصلون إلى خلودهم الذاتي»

يفكّر عميقاً، قبل أن يرى كيف أنه قد فقد السيطرة على القارب لم يعد يرى أي شيء مطلقاً سوى طقوس من الأحلام والذكريات الغامضة.. هل هو، هو؟ أم كائن آخر؟

هل تلك روحه في عالم حقيقي؟ أم في برزخ بين الحياة والموت؟

أين الرجلان وأين الصبي؟ وأين القارب ذاته؟!

ليس من إجابة واضحة وملموسة.. ليس سوى أرواح وأشباح وجنون تخيم وراء هذا الموج القوي.. العتمة الباهرة.. النور الذي يشع من داخل القلب يكون أقوى في مثل هذه الظروف..

كأنه يكلم نفسه، ثم يخال له أو يكتشف أنه ما زال يكلم الصبي، وهو يمسك بيده يقوده وسط المياه. وهما يرتفعان ويهبطان بلا هوادة، ما يتحكم فيهما الماء والقدر. أليس الماء ابن القدر؟! أم أن الماء والقدر غريمان، يصطرعان من أجل الانتصار لكل منهما؟!

«من يتحكم فينا الماء أم القدر؟»

من يتكلم.. ليس ضرورياً، لأن الزمن يتلاشى..

وسط هدير الإرادة القوى، يقاومان معاً.. يجدان أمامها اليابسة.. يسمع الصبي رفيقه الأكبر سناً، الحكيم ومعلمه يخبره:

«الآن نجونا إلى البر.. الحمد لله، عندما يكتب الله لك العمر، لا أحد ولا شيء في هذا الوجود يقاوم ما سطره الرب»

يتبادلان الابتسامات..

الآن لا يرى الرجل جيداً لأن نظارته قد ضاعت ضمن ذكريات كثيرة يحاول لملمتها في ذهنه وهو عاجز، غير قادر البتة. ليس أمامه سوى الاستسلام لمعضلة حيّرت البشرية، ما الذي يحدث معه، لماذا يعجز عن تحريك فمه؟ لماذا يضرب القلب بقوة؟

يحدث نفسه، يجب أن تكون شجاعاً إلى النهاية ووسط غباش الأشياء المتداخلة بالسحب التي بدأت في الانحسار، كان يشاهد هلامات من أطياف الماضي، وملائكة الرحمة أم العذاب تقترب منه؟!.. بعد قليل سوف يتقرر المصير يا سرجون.

●●●

(٣)

يجد الصبي نفسه وحيداً، هل يبكي؟

لا لن يفعل ذلك، يكلم نفسه، وقد كانت تلك آخر وصايا رفيقه:

«كن جياشاً كالنسور.. لا تخف.. تأكد إن إرادة الله لا يخذلها الشيطان»

يبدو المكان هادئاً، وقد سكت البحر عن جحيمه وأناته. ثمة نسائم صباحية باردة تهز سيقان وأغصان الأشجار، المتنوعة في المكان.. بعضها لم يره الصبي من قبل أو لم يألفه أو يتذكره. فهو مشوش لأنه بات وحيداً وعليه أن يقاوم، يكون شجاعاً يتمسك بوصايا العجوز الذي يرقد الآن جثة هامدة، جميلة.

كانت ابتسامته الأخيرة تكشف عن وجهه الصبوح وكأنه ما زال ذلك الطفل الذي يلعب فوق الرمال الساخنة في مدن الساحل، ليس بعيداً من هنا، وبالنسبة للصبي فليس سهلاً تقدير الموقع وهل هو قريب من الشطآن التي يعرفها أم لا، ولم يكن ذلك همه الأول، إذ كان مشغولاً بأن يفعل كما فعل غراب هابيل، كيف يدفن القرصان في هذه الأرض الغريبة؟ التي خمّن أنها قد تكون جزءاً من اليابسة، مكان لم يزره من قبل وهو أساساً قليل الخبرات بالأمكنة، فهذه هي المرة

الثانية ربما الثالثة، التي يخرج فيها إلى البحر بصحبة معلمه ليتدرب على فنون القرصنة. لا يتذكر جيداً مع ذهن لا يعمل جيداً.

في المرة الأولى وقبل عدة أشهر كان قد نال حظاً وافراً وكان القرصان الستيني كريماً معه دفع له من المال أكثر بكثير مما توقع، وعاد ليفرح أسرته، بالتحديد أمه لأن أباه كان قد مات منذ سنين، والصبي طفل.. غاب في واحدة من حروبات البلاد، فثمة حروب ونيران مشتعلة في كل مكان لا تفتر ولا يسكت صوت السلاح. وفي المقابل فإن الحياة لا تتوقف، مطاردة الرزق والمال وحصاد الأمل.

لم يجد الصبي نفسه في الحرب، فقد أحب البحر.. أحب أن يكون مثلاً لنفسه وآثر ألا يقلد، وهو لا يعلم كيف ومن أين جاءته الفكرة بالضبط. فالذهن يتوقف أغلب الأحيان عاجزاً عن الاكتشاف، كيف كوّن هدفاً معيناً وسار باتجاهه غير مبالٍ بالعثرات والتحديات. قد يكون ثمة تحذيرات من أناس محبطين أو مصاعب وتحديات، قد مرت بالصبي، لكنه لم يكترث، وتلك كانت وصية الرجل الذي أخذت الشمس تضرب على جثته وقد تمزقت بعض من ثيابه البيضاء.

استعان الصبي ببعض من خبراته في الحياة بأن يركز على المهم أولاً، وينسى العقل الذي لن يسكت أساساً عن اختلاق الذكريات والقصص والتصورات، خاصة إذا ما كنت تعيش وحيداً، فالوحدة

هي التوحش والقسوة وهي الأنين الذي بقدر ما يقرّبك من نفسك الحقيقية، يجعلك تعاني مرارة الخديعة، أن تعلم أن الإنسان لم يخلق ليكون وحده بل ليعيش مع المجموع، وهذه النتيجة لا تأتي إلا بعد التجربة.

يتوصل لهذا بسرعة، فقد بات ذهنه يعمل بعقلية ذلك الرجل الميت أمامه، كانت الأيام الماضية كافية لتصقل دماغه وتدربه بدرجة لا بأس بها في وعي الكثير من حقائق الكون، كيف يفكر بشكل جيد ويتعلم كيف يدير علاقته مع الوجود، ولو كانت نواميس الطبيعة مرتبة فعلاً، فقد كان القدر الإلهي يعده تماماً لاستقبال هذه اللحظة الغامضة من حياته. التجربة التي لم يظن أنه سوف يمر بها من قبل.

شعر برجفة وخوف شديدين، رغم إدراكه أن عليه ألا يخاف، ثم نازع كل ذلك واستعد لدفن الرجل، أخذه بهدوء في البداية، جرّه باتجاه شجرة وارفة الظل لكي تحميه من حرارة الشمس، من بعيد رأى أشباح لأشياء تراقبه، حتى أنه خاف مجدداً. هل هي شياطين وجن تسكن هذا المكان؟ فقد سمع قصصاً متوارثة عن المردة والجن التي تسكن أعالي البحار، حتى أن العم سرجون.. وهو الاسم المحبب للصبي من أسماء الرجل الستيني، كان يؤمن بهذه القصص وروى منها ليس قليلاً.

تغافل أمر هذه الأشباح، الشياطين.. ما شاءت.. أخذ يحفر الأرض بصعوبة وهي أغلبها مبتلة بالماء كأن مطرا غزيراً هطل للتوّ وإن لم ير مطراً منذ أو وجد نفسه هنا مع جثة سرجون، ربما هي طبيعة الأرض في هذا المكان لقربها من البحر أو إحاطته بها.

استعان بغصن قوي اجتزه كذلك بصعوبة من إحدى الأشجار، واستمر في عمل الحفر الشاق، إلى أن صنع مقبرة كافية لاحتواء جسد رفيقه إلى الأبد، وهو الذي لم يجرب في حياته أن يدفن الموتى، كان فقط يرافق أهله وسكان بلده وهم يدفنون أقاربهم أو ضحايا الحروب الذين يمكن العثور على بعض جثثهم أو أعضاء منها يأتون بها محملة بشكل جماعي تختلط أعضاء رجل بطفل بامرأة، لتدفن مرة واحدة إذ يكون فرزها ليس منطقياً ولا ممكناً، في حين تنهمر الدموع ويبدأ طلب الغفران من الله.

جرّ جثة سرجون، أخذها بهدوء بعد أن أمالها على الشق الأيمن دون أن يكون متيقناً من اتجاه القبلة، وقد قدر أن وجود الشمس في الشق الثاني من السماء، يعني أن الغرب من هنا والشرق من هناك. متناسياً أن الشرق والغرب في موطنه وهما يحددان قبلة الصلاة والموتى، قد لا يتطابقان هنا. وحتى بعد أن تذكر ذلك فجأة كومضة برق خاطف، لم يهتم بذلك، لأنه القدر قد جرى، والمهمة قد انتهت. والجثة أكرم ما يفعل بها أن تدفن.

الآن استقر الرجل في قبره الذي ربما لم يكن يعلم.. أنه سيكون فيه ذات يوم.. فقد كان يتخيل أنه سوف يموت بين أهله حتى لو أنه صحب البحر طويلاً ومرات يظن أنه قد يموت في الحرب، لكنه لا يحبها فهو ابن البحار، حروبه هنا وحياته هنا.. وهنا انتهت.

يقرأ الصبي سورة الفاتحة على الميت، فقد انتهى كل شيء.. توارى الجسد تحت الأرض في التراب التي خلق منها ذات يوم وإليها يعود.. وللحظات فكّر في مصيره – هو – من جديد، هل سيجد من يدفنه لو أنه مات؟ أم سوف تأكله وحوش يائسة إن وجدت في هذه اليابسة التي ليس له من دليل على هويتها؟!

التفت دون سابق إنذار على صوت همهمات، كان أمامه أولئك الشياطين الذين شعر بهم قبل قليل، أناس منفوشي شعر الرأس، عراة كما خلقهم الرب، نساء ورجال وأطفال، عددهم يمكن أن يكون عشرين أو ثلاثين فليس هذا وقت الإحصاء. ودق قلبه شديداً مع الرعب الذي سكنه، فقد كانوا ينظرون إليه وبدوا له كأنهم من أكلة لحوم البشر وهذا مفزع، وعبرت بذهنه قصص الغيلان التي لها شكل البشر، تلك التي كانت يسمعها في الحكايات عن جدته في صغره، وكيف أن واحد من هذه الغيلان يستطيع أن يأكل الآدمي في ثوان ويستلذ به بعد أن يحوله إلى رميم من العظام.

اختلطت عليه صورة الحكايات القديمة مع الخوف اللانهائي.. الأفق الذي انسد أمامه بحيث بات كأنه يعيش أضغاث حلم أو كابوس مريع.. وأخرس عن الكلام، بدلاً من أن يصرخ. في حين اقترب هؤلاء القوم منه، يتحسسون جسده الأكثر طراوة منهم، في حين أن أعينهم كانت قوية وشديدة الوميض يصعب النظر باتجاهها.

وسقط صريعاً، فاقداً لوعيه لا يعرف كيف يتكلم أو يفكر أو ينجو.

●●●

(٤)

رأى نفسه يسير في مساحات خضراء، تشبه المكان الذي وصله للتوّ، ليس ثمة أناس متوحشين ولا متسامحين، ليس هناك سوى شمس واحدة مشرقة طوال الوقت، وتطل من وجه السماء خيالات يحاول أن يتلمس ماذا تكون، يعجز، يحتار في هويتها، ثم يركز الرؤية فيستطيع أن يبصر وجهاً ضاحكاً. إنه وجه سرجون يكلمه من هناك قبل أن يودعه نهائياً وهو صاعد إلى مطافات السماوات البعيدة.

«كن حذراً يا ولدي.. لا تعطي سرك لأحد.. كن شجاعاً لا تخف من أحد»

ثم يغيب عنه الرجل الستيني، ينزوي بعيداً عن الأرض لتغيب الشمس وتبدأ ظلمة قوية ضاربة في أفق المكان، يفتح عينيه بعد زمن غير محدد، ليرى هؤلاء القوم ما زالوا محيطين به وهم مستمرون في الهمهمة، والضحكات. إنهم يضحكون كالبشر إذن سوف ينجو منهم، أو لن يشكلوا له أي مأزق، فجدته كانت تقول إن الشياطين لا يضحكون، وحتى لو ضحكوا فمن السهل على الأنقياء أن يروا الخبث في ضحكاتهم. وهو يعرف أنه ليس خبيثاً بشهادة سرجون، فقد وصفه في اللحظات الأخيرة بالفتى النقي.

تنازعه هواجس أن الاستسلام للقرار النهائي ليس صحيحاً في كل الأحوال، فقد تتغير الاحتمالات لأي سبب آخر، ففي قانون البحر وقواعد القرصنة تلقى دروساً من هذا النوع، ومعها اكتشف طبيعة الحياة أو الوجود، ليس من ارتهان للثبات وليس من قناعات نهائية، ما يحصل اليوم وبشكل اعتيادي قد يتبدل في الغد، والعكس صحيح، على الإنسان أن يظل ابن الفجاءة وأن لا يتعامل بسوى الشك. وهذا مخيف الآن. مرعب جداً مع هؤلاء القوم.

وسط هذه التوهمات والتفكير المخضب برائحة الخوف من القادم، كان يرى صوراً شبه ممزقة من رحلته. هو الآن في السادسة عشر ربما السابعة عشر من عمره، أمام رحلة طويلة في الحياة، غير أنه مع هذه الأحداث الأخيرة فقد يتبدل كل شيء. ماذا سيفعل هنا؟ وهل سينجو؟ وإلى أين السبيل؟ الأسئلة معلقة في ذهنه لا إجابات لها. والحزن بات سيده، هو حزين تماماً رغم أنه محاط بأناس يضحكون عليه، لا يعلم! وهم يتعاملون معه ويحيطون به كأعجوبة، يتحسسون جسده، الرأس والصدر وحتى العضو الذكري الصغير الذي بدأ في الانتفاض في غير ما الوقت الصحيح لذلك. لاحقا سوف يكتشف أن هذا الحزن مؤقت، لأن طابع هؤلاء القوم هو الضحك، وعلى الحياة أن تستمر بأي شكل كان.

تأمل وجه أنثى.. هي أنثى قطعاً، رغم أنه يصعب التفريق بين الأنثى والذكر بسهولة، فالجميع تقريباً لديهم شعر وحراشيف لكن دقة النظر يمكن أن تحل الإشكال، بحيث أن وجوه النساء أكثر رحابة وإشراقاً، بوّاحة بعطر غريب يسري في الأجساد، ولأن الصبي يحب النساء دون أن يجربهن كثيراً من قبل، حيث لا نساء في البحر، فقط كان ذلك في سنوات البر وعند مدن الشطآن. فقد شعر بقشعريرة تسري في جسده تتقاطع مع منظر هذه الأنثى الوديعة التي تبدي ابتسامة تجعلها تشبه كائناً يجمع بين خصائص القرد والسمكة، وحورية البحر.

اكتشف أنه عاري بلا ملابس، فقد مزّق ثيابه التي كانت مبتلة بالماء وصنع منها كفناً لرفيقه بعد أن أضاف لها ثياب الرجل الميت التي لم تكن كافية وحدها للتكفين، وقد تمزق منها الكثير كما من ملابس الفتى.

وشعر بالخجل أن يكون على هذه الوضعية، غير أنه كلم نفسه..

«إذا كنت غير متأكد من هوية هؤلاء الكائنات فلماذا أخجل. الإنسان عادة يخجل من الآدميين مثله، لكنه لا يخجل من القطط ولا الكلاب، يستطيع أن يسير عارياً أمامها»

ثم غالط روحه، بأن هوية هؤلاء تقترب من البشر، نعم هم أقرب للإنسان من الحيوان، خاصة أنه أحس باشتهاء لواحدة من بناتهم. سماها بنتاً. وهذا دليل على أنهم ليسوا حيوانات، فالإنسان السوي لا يعشق حيواناً ويشعر بالشبق اتجاهه وأن يحدث ذلك في لحظة خوف حقيقي. يمكن أن يحصل ذلك أن يمارس إنسان معتوه الجنس مع حيوان، وهذا لا يعني دليلاً على الهيام بقدر ما يشير إلى الرغبة في تفريغ طاقة مكبوتة، هو شخصياً لم يفعل ذلك، إنما بعض الصبية من رفاق الصبا كان يتصيدون الحمير والأغنام ليشعروا بالسكون بعد أن يغرسوا قضبانهم في مؤخراتها، ومرة كان واحد من الصبية قد حاول أن يفعل ذلك مع حصان فرفسه طريحاً على الأرض حتى كاد أن يموت من الألم الذي أصابه في بطنه. صبي آخر جرب شقوق الحيطان فلدغته عقرب وافتضح أمره مع الصراخ وهو يمسك بقضيبه يتلوى.

الاشتهاء.. يكون من الإنسان لكائن مثله. غير أن ذلك ليس ضرورياً مع الشياطين والجن بشكل خاص، يسمع عن قصص لأناس تزوجوا من جنيات بل أن بعضهم رزق بأطفال منهن، في ذهنه طفلة صغيرة كان الجميع يعرفونها بأن أباها من الجن، وأمها من البشر، فالمعادلة في الواقع أن الذين يأتون من أمهات بشريات يعيشون بين البشر، في حين أن الذين يولدون من أمهات جنيات يفضلون أن يعيشوا بين الجن فلا يظهرون في عالم الإنسان.

تلك الطفلة للأسف ماتت صغيرة رغم أنها كانت باهرة الجمال، شقراء اللون بشعر ذهبي رائع، مدللة، لا تشبه أي من بنات البلدة، وهذا ما يؤكد أنها بالفعل ليست من أب بشري، فالناس معظمهم في المكان بأجساد سوداء أو سمراء على الأكثر، وشعر أسود قرقدي، لا يوجد من شعر أشقر إلا للبنت التي كان اسمها صفية كما أسمتها أسرتها، كان أبوها معروفاً يعمل غواصاً في البحر يستخرج الآلئ ، غير أنه من الصعب إثبات أنه والدها بالفعل. طبعا هناك من قال أن صفية بنت سفاح، وأن الغواص ليس أباها .

يقفز الصبى عن كل هذه الذكريات والقصص المتداخلة، يكاد يجن بالصبية القلزمية، في حين كانت عيون الرجال والنساء والأطفال تحيط به بدهشة تامة، من أين جاء هذا الكائن الذين يشبهنا . يريدون أن يتكلموا معه، غير أنه ليس من سبيل للتواصل أو الكلام. ليس مما يقال الآن. ربما يحدث ذلك لاحقاً، عندما يكتشف أن هؤلاء القوم أذكى مما تصور مبدئياً .

●●●

ثالثاً: الفريق الاستخباراتي (١)

أعطى الكولونيل باترس تعليماته للمجموعة بأن لا يستخدموا السلاح طالما لا يوجد أي تهديد من القلزميين، في حين تفرق الجميع في الجزيرة كل مكلف بمهمة عمل معينة، هناك من سيجمع الحشائش، وهناك من سيأخذ عينات من التربة، وغيرها من دلائل الحياة والجمادات كالأحجار والصخور متوسطة الحجم التي يمكن نقلها بالمروحيات إلى أقرب مطار ومن ثم إلى أمريكا. وثمة من هو مكلف بالمهمة الأكبر والتي تتعلق بأخذ عائلة من سكان الجزيرة، أم وأب وطفل، وإذا كان غير معروف أن هذه الكائنات لها نظام أبوي أو عائلي، فقد قال باترس للرجل الواقف أمامه من فريق المهمة:

«نريد ذكراً وأنثى وطفل ليس بالضرورة ذكر أم أنثى.. المهم هو طفل صغير»

رغم الإحساس المبدئي بأن الأمور ستجري بخير مع القلزميين وأنهم لا يبدون توحشاً، فقد كان التوجس سيد الموقف لدى أغلب المجموعة، فأن تكون وسط عالم غريب لم تألفه من قبل فهذا أمر مزعج. كان باترس وغيره يفكرون بذلك، وهم يتوقعون حدوث أي واقعة غير محسوبة وربما في الوقت غير المتوقع.

كانت طبيعة عمل الفريق بشكل عام تجمع بين عدة مهام. وهذا يعني أن كلمة استخباراتي قد لا تكون دقيقة في التوصيف، وإن كانت شاملة. فالاستخبارات كلمة واسعة في عالم اليوم توسعت لتحتوي الأعمال العلمية والاستكشافات المتعلقة بالبيولوجيا وغيرها. وهو التعريف الأكثر عمقاً وابتكار في ذهن باترس منذ أن تم تكليفه بشكل مباشر من قبل الرئيس الأمريكي، الذي اجتمع به ذات مساء قبل عدة أشهر تقريباً، لم يكن وقتها ثمة من أحد في العالم قد سمع بخبر الجزيرة.

جلس باترس قبالة الرئيس في البيت الأبيض، في حين كان عدد من المسؤولين حول الطاولة الدائرية، استطاع أن يميز من بينهم رئيسه المباشر وزير الدفاع وهو رجل في العادة لا يثق بقدراته العسكرية وفق تقدير باترس نفسه ولهذا نادراً ما كلفه بمهمة إلى خارج أمريكا، سواء في الشرق الأوسط أو أفغانستان أو الصومال أو أي بقعة على الأرض.

لهذا فقد كان حضور باترس هنا في اجتماع بهذا المستوى الرفيع، مثار استغرابه الشخصي، قبل أن يسمع الوزير يقدمه للرئيس قائلاً:

«إنه الشخص الأكثر كفاءة لقيادة الفريق»

تأكد باترس أن العقدة قد حلت بينه والوزير، وأن سوف يتولى الآن مهمة عسكرية في الخارج ولكن إلى أين؟ ليس من تصور مسبق حتى الآن. قد تكون إلى سوريا مثلاً أو ليبيا أو ربما نيجيريا فهذه مناطق ينشط فيها المتشددون ويدرك أن ثمة خطط تحت الطاولة لم تختمر بعد للتدخل ربما في أي لحظة في أي من هذه الجهات، غير أن القرار النهائي بيد وزير الدفاع والرئيس وحتى لو استشارا الكونجرس فهذا سيكون تمريراً لفكرة تم طبخها جيداً في الخفاء مع الجميع الذين سوف يسمحون في النهاية بتمرير المطلوب بالضبط.

عدّل جلسته، وهو يلحظ ابتسامة الرئيس الذي وجّه كلامه نحوه:

«سيد باترس.. هل أنت مستعد؟»

ردّ بهدوئه المعتاد:

«نعم.. نعم»

ما جعل الجميع يبتسمون بما فيهم الرئيس، الذي كان أولهم، وقال:

«نعم.. على أي شيء؟ هل أنت تعرف مهمتك ماذا ستكون؟»

شعر بالحرج لكن كان يعرف أن لديه الإجابة. ردّ:

«بطبيعة عملي كعسكري فهذا يعني مهمة عسكرية في بلد ما»

ضحك الرئيس هذه المرة ومعه الوزير الذي كان قليل الضحك وإذا ما صدرت منه ضحكة بدت مفتعلة، قال بعدها الرئيس بجدية:

«على العموم.. لنشرع في العمل هي مهمة مختلطة بين الطبيعة العسكرية والأمنية والاستكشاف العلمي»

وضعت خريطة على الشاشة، كانت آنسة قد شغلتها بالريموت كنترول، نظر الجميع باتجاهها، وهم ينتظرون.. أغلبهم كان يعلم لأنهم كانوا من أعضاء الفريق الذي تم اختياره سلفا للمجموعات الأمنية والعسكرية والعلمية والاستكشافية وغيرها، في حين تأخر اختيار من سيتولى القيادة إلى أن تم ترشيح باترس من قبل وزيره الذي قرر أخيراً أنه قد جاء الوقت المناسب للرجل، فباترس أعمق من كونه عسكري، وبقية العساكر ليس لديهم خواص أو أبعاد علمية أو روح المغامرة المعرفية لهذا لن يصلحوا في مهمة كهذه.

ظهرت على الخريطة منطقة الشرق الأوسط. ومعها شعر باترس بأول الخيط.. إذن إلى هناك.. حيث الحروب والعنف والربيع العربي الفاشل، وحيث الاحباطات التي لا تنتهي.. لقد قابل قادة عسكريين عرب جاءوا إلى أمريكا في دورات عسكرية كانوا يتكلمون عن كم من المآسي التي يعيشونها بدواخلهم. في حين كان يفهم أنهم كاذبون لا يتمتعون بالصدق، وأن الحقيقة وراء ذلك خارجهم تماما، فالمأساة

يعيشها السكان لا هؤلاء الجنرالات المزيفين. فرق بين الجنرال الأمريكي والعربي، كان يعقد المقارنات وينتهي إلى اللاشيء. أن يظل متمسكاً بفكره الخاص أن على كل إنسان أن يعمل قناعاته فحسب وألا يشغل أي ما يدور خارجه، إلا ما يتعلق بعمله ونجاحه، ولكن كيف له أن يحقق نجاح مع السيد الوزير الذي لا يمنحه فرصة.

الآن جاءت الفرصة، كيف جاءت؟ ليس من إجابة واضحة، وليترك التفكير في ذلك فسوف يتضح كل شيء مع الأيام.. المهمة وحدها سوف تكشف تفاصيلها وكيف تم حبكها.

شعر فجأة بأن الرئيس يكلمه وكأنه لم يكن منتبهاً أو أنه سرح بعيداً عن الغرفة المضاءة بشكل جيد، والتي أطفأت الآن مع حركة المؤشر على الشاشة باتجاه نقطة على البحر الأحمر باتجاه سواحل السودان.. فكر أنها مهمة عسكرية للتدخل هناك، القرن الإفريقي أو السودان.. الصومال..

«الصومال مرة أخرى ألا يكفي الجحيم الذي حدث في عهد كلينتون عندما تعرضت القوات الأمريكية للموت السريع فهربت.. نعم هربنا»

يكلم نفسه، ثم يتذكر أن الرئيس أكد أنها مهمة معقدة لها أكثر من طابع، فهو يتكلم الآن مجدداً ويجب أن ينتبه له..

«من هذا المكان تقريباً تم ضرب مصنع الأدوية في الخرطوم نهاية القرن الماضي، الذي استخدم لأغراض تصنيع نووي بدائي بدعم من إيران.. دائما لدينا الدقة في توجيه الأهداف.. تكنولوجيا متطورة والفضل لكم.. الآن نريد أن نثبت أننا أمة العلم ونسبق الجميع»

واصل:

«طبعا لمهمة ذات طابع شامل.. فهؤلاء فريقك سيد باترس.. تفضل بالتعرف عليهم.. يوجد أعضاء من جهاز المخابرات الأمريكية.. ومن وكالة الفضاء ناسا. ومن الشرطة الفيدرالية ومن جامعات كورنيل وآخرون سوف تعرفهم فرداً فرداً.. الآن نواصل شرح المهمة..»

يشير الرئيس إلى الآنسة بالانتقال لشرح الجزء الثاني، تكون قد انتقلت لصورة مقربة لمكان محدد بالبحر الأحمر قريبا من مدينة بورتسودان الميناء السوداني غربي البحر الأحمر قريبا من حدود مصر الجنوبية..

تتكلم الآنسة بهدوء عن قصة الجزيرة.. بتفاصيل كثيرة ومربكة.. كثير من الأسئلة لا إجابات لها ويبقى على باترس ورجاله أن يكتشفوا سرها.. أن يفكوا الغموض. هذا ما فهمه الكولونيل بوضوح بعد نصف ساعة من بدء الاجتماع.

انفض الجميع، كان باترس قد أسرع لعناق وزيره وهو يقول له:

«لأول مرة اكتشف أنك تقدر موهبتي»

لم يعلق وزير الدفاع الذي كان قد انصرف من البوابة وراء الرئيس، تاركاً الكولونيل مع فريقه لبدء الخطة إلى القلزم.

●●●

(٢)

في المروحية التي انطلقت من قاعدة جوية بجيبوتي باتجاه البحر الأحمر، بعد أن وصل الفريق الاستخباراتي هناك قبل يوم واحد واستقر بفندق في العاصمة جيبوتي قبل أن يصل الى مقر المارينز، ظل الكولونيل باترس مشغولاً بمهمته الجديدة، وهي أول عمل له خارج الولايات المتحدة، ولئن سافر إلى بلدان كثيرة فقد كان ذلك من قبيل النزهة الشخصية مع زوجته وابنه الوحيد الذي يدرس بالجامعة، ودعهما وفي ذهنه بعض من الخشية المجهولة لأشياء يمكن أن تحدث، لا يعلم ماهيتها بالضبط؛ نوع من التوجس المرتبط بطبيعة المهمة، التي لم تعد سرية بعد أن عرف العالم كله نبأ الجزيرة.

خلال الأشهر السابقة من التحضير وقبل أن يعرف سكان الأرض بالخبر، استطاع باترس أن يحتفظ بالسر، لم يخبر زوجته وولده بذلك، حتى لو أنهما راقبا فيه اختلافا في التصرفات، كان يبدي قلقاً بعض المرات أو أنه ليس ذلك الرجل الذي عرفاه بسجاياه الخاصة وصمته المستغرق في التأمل وإصراره على السهر لساعات طويلة وهو يقرأ بشكل غزير في شتى أنواع المعرفة. وقد تغيرت طبيعة قراءاته، صار يقرأ لداروين في أصل الأنواع وكتابات حول البيولوجيا والنباتات والجيولوجيا الأرضية، وابتعد عن الفكر المباشر والأدب. والأهم أن

لديه ملف «فلاش» يدخله في آخر الليل لجهاز اللابتوب الشخصي، يطالعه لساعتين أو أكثر قبل أن يدون معلومات ما على نوتة ورقية، ثم يغلق الجهاز، يرمي بالفلاش في جيب الجاكيت.

ظل على هذه الحال إلى يوم السفر، عندما أخبر أسرته بطبيعة مهمته:

«سأسافر إلى جزيرة القلزم؟»

«نعم إلى هناك.. لقد كلفت من الرئيس مباشرة بذلك»

بدت زوجته مرتعبة، فقد تبادر لذهنها أن هذا المكان بحسب ما سمعته عنه من الأخبار قد يبدو غريباً لا يمكن التكهن به، خاصة أنه خرج فجأة. وفكرت أنه ربما كانت تجارب نووية وراء ذلك وهذا يعني أن الجزيرة سوف تكون مشبعة بالإشعاعات النووية، وصرخت في باترس:

«لا يا حبيبي.. لا»

احتضنها وهو يطمئنها:

«لا تخافي لن يحدث مكروه.. لا تصدقي ما يقال في التلفزيونات»

«لكن أنت تعرف الحقيقة؟ هل لديك فكرة جيدة عما يجري؟»

ابتسم وهو يرد عليها ممسكاً بيد ابنه سيزان قبل أن يقبله ويحتضنه بقوة:

«كونا بأمان.. أخطر ملفات الجزيرة معي.. ليس ثمة شيء مخيف.. لا أحد تقريبا على وجه الأرض يعلم عن القلزم أكثر مني»

فهمت سوزان الآن كل شيء، وأدركت السر الذي كان يقلق زوجها في الأيام بل الشهور الماضية منذ ذلك النهار الذي جاء مسرعاً وأغلق عليه غرفته يبدو بين المكتئب الحزين والسعيد بخبر لا يمكن أن يفصح عنه. ولم تستطع أن تخرج بإفادة منه. اتضح الأمر الآن وبدأ الخوف يسري في أوصالها، وقد تم اتخاذ القرار، ليس من مفر، كما أن طاعة الجمهورية فوق كل شيء. لقد ظل باترس يخدم أمريكا طوال حياته وهو الآن على أعتاب الستين تقريباً تبقت له سنوات قليلة للتقاعد، وقد جاءته فرصة عمره ليظهر أمام الملأ ويتم تصويره في الشاشات ويكتسب شهرته التي تليق به بعد أن فقد الأمل. بل هي سوزان التي فقدت ذلك الأمل، رغم أن باترس كان دائما ما يطمئنها:

«إذا كان لديك ما تقدمه فسوف يأتيك الحظ حتى لو أنه تأخر»

ثم ترد هي عليه بأسى:

«أنت موهوب.. ليس لأنك زوجي، بل لأن هذه حقيقة، لكنك تعيس الحظ أو أن هؤلاء الذين يكلفون بمهام كبيرة هم أذكى منك.. أشك في ذلك.. أعرف كيف يفكرون هؤلاء القادة العسكريين»

كانت سوزان تشاهد كيف أن كبار الضباط يحصدون الشهرة والمال والمقابلات الصحفية من وراء مهام خارجية يديرها أغلبهم من مكاتبهم في واشنطن ومدن أمريكية أخرى وهم في بيوتهم، دون أن يسافروا فعليا إلا مرات معدودة. تسمع هذه القصص من زوجها وهي متأكدة أنه لا يكذب، ولا يغار. كانت لديه الثقة المطلقة في نفسه.

ذرفت الدموع من عينيها هي وسيزان قبل أن يصعد باترس الطائرة الخاصة بالجيش، وكان معه فريقه المكون من عشرين رجلا وثلاثة نساء.. تقريبا هذا هو العدد الصحيح، ولئن لم يكن الوقت مناسباً لأن تحصي الآخرين.. فكرت سوزان بذلك، وتذكرت أن باترس قد ذكر هذا الرقم فعليا.

في طريقهما إلى البيت، توقفا عند مطعم قديم كانا قد اعتادا الدخول إليه آخر الليل للعشاء المتأخر واحتساء بعض من الكحول، كان سيزان يقود السيارة، طلبت منه سوزان أن ينحرف يميناً ومن ثم أن يركن السيارة عند أول مبنى، حيث قرأ لافتة المطعم.. استجاب لأوامر والدته وقبل أن يطلبا الطعام انهمرت في بكاء عميق، وهي تقول لولدها:

«رغم كل ما بثه باترس من طمأنينة أنا خائفة!!»

أحيانا يرى القلب ما لا تراه العقول، حتى لو لم يكن الإنسان يعرف موقع هذا الجزء الغريب الذي يسمونه القلب. ليس هو هذه العضلة التي تضرب بعنف ساعات الخوف، هي فقط تعطي الإشارات؛ لكن الموقع الصحيح في مكان آخر مختلف تماما. ربما هو العقل الباطن أو الجهة التي يطلق عليها اللاوعي القادر على التقاط كيمياء الكون الخفية والمركبات البعيدة ما وراء كل ما نرى وما نتحسس في الوجود حولنا.

لم تشغل سوزان بالها كثيراً بتلمس موضع القلب، قبل أن تمضي أيام ويصدق هذا القلب، لتتحول فرصة العمر الأخيرة إلى كارثة. في تلك اللحظات كان شاشة التلفزيون ماركة إل جي، أمامها تبث نشرة إخبارية.. لفت سيزان انتباه أمه إلى صورة والده وهو يظهر على الشاشة في اجتماع مع الرئيس الأمريكي ويجلس بجوارهما وزير الدفاع الرجل الذي لا تحبه سوزان مطلقا وكان هناك عدد من الفريق. كانت صور هذا الاجتماع تظهر لأول مرة، وفهما أنه ذلك اليوم الذي قابل فيه باترس الرئيس لأول مرة في حياته لتبدأ هذه الكارثة كما يتحرك قلب سوزان الآن ويقول أشياء مزعجة.

●●●

(٣)

أصبح الكولونيل باترس الرجل الأول في أمريكا وفي العالم، لا يوجد من أحد إلا ويشير إليه بوصفه كنز أسرار جزيرة القلزم، ولو أن رئيسه وزير الدفاع كان يعرف أن الرجل سوف يصبح أهم من الرئيس نفسه ويتصدر الأخبار لكان قد تطوّع هو شخصيا بالسفر إلى هناك، غير أنه في قرارة نفسه كان يفكّر في أمر آخر خبيث، دون أن يحسمه، كان يلعب ذهنياً على فكرتين متناقضتين تؤديان للنتيجة نفسها. لئن نجحت المهمة فسوف ينسب له النجاح أمام الرئيس والكونجرس فهو الذي اختار باترس للمهمة، ولئن كان الفشل وحصل مكروه فسوف يكون قد تخلص من الرجل الذي يشكل أكبر تهديد مستقبلي له، في الماضي استطاع أن يقصيه تماما والآن هو في شك من أمره، هل ارتكب خطأ بأن اختاره؟! لأنه إذا تحقق له النجاح، أي لباترس، فالتهديد سيكون قويا.

ظل الوزير يفكر بهذا الشكل وهو مضطرب وشبه سكران جالساً في مكتبه لآخر الليل، حيث من المفترض أن يتابع ما يحدث بالضبط ويرسل تقريراً مباشراً كل أربع ساعات إلى الرئيس الأمريكي، ليتخذ القرارات المناسبة. وكانت هناك شبكة داخلية تنقل صوراً مباشرة من الجزيرة للوزير ومثلها في مكتب الرئيس بالبيت الأبيض وبمنزله

والسيارة الرئاسية، بحيث يمكن له أن يتابع كل حدث في لحظته، ما تفعله التقارير أنها تعطي اللمسات لما وراء الأحداث والمضامين.

يدرك وزير الدفاع أن مواهبه في التقارير بائسة، وبهذا كان قد كلّف أحد أعضاء مكتبه بأن يرسل إليه التقرير فقط ليوقّع عليه إمضائه الإلكتروني قبل أن يرسله على هاتف الرئيس المحمول مباشرة، هذا النظام الذي تم اتباعه منذ عدة سنوات في الجيش بعد أن تم تصميم شبكة قوية غير قابلة للاختراقات، سبق أن صمم نظام في الماضي قامت بتهكيره جهة مجهولة من داخل الصين، ما استدعى تطوير أسلوب الحماية الحالي الذي يؤدي غرضه بشكل مطمئن.

مضت خمسة أيام وكل الوقائع تسير بهدوء، المعلومات تتواتر. نصب الفريق بيوتاً مؤقتة في الجزيرة، تم نقل معدات على شاكلة آليات حفر صغيرة وقبلها كانت طبعا الكاميرات الحساسة وكل المسائل المتعلقة بالاتصالات الفورية وتبادل المعلومات. كان العمل يمضي حثيثاً ويكشف عبقرية الفريق بجد، الأمر الذي كان يطرب وزير الدفاع ويشعره بأنه محظوظ فعلاً باختيار هذا الرجل الذي لا يحبه، غير أن المصلحة تعلو على كل فكرة أخرى طابعها الغل والأحقاد، مصلحة الولايات المتحدة الكبرى.

رآه أمامه على الشاشة يمشي في الجزيرة، قريباً من أحد الأشجار ومن بعيد يراقبه عدد من هؤلاء القوم الغريبين سكان الجزيرة، الذين أوضح آخر تقرير للفريق بشكل قاطع أنهم مسالمون فعلاً رغم مظهرهم المتوحش، وأنهم يتمتعون بذكاء لا بأس به يمكن تطويره لإمكانية التفاهم السريع معهم، يتطلب ذلك تدريب بعضهم على الأقل ثلاثة منهم، أي عائلة، لكي يتثنى عبرهم كشف بعض الحقائق عن الجزيرة وتاريخها إن أمكن أو تاريخهم الشخصي، غير أن المعضلة التي لا تزال غير واضحة، هل لو استطاعوا كسب اللغة وتعلمها سيكون لهم أن يتذكروا ماضيهم، هل لديهم خاصية الذاكرة.. هل الذاكرة مرتبطة باللغة أم هي مفصولة عنها؟ وهل يمكن للكائنات مثلا أن تخزن الذاكرة كصور ومشاهد فقط مفصولة عن الإدراك اللغوي؟.

كانت هذه الاستفهامات قد شغلت الرئيس الأمريكي وهو يقرأ التقرير الأخير، متلهفاً لمعرفة بقية الأحداث في القلزم بعد أن أصبح هذا الملف الأول بالنسبة له، يستيقظ وينام عليه، بل يحلم به، وهو يريد أن يصل للخطوة القادمة منه.

كانت الأبحاث قد قطعت أشواطاً لا بأس بها، بدأت مثيرة وقد تفتح أسئلة علمية مهمة جداً بتقدير باترس، الذي كان رغم حنينه لأسرته التي يغادرها تقريبا لأطول مدة في حياته؛ يشعر بأن هذا

العمل رائع وكان من المفترض أن يكون في مهام كهذه منذ سنوات طويلة، بل لو منح الفرصة وعاد الزمن للوراء لكان قد أنشأ وحدة في الجيش، لو سمح له، تجمع بين هوية المهام العسكرية والعلمية، كهذا الفريق الذي يقوده، فقد بدأ يؤكد قناعة كانت تدور برأسه منذ وقت مبكر أن فكرة العمل العسكري أو مؤسسة الجيش الأمريكية ذات صلة كبيرة بمجمل المشروع الأمريكي في العلوم والفكر وتطوير الحياة بشكل عام، بما في ذلك المهام الاستكشافية المعقدة، وهناك بعض الأجهزة مفترض أن تكون تحت مسؤولية الجيش والاستخبارات مباشرة مثل وكالة ناسا على سبيل المثال، قد تكون لها خصوصية اليوم لا تمنع من علاقتها بهذه الجهات، غير أن المطلوب أعمق من ذلك.

عاد بذاكرته إلى بعثة كانت قد أرسلت قبل خمس وعشرين سنة إلى القطب الجنوبي، حيث أجرت عمليات استكشافية هناك وتوصلت لنتائج مذهلة بعدها لا يزال محجوباً إلى اليوم، يعلم أن الجيش يخزن آلاف الأسرار حول معضلات ومشاكل ذات طبائع مختلفة بعضها غير عسكري بالمعنى الملموس، غير أن هذا لا يعطيه حتى اليوم التحدث باسم المؤسسة العلمية أو سواها، فقط يظل محتفظاً بدوره ومظهره الذي يبدو عليه منذ عقود بعيدة، أنه الجهة التي يجب أن تضحي من أجل حماية أمريكا وأمنها لا غير. لو كان قد سافر مع

تلك البعثة، وكانت أمامه فرصة لم تكتمل لأنه كان مشغولاً بإكمال زواجه من سوزان، لتغيرت أمور كثيرة منذ ذلك الزمن، أحيانا لو تسمح لنا الحياة أن نعود للماضي لغيّرنا قرارات كثيرة ومعتقدات وقناعات وربما كسبنا حياة أفضل. غير أن طبيعة الكون والوجود لا تسمح بتكرار التجربة ذاتها من جديد، إلا أن تقدم بصورة أخرى وهنا لن تكون التجربة التي تم المرور بها في المرة السابقة، ستصبح أمراً مختلفاً تماماً.

●●●

(٤)

بالنسبة للفريق الاستخباراتي لم تكن المهمة سهلة قطعاً، في البدء تبدأ الأمور ممتعة وبسيطة وبعدها يكتشف الإنسان أن الطرق طويلة ومعقدة. هكذا رحلة البحث في الجزيرة، اتضح أن المطلوبات كثيرة لا تحصى، فقائمة ما يجب إنجازه يتسع، والتحديات لا تنتهي ففي كل يوم يظهر قلق من نوع جديد، تحديداً في هذه الجزئية فقد كان باترس قادراً على إيقاع نفسه في الفخ بتمديد المهام واختراعها، وهو يدرك تماما أن بعض العقول تكون مدعاة للخيبة بانفتاحها المبالغ فيه، أحيانا يحتاج الإنسان لقليل من السذاجة حتى يصل للنتائج الأفضل.

على سبيل المثال فإن الجانب المتعلق بجغرافية الجزيرة من ناحية المساحة والطقس وهذه الأمور، كان كل شيء واضحاً في البدء.. اتضح لاحقاً أن العمل قد يستمر لسنين، وليس يوماً أو يومين. كذلك توجد قضايا تتعلق بطبيعة الموارد، إذ لابد من خارطة مبدئية لما يمكن أن تختزنه الجزيرة من معادن وأشجار وصخور كل مورد ممكن، التفاصيل تأتي فيما بعد، ليس مهماً أن يكون كل شيء واضحاً الآن. وهذا ينطبق على كل جانب تقريباً. وهذا يعني أن التقرير النهائي المرفق بالصور والبيانات سوف يكون مهولاً، فهل سيجد الرئيس

الوقت لقراءته؟ خاصة أنه يفضّل أن يغوص في تفاصيل كل الأمور بدقة، ويناقش فيها المكلفين بالعمل المعين.

أمام ذلك كان على باترس لكي يختصر الوقت المحدد للفريق وهي مدة ثلاثة أسابيع لا أكثر؛ أن يحدد المسائل المستعجلة والخطوط العامة للعمل، يجب ألا ينقل عدوى التمدد والبحث عمّا وراء كل شيء إلى فريقه، يجب أن يفكر في هذه الأمور ولكن مع نفسه دون أن يجعلهم يهجسون بذلك حتى لا يضيع الوقت ويخلق حالة من الارتباك لهم. كما أن بعض القضايا والأسئلة تحل ليس هنا، إنما في المعامل هناك بالولايات المتحدة وفي المختبرات المتخصصة والمركزية، لهذا فالذي من المفترض أن يحدث بالضبط هو أخذ العينات، وبالنسبة له شخصياً بعيداً عن كونه يقود الفريق أم لا، كان مهووساً بموضوع القلزميين، لقد أحبهم.. أحب أن يفهم ماهية هذه الكائنات وتاريخها وهي تذكره بشخصيات الأفلام التي كان يشاهدها ابنه سيزان في صباه وطفولته، دون أن يظن أنه سيلاقي ما يشبهها ذات يوم، يتعامل مع الموضوع على أنه مجرد خيال؛ لكن ما يظهر في قنوات «الكارتون سي إن» وغيرها كان فيه مبالغات واضحة، هؤلاء القلزميون يبدون أكثر منطقية وقربا للواقع البشري، الأمر الوحيد المحيّر فيهم، ربما طبيعتهم البرمائية، وفي ثنايا الانشغال بشأنهم كان هناك أمر مقلق آخر فكّر فيه باترس لم يكن قد تم وضع اعتبار له من قبل، وهو

تخوفه من أن يكون هؤلاء القوم حاملين لأي جراثيم أو بكتريا أو فيروسات ضارة قد تنقل عدواها إلى البشر فيشكل ذلك تهديداً للجنس البشري، كيف فات عليهم ذلك، أو بالأحرى كيف لم يلتفت الشخص المكلف بالمهام العلمية والاختبارية في ذلك؟!

عجّل بالإرسال لرئيس المجموعة العلمية، البروفيسور لارنج الذي وصل بقامته الطويلة، وعينيه الوقادتين، جلس أمام مصباح كهربائي مضيء في غرفة الكولونيل بالجزيرة، كان الليل شديد الإظلام في الخارج، والحياة تبدو هادئة كأن هذا المكان موجود منذ الأزل.

أخبره باترس بالقلق الذي يساوره، على الفور:

«أنا خائف من احتمال أن يكون هؤلاء القلزميين ضارين بأي شكل ما»

«أنا أدرك أنك هنا لا تعني التوحش؟»

«نعم تفهمني إذن.»

خلع البروفيسور لارنج ذو الأصول الهندية نظارته، ردّ:

«كل شيء تحت السيطرة سيدي، هذا عملنا وقد قمنا بذلك من الوهلة الأولى.. النتائج أرفقت سلفاً في التقرير الأول الذي سبق أن استلمته»

شعر باترس بالحرج، أنه أزعج الرجل وكان يجب أن يتأكد من عمله بوصفه رئيس الفريق، واعتذر قائلاً:

«يبدو أن كثرة المهام والتكاليف والمراجعات جعلتني أقلق أكثر من اللازم.. أنت أدرى بعملك»

كان سينتهي الأمر هنا.. لكن باترس فقد بعض من سيطرته وهدوئه لسبب غير مبرر.. ربما ردة الفعل على إحساسه بأنه أحرج، وأنه لا يتابع عمله بشكل جيد. وهذا مخيف قطعا.

«لأن انهيارك الشخصي يبدأ في اللحظة التي تحدث شروخ صغيرة، تتكاثر لتصبح عظيمة لترمي بك في المزبلة، الناس تبحث عن الأخطاء ثم تراكمها في متوالية هندسية لتبدأ في اطلاق اللعنات»

وسوس باترس مع نفسه بذلك، قبل أن ينفجر قائلاً:

«كان يجب أن تخبرني سيد لارنج.. أنت تعرف أنه لا وقت لي لقراءة كل شيء.. بهذا الشكل تركتني لأفكار ساذجة، أن تسيطر على دماغي لبعض الوقت الذي كان من الممكن توظيفه في أمور أخرى»

هنا اشتعلت حمى العنصرية والأصول بين طرفين، دون أن يتكلم أحدهما، كانا قد وقعا أسرى مسألة تلقي بأطيافها في المجتمع الأمريكي في الدهاليز وأحيانا تطفو على السطح.. فباترس أمريكي

أصيل وليس مُجنساً، والده جاء أمريكا من أوروبا قبل ثلاثة قرون. أما لارنج فلم يصل هنا إلا قبل ربع قرن أو أقل.. وكانت ردة فعل البروفيسور قاسية نوعا ما، رغم أنه سيطر على نفسه في البداية. الآن هو شعر بالمسألة برمتها على أنها استفزاز شخصي له ولأصله.. وكلّم نفسه:

«كيف سيفوت على أستاذ جامعي قضى أكثر من ثلاثين عاماً باحثاً حول الشعوب البدائية وتركيبها الجيني وتصورها عن الحياة والعالم وغيرها من مسائل، كيف سيفوت عليه هذا الأمر المبدئي؟»

ولم يتمالك نفسه، قال لبتروس:

«يؤسفني أنني أعمل مع رجل لا يفهم طبيعة عملي بدقة»

ما الذي يضطره ليرفع صوته ويقول الكلام الجارح، هل هذا البروفيسور قد جنّ وهو يتحدى باترس، كان الكولونيل يفكر بهذا الشكل. وهي الفكرة نفسها التي عبرت في ذهن لارنج. ومرات يكون العقل هو الأفضل لحسم الأمور. الناس المتعقلون يصلون للحلول السريعة والحاسمة. فقد سيطر الرجلان فجأة على موقفهما وأنه لا يوجد ما يستحق. باترس كان إنسانياً ورائعاً في هذا الجانب، أسرع يقول للبروفيسور:

«آسف جدا..

قبل أن يكمل أسرع لارنج هو الآخر يقاطعه:

«ليس من سبب يجعلك تأسف. أنا من يأسف»

فهم لارنج أن السيطرة على النفس ضرورية، حتى لو شعرت بأن ثمة من يشكك في قدرتك فالعبرة بالنتائج النهائية، وخرج من عند باترس. مرتاح نوعاً ما، لكن ليس له من دليل قوي في باطنه على أن المسألة قد انتهت. رغم أنه توصل ببساطة إلى أن باترس فعلا طيب، وهو يدرك ذلك، ولهذا لم يكن يتقصد أي إساءة.. رغم ذلك ستبقى الجروح لبعض الوقت قبل أن تشفى. طبيعة المهام في أماكن معزولة تتطلب التكاتف، هذه هي قناعة لارنج الآن.

●●●

رابعاً: طبيب البحر
(١)

تعتبر حديقة سيكرت جاردن Secret Garden بولاية لاس فيجاس الأمريكية واحدة من الحدائق التي يرتادها عدد كبير من الزوار على مدار العام منذ إنشائها سنة ١٩٩٠م وتقوم بدور في توعية الزائرين بأهمية الحيوانات المختلفة لاسيما المنقرضة، كما أنها تطرح أنماط حياة الأسود والنمور والفهود وسواها من حيوانات الغابة التي يؤتي بها في هذا المكان بحيث يمكن التعرف على الطرق الصحيحة أيضا للتعامل معها، غير أن الأهم في مجمل سيرة هذه الحديقة يتعلق بعرض العديد من الحيوانات نادرة الوجود.

أن يعرض بشر أو كائنات قريبة للملمح البشري في حديقة حيوان، كان أمراً غير لائق ومستفز للكثير من المنظمات لاسيما مثل جماعة «المدافعون عن حقوق سكان القلزم» التي رأت أن هذا غير أخلاقي وغير قانوني وأن التحقيقات سوف تثبت ذلك بعد أن يكشف الزمن الأمور بوضوح، عاجلاً أم أجلاً.

جاء ذلك مع أول يوم تم فيه الإعلان عبر وسائط مختلفة لعرض ثلاثة من سكان القلزم في أقفاص بالحديقة وهم يبدون كما أوجدتهم

الطبيعة أو خلقهم الله، ولكن بعد أن خضعوا لحمام بالصابون والألياف وتم قص الحراشيف أو تقليل مظهرها، التي تقل في الوجه بحيث يبدو وجهاً بشرياً باهياً، كذلك تم تقليم الأظافر التي طال بعضها وفي العادة هي تتساقط مع مرور الزمن ثم تنمو من جديد، في أصابع اليدين العشرة ومثلها في القدمين كذلك.

قبلها بعدة أيام وذات ليل كانت مروحية صغيرة الحجم قد حملت القلزميين الثلاثة، الأب والأم والطفل في قفص، وقد تم اختيار هذه الأسرة بعناية تامة، بتأكيد الفريق العلمي برئاسة البروفيسور لارنج، الذي بدت علاقته مشوبة مع باترس ولم تشهد تحسناً بعد، كانت الرحلة طويلة من الجزيرة إلى جيبوتي ومن هناك أخذت طائرة عسكرية كبيرة الحجم القفص إلى لاس فيجاس مباشرة، حيث يوجد المركز الرئيسي للاختبارات الحيوية ومعهد تاريخ الأنواع وأصلها، الذي يشرف عليه لارنج. وكان من المفترض أن يقوم البروفيسور بنفسه بالاختبارات والتحليل المباشر لكن وصوله سيتأخر إلى حين الانتهاء من العمل مع المجموعة في الجزيرة، وقد تبقت أيام قليلة يعودون بعدها إلى أمريكا، وقد يبقى شخص أو شخصين يزودن بفرق أخرى ذات مهام مختلفة وفق ما فهم لارنج من باترس ليستمر العمل في مرحلة ثانية قد تكون طبيعتها أكثر تفصيلاً.

في الحديقة كانت الأسرة القلزمية تبدي بشاشة للزوار، وهم يضحكون. بذكائهم سريع التطور، عرفوا كيف يقهقهون بشكل أسرع وأفضل مما كان عليه قبل فترة وجيزة، وكانت ملابسهم بهية تشعرهم بالفرح، وهم الذين اختاروا الألوان بعد أن عرضوا في اليوم الأول عراة، وتحت ضغط الميديا والجماعات تم إلباسهم قمصان وأردية، اختار الأب اللون الأحمر المزركش بالأزرق، فيما اختارت الأم الأحمر الصافي أما الطفل فقلّد والده. كان المشهد قد أعجب الأطفال بوجه خاص وهم يجدون هذه اللطافة التي تجعلهم منسجمين في عالم ليس غريباً عنهم، في حين كان الكبار قد جاءوا بأهواء متباينة، هناك من جاء للفرجة وثمة من أتى لكي يطوّر بحثاً علمية أو يكتب مسلسلاً تلفزيونياً مستوحياً من رؤية القلزميين وجهاً لوجه، أو رواية من نوع «بست سيلر» أي الأعلى مبيعاً. اختلفت الأسباب والهدف واحد هو أن تشاهد العين مباشرة كائنات مجهولة الهوية، أو بالأحرى فإنه إذا كان العلماء يعرفون هويتهم فهم يحجبون معارفهم لتضليل البشر.

كان ذلك الموضوع الأخير، قضية إخفاء الحقائق العلمية، قد أثار جدلاً بين اثنين من الرجال الواقفين أمام القفص وسط تزاحم شديد، ووقت محدد لكل مجموعة لا يستغرق أكثر من سبع دقائق لتدخل المجموعة الثانية، فالتي بعدها. لم يحدث أن امتلأت الحديقة بهذا التدفق البشري العجيب، خاصة بعد أن كانت لافتات في شوارع

لاس فيجاس شغلت المارة وسائقي السيارات عن التفكير في أي أمر آخر سوى التوقف أو السير ببطء لتأمل هذه الأشكال التي تشبهنا ولا تشبهنا كما يُعبِّر الكثيرون.

كان أغلب الزوار وعامة الناس الذين شاهدوا لقطات عبر التلفزيونات أو مواقع الإنترنت للثلاثي القلزمي بالألوان الحمراء والزرقاء، يظنون أن هذا الحدث جديد وغير مسبوق في التاريخ، وبالتالي كان صراخ المنظمات يتعالى، لكن المحلل السياسي الذي ظهر في برنامجه الأسبوعي المعتاد، أطلّ هذه المرة ليُبدي معرفة دقيقة بمثل هذا التاريخ السيء من الاستعباد البشري.. أو ما أسماه بالاستعلاء حتى على بني البشر أنفسهم دعك عن كائنات غير مؤكدة الهوية، قال للمذيع:

«ليس إنسانياً.. هذا قطعي.. أما عموماً لكي نكون موضوعيين فإن الأمر يتوقف على تعريف طبيعة الإنسان. ليس لدينا تصور كافٍ إلى اليوم عن ماهية القلزميين؟»

كان هنا يتنازل عن ادعاءات سابقة أنه يعرف كل شيء، لكن حساسية الموضوع هنا تفرض ذلك كما همس لنفسه.. فالرجل يعرف كيف يختار كل شيء في موضعه المناسب حتى لا يحرق صورته الزاهية أمام المشاهدين، ليس أقل من عشرين مليون عربي يستمعون له الآن ويراقبونه بدقة.

استمر المحلل السياسي الذي أصبح الآن له طبيعة علمية، يروي قصة حقيقية:

«في ٢١ أكتوبر من عام ١٨٧٨م وفي برلين بالتحديد، كان مدير سيرك وتاجر حيوانات يدعى كارل هاغبنك، قد تسبب في ضجة كبيرة في المدينة وبعدها في كل العالم ممن سمعوا بالنبأ، بعد أن حضر حوالي ٦٢ ألف شخص مرة واحدة لمشاهدة عرض لنحو ثلاثين شخصاً من الرعاع كما أطلقوا عليهم.. أناس ببشرة غامقة وبلباس غريب»[٣]

تنفس المحلل قليلاً، أوضح مبتسماً:

«أو بالأصح دون لباس..»

ثم واصل:

«أطلق عليهم اسم (النوبيون) وكانوا في الواقع مجموعة من الرجال والنساء والأطفال الذين جيء بهم من السودان.. ولم يكن علماء الأنثربولوجي يرغبون في مشاركة العامة لهم في أمورهم وعملهم حيث كانوا يجرون أبحاثاً على هؤلاء المجموعة.. فقرروا أن يتركوا الفرصة للسيد كارل ليتربح ويمكن لبعضهم من غير الأنقياء أن يستفيدوا من ذلك مالياً»

٣- ص ٧٥، عبر منظار اللغة، لم يبدو العالم مختلفا بلغات أخرى؟، تأليف: غاي دويتشر، عالم المعرفة، أكتوبر ٢٠١٥.

كان شريطاً يعرض في البرنامج أثناء كلام المحلل السياسي، العلمي.. يظهر القلزميين في الحديقة وقد التف بهم مجموعة من الرجال والنساء وهم يحملون أشرطة قياس بالسنتمترات وكاميرات ديجتل دقيقة التصوير، وانصبوا في عمل مختلف الأهداف، من رسامين لعلماء لمصممي أزياء أو إعلانات، هذا يقيس شحمة الأذن وذاك يكتفي بقياس الفخذين، أو يتحسس ما تبقى من الحراشيف المقطوعة والقصيرة. وكان واضحاً أن حديقة الحيوان مثلها مثل السيد كارل قبل أكثر من قرن تتربح كذلك من هذا العرض الذي لا يعرف بالضبط من هو صاحب فكرته لأن باترس دافع بقوة من موقعه في الجزيرة في تصريح تلفزيوني أنه ليس صاحب الفكرة ولا يمكن أن يكون لا أخلاقياً بهذه الدرجة.

قطعا كان الموضوع برمته قد انفلت عن فريق باترس، لقد أصبحت هناك مصالح متداخلة ومتشعبة وتجارة يمكنها استجرار الأموال من وراء هؤلاء القلزميين. فبعد يوم واحد من عرضهم عراة، سارعت شركة ماكدونالز المشهورة للأطعمة، لبث إعلان تلفزيوني يظهر أنه تم تجهيزه في أسرع وقت، يظهر كائنا قلزمياً وهو يتناول وجبته بنهم، يقضم الساندويتش ويتكلم بإنجليزية واضحة، كيف أنه أحب الوجبة وهي المفضلة له دائما ثم يعقبها بشراب الكوكا كولا. وكان جلياً أن المشهد تمثيلي، وجدت الشركة الفرصة أو الوقت المناسب لإخراجه

للجمهور لاسيما شرائح الأطفال الذين تدفقوا ليلة الإعلان لمحلات الماكدونالز في كافة الولايات الأمريكية والعديد من عواصم الدنيا والمدن الكبيرة التي توجد بها فروعاً لهذا المطاعم.

علّق المحلل السياسي، قائلاً:

«إنها صرعة العصر.. ثقافة الإعلان وبشاعته، كيف يمكن استغلال العقول البشرية وتطويعها.. الناس تتعامل كما لو أنها قطيع وتمضي كلها باتجاه الشيء نفسه دون أي تفكير.. ينطبق هذا على الكبار كما الصغار»

كان يقول ذلك وفي ذهنه فكرة راقت له الآن بالضبط.. يتمنى أن ينهي الحلقة لكي يشرع في تنفيذها، موضوع تجاري يمكن أن يعتمد على تداعيات صور القلزميين وقصتهم بشكل عام.. لم يتبلور الهدف ولا الخطة ولا الجمهور.. غير أنه مجرد أن تطرق الفكرة لذهن الإنسان فسوف يصل، إن جلس بهدوء لبعض الوقت وعرف كيف يطورها أو يستعين بجهات مضمونة تؤمن بالربح السريع والاستفادة من حمى التقليد الأعمى.

وسط هذا القلق السريع.. كان المحلل السياسي، يفكر في المرأة التي أحبها، كيف يصل إليها بأسرع وقت. لقد تأخر عنها. وهذا يعني لو كان ذكياً كما يقال عنه أن يفكر كيف يدمج بين تطوير مشروع

القلزميين وإقناع هذه السيدة بإدارة هذا المال الذي سوف يتدفق لزمن وجيز على ما يبدو لكنه سيكون غزيراً كمطر استوائي.. كذلك كان قلق بأمر طرأ له الآن دون سابق تفكير فيه في لحظته، لماذا ذكر اسم النوبيين المستجلبين من منطقة جبال النوبة بغرب السودان لبرلين؟ لماذا لم يكتف ويقول بأن هؤلاء الناس جيء بهم من مكان ما في العالم.. أي مكان نائي؟

شعر بأنه قد أخطأ رغم دقة معلوماته.. وقد فات الوقت للتوضيح أو الاعتذار لأنه الآن خارج الاستوديو في كافتيريا المرطبات والتدخين، ولو اعتذر في حلقة لاحقة فسوف يقولون إنه تعرض لضغوطات ولو غرّد الآن في توتير معتذراً فقد يقال إنه كان فعلاً يقصد ذلك.. وبالفعل كان رجلاً سودانياً يعمل في قسم المونتاج بالفضائية يرمقه من بعيد كما لو أنه مستعد لصرعه حتى لو دخل بسببه السجن، لكن ذلك لم يحدث إذ دخل الرجل بعدها في حمامات مجاورة للكافتيريا وانصرف المحلل سريعاً إلى السيارة التي تنتظره بالخارج لتقله إلى الفندق.

●●●

(٢)

أحياناً وساعة تضيق به الحياة ويخلو لنفسه، فإن المحلل السياسي يواجه الذات بصدق تماما، يصبح شخصاً آخر غير ذلك المفتون به الآخرون. فالذات هي مرآة الذات، معها يشعر الإنسان إما بقيمته حقا أو أنه حقير ولا يسوى شيئاً.. لماذا في هذا اليوم شعر بهذا الخجل المبالغ فيه؟ هل هي مجرد كلمة عابرة خرجت منه في البرنامج؟ ورسائل الآن بدأت تطارده وصرخات تتوعده، كيف يصف شعباً بأنه من الرعاع أو الحيوانات لا أحد سيفهم سوى ذلك.. كان يفكر أن الناس في الغالب لا تقرأ التاريخ، ولهذا لن يصدقه أحد. كان عليه أن يورد لهم المرجع لكي يصدقوه. لكن هذا لن يحل الإشكال الآن. عليه فقط أن ينزوي قليلاً حتى ينسى الناس الموضوع. ومعه يتفرغ لأسبوعين إلى ثلاثة لحبه وشغفه الذاتي فمعه قد يكون، قد أصبح إنساناً جديداً.

«المطلقة الرائعة.. لا غيرها في هذه الأيام لحرق الذاكرة»

قال لنفسه بصوت مسموع وهو يحاول أن يهجد قبيل الفجر في غرفة الفندق، بعد أن ضاق ذرعاً بقراءة التغريدات على تويتر والبوستات على الفيسبوك التي شتمته بلا هوادة. هناك من وصفه بأنه لا أصل ولا فصل، تحداه أن ينشر صورة شهادة ميلاده أو

جنسيته، من أي بلد هو بالضبط. بالفعل كان ذلك أمراً مستفزاً وحقيقياً، وكم من المرات وقع في هذا الضيق النفسي، كم من الناس يسألونه..

«عفوا من أي بلد أنت؟»

«أنا عربي..»

العرب لهم غرام كبير بأن يصنفون الناس حسب الجغرافية، كلمة عرب تظل لا معنى لها سوى أنها رنين براق كاذب. هم أكثر الشعوب التي تتشرذم في حين يتوحد العالم، أوروبا على سبيل المثال. الولايات المتحدة الأمريكية.. الصين التي تضم مليار نسمة أكثر. هناك ٣٠٠ مليون لا يفكرون في أن يكونوا شعباً واحداً، قوة جبارة.. يفكرون فقط في التفاوت العرقي والمالي.. وحتى لو جاءت فكرة الوحدة للعرب فتأتي عبر المتشددين الذين يؤمنون بإزالة الحدود الجغرافية وأنها وهم وأن الدين الإسلامي جعل الأرض كلها وطناً واحداً، ومن ثم يبدأون في القتل لا يفرقون بين طفل ورجل وامرأة. إنهم شعوب التناقض.

كل ذلك لن ينجيه من الأسئلة المكررة في كل مكان. مرة اتصلت واحدة وعلى الهواء سألته:

«قلت لي إنك فلسطيني؟»

ابتسم قال لها:

«متى قلت لك يا سيدتي؟»

«أعني أنك من الأراضي المحتلة؟»

لم يجب عليها.. هل يقول إنه أردني، فلسطيني، عراقي، مصري، سوداني، جزائري، عماني، من يصدق ذلك. لا أحد سوف يصدقه. ويصعب أن يشرح كيف أنه كل ذلك ولا شيء الآن أمام جرحه في هذا الفجر. ورغبته في أن يقابل تلك المرأة لكي يغسل الألم الذي شرخه لنصفين أو أكثر. إذن عليه أن يسافر في الغد أن يلغي كل العقود لعدد من البرامج التي من المفترض أن تبث خلال هذا الأسبوع أو تسجل لتبث لاحقا، الهروب هو الحل من الأسى الذي يحدق به، فما هو الأسى سوى أنك مجنون وبائس؟. كان يشعر بحالة يرثى لها مع نفسه، ويعلم أنه قادر في مثل هذه اللحظات أن يكتب شعراً حتى لو لم يجربه من قبل، في حين تداخلت عليه صورة المرأة التي ترفضه مع موقفه ليل أمس دون أن يفرز حقيقة ما يجعله غير مرتاح ومضطرب.

في اللحظة التي يبدأ فيها العقل البشري في الارتباك فهو سرعان ما يستجر الكثير من الأمور التي تتداعى مباشرة ومستعجلة بحيث يصعب التحكم فيها، فما أن انفجر نهر الغضب إلا وانهالت عليه مجموعة من الأمور التي يكاد قد تغافلها إن لم يكن قد نسيها،

تلك القضية المرفوعة عليه من إحدى الوكالات الإعلانية في لندن والتي تطالبه بدفع مليوني دولار لأنه شكك في مصداقيتهم، والموضوع متعلق بهذه الجزيرة الكارثة التي ظهرت لتفسد العالم، عالمه هو الشخصي. في البداية ظن أنها ستكون مصدراً للثراء والآن تتحول إلى آفة ستفقره وتنكد عليه حياته، حتى المرأة التي انتظرها طويلاً، وظن أنه قد اقترب منها في أخر اتصال بها قبل أسبوعين، كانت قد قالت ببساطة:

«لم تعجبني حلقتك الأخيرة. أحس أني أكرهك»

«عيب عليك أن تقولي ذلك يا مريم»

تضحك بغنج مفتعل، يعرف أنها تمارس نوع من الاستفزاز عليه.. ويدرك أكثر أنها غنية ومترفة ولا ترغب في المال.. لماذا إذن تؤلمه وتعذبه، لتقل لا أو نعم ولينتهي الموقف نهائيا؟

قال لها بحزم:

«ليس لدي وقت أضيعه، هل ستوافقين على الارتباط بي؟»

صمتت وأغلقت الهاتف. اتصل بعدها أكثر من عشر مرات، لم يكن من جرس ولا رنين بأي موسيقى كانت.. كان الهاتف لا يمكن الوصول إليه. لهذا لابد من السفر هذه المرة، والمال غير مهم. التذاكر

جاهزة، كل شيء جاهز. المهم أن تقتل هذا الألم الذي يسكنك يا رجل. هذا القلق القلزمي الذي يسيطر عليك ويجعلك مجنوناً.

وجد نفسه يهزئ مع روحه أمام المرآة يتأمل صورته التي لم يرها منذ سنوات. هويته المنهوبة. ابن أي بلد أنت وأي هوية؟ أم أنت ابن تلك الحديقة الكبيرة التي اسمها العالم العربي أو لنقل العالم، بقولك أنك إنسان فحسب. هذه الصيغة التي طالما تصر على تكرارها. أنت ليس إلا كائناً قلزمياً متوحشاً في هويتك التاريخية حتى لو أنك أنيس وأليف في روحك الداخلية، ولكن هل تظن بجد أنك كذلك، أم أنك تخدع نفسك، وحدها هي تلك المرآة التي قالت لك الحقيقة فأفسدت متعة أن تعجب بنفسك إلى الأبد كما تعرف ذلك بدقة في لحظات صفائك.

●●●

(٣)

سأل متصل عبر الهاتف الشيخ وهو يقدم برنامجه الذي يتابعه خمسة ملايين على الأقل.. كانوا أكثر في الماضي القريب، لأن تمزق العالم العربي إلى طوائف جعل لكل شيخ زمرة من القوم، فقل عدد المتابعين في السنوات الأخيرة مع استمرار التشرذم.

«هل يجوز لنا يا شيخنا نكاح هؤلاء القلزميين؟»

شعرت المذيعة بالخجل، والشيخ نفسه كان قد استاء من السؤال، هؤلاء الناس لا تفكر بسوى النكاح والجنس ما هذه المصيبة، قال للمذيعة بعد أن أغلق عامل الكنترول في المحطة الاتصال، في حين بقي المتصل يصرخ في الجانب الآخر.

«علي أي حال.. سوف نجيب على السؤال من باب العلم. لا يوجد تأكيد على هوية هؤلاء القوم وهذا يصعّب الإجابة، وحتى لو أنهم أضيفوا في قائمة البشر فهم سيكونون من الكفار أم المسلمين، إذا اعتنقوا اليهودية أو المسيحية فلا بأس. وإن صاروا من البوذيين أو سواهم من الكفار، فالحرام بيّن والحلال بيّن وعلى المسلم أن يتقي الشبهات؟»

هذه المذيعة بالذات من أشطر المذيعات في الفضائية وتعرف كيف تصطاد ضيوفها حتى لو أن ذلك يعرضها للخطر بعض المرات بأنها تحرج أناساً يجب ألا يحرجوا، كان الشيخ يرمقها بطرف نظراته كأنه معجب به أو ينوي أن يكمل بها دينه تماما بأن يتزوج الرابعة، لكن هل ستوافق، كان مشغولاً بذلك، رأسه يدوي بهذا الأمر منذ شهرين ولا يقدر على أن يخرجه إلى العلن يخاف من كسر الخاطر، فلابد أن شابة جميلة وأنيقة كهذه لن ترضى به بجرة قلم، حتى لو أن له مليوني متابع على تويتر.. هي واحدة منهم. مرات كان الشيخ يغرّد بأبيات أو خواطر غزلية ومرة أعلن أنه سوف يصدر كتاباً على نهج «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي، ولكن بنسخة عصرية ميسرة للعامة، يتكلم فيها عن لواعج الغرام وشغفه عند المؤمنين، وليس ذلك بغريب في التراث الإسلامي، فهناك كتب كثيرة مثل «تحفة العروس» الذي يقدم نصائح غالية للزوجين في يوم الزفاف وكيفية فعل الحب، وكتاب «نواضر الأيك في معرفة النيك» لجلال الدين السيوطي، وهناك من شكك في نسبة الكتاب له، وعشرات الكتب سواها.. بالنسبة للشيخ كانت فكرة الكتاب قد استوحاها من المذيعة الفاتنة التي أزعجت فؤاده.

سمعها بذكائها وذاكرتها العجيبة ترد عليه:

«لقد قلت في حلقة سابقة أن القلزميين من الجن.. أنت لم تؤكد ذلك لكنك أشرت إليه، فماذا لو كانوا كذلك، هل سيجوز النكاح يا شيخ؟»

قالت ذلك بابتسامة صغيرة دون أن يظهر عليها الحياء..

رد الشيخ قائلاً، متجاهلاً جزئية إن كان قد قال ذلك أم لا:

«بالنسبة للجن فالقول الواضح أن الزواج لا يتم إلا بالإنس لقوله تعالى في سورة النحل الآية ٧٢ (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) وقوله سبحانه في سورة الروم الآية ٢١: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً)، فالمفسرون يقولون في معنى الآيتين: أي من جنسكم ونوعكم وعلى خلقكم. قال الإمام السيوطي في الأشباه والنظائر: (فإن قلت: ما عندك من ذلك؟ قلت: الذي اعتقده التحريم، واستدل بالآيتين المتقدمتين: ثم قال: فروي المنع منه عن الحسن البصري، وقتادة، والحكم بن عيينة، وإسحاق بن راهويه. وقال الجمال السجستاني من الحنفية في كتاب (منية المغني عن الفتاوى السراجية) لا يجوز المناكحة بين الإنس والجن، وإنسان الماء لاختلاف الجنس. وذكر وجوهاً أخرى للمنع منها: أن النكاح شرع للألفة، والسكون، والاستئناس، والمودة، وذلك مفقود في الجن»

كان الشيخ يتمتع بذاكرة حفظ تستطيع أن تستل النصوص من بين المجلدات بسهولة وكان إلقاؤه باللغة العربية فصيحاً، ممتعاً للمستمعين ومحبيه.. المذيعة كان لديها سؤالان هنا:

«لكننا نعرف يا شيخ أن هناك جناً يتزوجون بالإنس وهذا يعني أن الألفة موجودة»

توقف الشيخ قليلاً، رد عليها:

«عموما ما أوردناه هو رأي.. يمكن دحضه»

أنهى الأمر كذلك دون أن يوضح بالشكل المباشر. المذيعة فهمت ذلك وكان عليها أن تتجاوز الأمر خشية الحرج، وسألت السؤال الثاني:

«ذكرت في ثنايا كلامك قبل قليل.. (إنسان الماء) ماذا يعني ذلك؟ هل ثمة بشر يعيشون في الماء؟ الصورة بدت لي أقرب لهؤلاء...»

التقط الشيخ الفكرة قاطعها:

«نعم أختي.. ربما هم وربما لا.. لسنا متأكدين.. أنا ما زلت أقول أن القلزميين ربما جن أو غيره. المهم أنهم من خلق الله ومعجزات الساعة الكبرى ولا ننسى أن الله يخلق دائما ما لا يعلم البشر»

«أتعني أن الخلق مستمر؟»

«نعم لا يتوقف»

«مثلا هل يمكن أن نشاهد حيواناً جديداً فجأة يظهر؟»

«قطعا نعم. اللّه يخلق ويستمر في الخلق.. القلزميين قد يكونوا دليلا على ذلك..»

«ولكن هؤلاء يرجح أنهم موجودون منذ القدم»

ابتسم الشيخ الأعور.. حك فراغ عينه التالفة، منهياً الحلقة بالدعاء بأن ينجي اللّه الناس من الأهوال.. وخرج من الاستوديو، وفي ذهنه صورة المذيعة الباذخة الجمال، كيف السبيل لها؟!

كان في ذهنه أمور كثيرة، يتعلق أولها بهذا العشق الذي حاصره اليوم لسبب غير معلوم، إنه القلب لا يعرف كيف يتحكم فيه، وهو كذلك مشغول بالعلم ذلك البحر الواسع، فاليوم هناك أمور بات من الواضح أنه يجهلها، لقد تغافل أمر «إنسان الماء»، فما الذي كان يعنيه السجستاني بهذا الإنسان المائي؟ أما الأمر الذي كان يضايقه من الناحية العلمية بوجهة خاصة فهو قضية موضوع الحلقة الأساسي الذي هرب منه، فقبل أن تبدأ المذيعة بخمس دقائق تغير الموضوع، كانت تنوي الحديث معه حول ما يشغل الناس بجد هذه الأيام من عرض القلزميين كما لو أنهم حيوانات، وهل هذا يجوز أم لا من الناحية الشرعية، وذكر لها بالشكل الواضح:

«يمكن لي أن أجيب أن هويتهم لم تعرف بعد.. كما درجنا القول. غير أن هذا لن يحل الإشكال. فالدين الإسلامي حتى الحيوانات يأمرنا بأن نرفق بها فما بالك بكائنات تشبهنا وتتوالد مثلنا، وعرفنا أن لهم عقول ذكية وسريعة التطور كما قرأت عن ذلك»

«وما المشكلة أن نقول ذلك يا شيخ؟»

حكّ رأسه قليلاً ثم عدل ثيابه البيضاء الفضفاضة، وتمهل في الجلوس على الكرسي قبل أن تجهره الأضواء في الاستوديو، واصل فكرته:

«ببساطة يا أختي العزيزة.. القضية تتعلق بموضوع الحقوق.. هذا سوف يفتح علينا النار.. لدينا ملفات معقدة في قضايا الاسترقاق والجواري وغيرها من أمور تتعلق بالجنس الآدمي فما بالك بجنس أدنى»

وابتسم ابتسامة مبتسرة، فهمت المذيعة أنه ما دام الإنسان لم يلقَ حقوقه بالشكل الكافي فما بالك بآخرين دونه، قررت أن تتجه على الفور للمسائل الحيوية والأكثر إثارة، دغدغة عواطف الناس، وكان الشيخ قد وافق على الفكرة مباشرة عندما قالت له:

«سنلعب على المضمون.. ما يريده المسئولون»

وبدأ البث على الهواء.. بأن قدمت المذيعة الشيخ بالوصفة الروتينية.. التي يبدأ بها البرنامج كل أسبوع.

●●●

(٣)

قيل إن العلم عتبات.. ولهذا فإن الشيخ الذي أنفق حياته يحفظ ويذاكر. كان يظن أنه بلغ مبلغ العلوم وأكمل الكمائل، إلى أن شعر بالضيق اليوم مع المسائل التي طرأت لذهنه. فالأسئلة كانت تتقافز وتتوالد وحيث لا إجابات واضحة. وحتى لو أنه مشغول بفتنة المذيعة الغانية فسوف يدبر أمرها، رغم أنه يعرف أن هناك من هو أكثر ثراء منه ورغبة في نيل وطرهم منها، ويبقى المهم هل جربوا بأن يسألوها ذلك، وربما أرادوا ليس حلالاً وهو الحمد لله لا يقوم بفعل حرام.

في تلك الليلة نام بعيداً عن زوجاته، ليس في ذهنه سواها وأمور العلوم التي أهلكته دون أن يوجد الإجابات الدامغة، كيف عجز أن يفهم ما هو «إنسان الماء» وهل يا ترى له علاقة بهؤلاء المخلوقات الطارئة التي عرفها العالم؟ هذه الفاتنة تعرف كيف تلتقط الأسئلة الصعبة وتحرك الرأس فماذا لو كانت زوجة مطيعة في البيت.. لابد أنها كذلك سوف تجعل الذهن يتفتق بطريقتين في السرير وفي الملاعبات اللطيفة وفي الأفكار، سوف يصبح الشيخ أكثر شهرة لأنه سيصبح أكثر ذكاء، يقولون دائما وراء كل رجل عظيم امرأة.. وهذه المرأة العظيمة لم تأت بعد؟

كان يفكر مع نفسه، ورأى أن زوجاته الثلاث حتى لو أنهن في غاية الجمال.. الجسد الممشوق.. الطول.. الأناقة.. الاهتمام بتفاصيل كل خلية في الجسد، إلا أنهن فارغات المحتوى. لقد اختارهن فقط لكونهن أيقونات، أو بنات حور. هل بنات الحور لهن علم ودراية ومعرفة أم هن للمتعة فقط؟ وهل الرجل يريد في عالمه الآخر امرأة تجمع بين الاثنين، وما حاجته أساساً للعلم إذا كان سوف يطلب وينال ما يريده في غمضة عين.

ظل رأسه مثقلاً هذا اليوم، يريد أن ينام دون قدرة على ذلك.. يشعر بأن ثمة من سوف يقبض على جهله. ويكتب عنه في الصحف، فالشيوخ الآن يتنافسون وكل يجند له عشرات الصبية الذين يدبجون المقالات لصالحه ويخصص لهم رواتب شهرية بل أن الشيخ العصري الذي يريد أن يسمو ويرتقى في سلم المجد لابد له من ذلك، عليه أن يفكر أولاً في تجنيب بعض من المال لأجل هذا الغرض وإلا أخذه النهر الجارف، فالآن المنافسة تكبر وتصعب مع عصر اتسعت فيه وسائل التواصل والتعارف والمعرفة.

قبل أن ينام.. وفي ظل تداخل الهواجس.. فتح الثلاجة أخذ قرص الفاليوم المنوّم الذي يدمنه في المرات التي يكون فيها أمام مأزق أو مشكلة، كان قبل عامين مثلا قد جربه كثيرا حتى اكتشف أنه أمام مخدر حقيقي.. له لذته وخشي أن يهرب بعقله فتوقف عنه، خاصة

أنه علم من طبيب يثق فيه أن الفاليوم له قدرة على ابتداع الهلوسة والجنون إذا استمر فيه المرء بكثافة. اليوم سيعود إليه، لكن حبة واحدة لن يزيدها، ورأى أصغر زوجاته حليمة تقف على الباب وهي تسأله:

«أتريد أن أساعدك في شيء يا أبو مروان؟»

«لا أبداً لدي ضيق نفسي لا أعرف مصدره»

كانت هي الوحيدة التي يسر لها أحيانا لأنها أصغرهن وأجملهن. وقد تزوجها منذ أقل من عامين بعد أن أوقف إدمان الفاليوم، وكانت تلك نصيحة من الطبيب الذي يجرب مهارته في الشيخ بأن يخلط بين علمي الطب والهندسة النفسية.. نصحه قائلا:

«الزواج يا شيخ.. هات الثالثة وأكسب نفسك»

«والله فكرت في ذلك.. وهذا سبب آفتي الآن»

ضحك الطبيب الشاب، ابن الثانية والثلاثين.. كان ماهراً في اصطياد ما يصل إلى قلوب زبائنه ويثقون فيه بسرعة.. لقدرته على التشخيص وابتكار العلاجات.. كوّن ثروة سريعة في وقت وجيز، لكنه يبدد المال في أمور كثيرة كلعب القمار. المهم أن الشيخ وجد نفسه يفضفض له:

«ثمة فاتنة كانت معي في دورة تدريبية قبل شهر وما زالت تدق بقلبي فتحرمني النوم»

ضحك الطبيب، وقال له:

«توكل هذا علاجك»

هل سيقول له الآن.. الكلام نفسه.. وهاهي الفاتنة المتدربة تقف أمامه الآن وهي تقوم بواجبها كزوجة وامرأة جميلة اتضح أنه رغم طيبتها إلا أنها ساذجة لا ترقى لذكاء تلك المذيعة العزباء، التي باتت تكوي القلب. ووجد أنه لا يريد أن يقص لفاتنته ما يمكن أن يزعجها، وهو مستحيل طبعا أن يخبرها بأن ثمة غريمة لها قادمة بإذن الله.. وقرر أن يصلي لله استخارة في أن يقدم على الأمر أم لا؟ ومن ثم يدعوه بأن يطيب قلبها هذه العنيدة، يعرف كم هي عنيدة أمام الجميع.

أنهى الصلاة والدعاء.. كان رأسه قد تراخى مع الفاليوم اللذيذ، وصل الوسادة بصعوبة وأرخى عنقه، وأغمض عينيه، في حين كانت حليمة بجواره تتحسس مواضعاً مجهولة، فبين اليقظة والنوم لم يكن له أن يعرف ما الذي يجري بالضبط. ونام يسرح في عوالم الفاتنة القادمة، ويرى أشباحاً من القلزميين وذلك المدعو إنسان الماء دون أن يعرف ما هو؟ لكنه في النوم رآهم كائنات جميلة مشكّلة على هيئة إناث رائعات وكلهن مصورات سبحان الله بوجه واحد، هو وجهها هي لا غير..

●●●

(٤)

في العصر العباسي وأيام الخلافة.. كان العالم الشهير جابر بن حيان، الذي يعرف بأبي الكيمياء، له اهتمامات مختلفة أخرى غير مجاله الأساسي. كسائر كل علماء عصره، تجد الرجل يجرب في كل شيء. وإن كان الرجل قد أنفق جل عمره في رغبة التوصل لإكسير الحياة الذي يحقق الخلود للإنسان، أو كذلك التوصل لما يعرف بـ «بيضة الهلاك» التي يقال إنها القنبلة النووية التي عرفها العالم اليوم، وكان قد استند على قول متوارث لعلي ابن عم النبي محمد عليه السلام، فقد ورد في كتاب «الجفر» المنسوب لعلي أن هذه البيضة أو الكرة تضرب بغداد في آخر الزمان مع ظهور الدجال أو السفياني، التي فسرها محمد بن عيسى بن داود، بأنها حشو داخل حشو يغلفه غلاف.

ظل جابر يقرأ من وقت لآخر مدونة الجفر ويتوقف عند قول أمير المؤمنين في الجفر المسمى بادية حماه: (ويأفك كاهن اليهود الإفك الأكبر ويعلو بناء كنيس اليهود بحجر أزفر، والقتل يبوح في أهل الدار دائم لا يفتر، فتخرج من القلوب مسيرات الرايات تنصر الله وتخرج من خراسان رايات سود فلا يردها شيء حتى تنصب في إيليا... واعلموا أنه تقذف العراق ببيضة الهلاك، كما يظهر السفياني

على الشام). وقبل أن يحقق حلمه بتصنيع هذه القنبلة كي يرضي به مولاه هارون الرشيد، كان قد حدث أمر عجيب، إذ اهتم أهل الخلافة وبغداد وسائر بلدان العالم الإسلامي بخبر ما يعرف بـ «طبيب الماء» الذي شغلهم أيما شاغل.

طوى الشيخ الكتاب جانباً، وهو يتأمل في مسألة كيف أن التاريخ كما يقال دائما دائريا، الحذافير نفسها تتكرر حذو الحافر. فالجزيرة التي ظهرت في البحر الأحمر.. ليست هي الأولى ولا الأخيرة فقد كان مثلها في أيام جابر والرشيد. والله يكرر معجزاته بشكل مستمر ومعاد، لكي يأخذ الناس العظة، وكي يقتربوا من هول القيامة، فإذا جاءت القيامة الحقيقية كانت النهاية وفاز من فاز وخسر من خسر، وإذا لم يكن ذلك فسوف يتأدب الكثيرون. وهذه نعمة.

أغلق الكتاب وضعه جانبا وهو قد استيقظ مبكراً قبل الفجر، رغم الفاليوم الذي يبدو بفكرة الشيخ أن صناعته قد أصبحت رديئة كأشياء كثيرة في عصرنا. لا أحد يجوّد عمله ولا صنعته، كل شيء عابر وسريع. الثقافة الرأسمالية والوحش الذي يسكن الناس هو الذي يفعل ذلك، إنها علامات النهاية هذه المرة تصدق ولا تكذب.

جلس على الكرسي البلاستكي قرب البالكونة، يشاهد أضواء المدينة الكسولة، قليل من السيارات تقف عند إشارة مرور بعيدة من هنا.

يبدو أنها تتبع لشرطة المرور، يفتح الكتاب الذي لا يعرف كيف استله من مكتبته الشاسعة في الطابق الأرضي بجوار مجلس الضيوف، كيف وصل هناك أو كيف أحضره أو عرف أنه يتضمن المعلومات المطلوبة التي يفترض أن يجيب عليها.

أحس الشيخ ببرودة في البالكونة فقرر الدخول لغرفة مكتبه بالبيت، وفتح جهاز اللابتوب ليبدأ في كتابة مقاله الذي سوف يرسله للصحيفة اللندنية نهاية الأسبوع، وإذا لم يكن له من موضوع مسبق، فهذه الفاتنة، التي إذا وفق المولى سوف تكون رابعتهن، هي التي أوحت له بذلك أو هي التي كتبت المقال بسؤالها حول «إنسان الماء».. كلّم نفسه بصوت مسموع، وتلفت إلى الباب خشية أن تكون حليمة قريبة منه فهي تستيقظ بلا تحسب ليجدها تقف بجواره تدلك رقبته أو كتفيه كنوع من لفت الانتباه، وينتهي ذلك بأن يترك عمله ويشرع في مضاجعتها في الأريكة أو في الكرسي أو على السجاد التركي ليس من فارق. المهم أن يفرغ ما يقلقه، ذلك الشيء الغامض الذي يجعل الشيخ والحصان لا فرق بينهما.

ضحك مع نفسه عندما تأكد أنه ليس من أحد.. وكتب على الشاشة البيضاء مستعيداً ما قرأ قبل قليل:

«نحدثكم بأن أمر الجزيرة ليس مستجداً فقد ظهر مثلها قريب من البحر العربي، الذي كان ينعت وما زال بالخليج الفارسي، مع

تحفظنا على ذلك.. إنما للعلم.. أن هذه الجزيرة كان اسمها سنديات.. وظهر فيها ذلك الكائن المسمى (طبيب البحر)، ولا نستطيع أن نقول إنه قلزمي.. وإنما له خصائص الإنسان البرمائي، الذي يعيش في الماء والبحر وهي خصيصة موجودة في القلزميين.. فهم يعيشون هنا وهناك والدليل خروج الجزيرة من الماء وقد كانوا في الموقع قبل خروجها. وسوف نشير إلى العالم العربي جابر بن حيان أبو الكيمياء الذي وصف في مؤلفاته ذلك الكائن الغريب، ما استدعى الدكتور زكي نجيب محفوظ وهو مفكر مصري حديث أن يقول إن هنا (يبدو جابر بن حيان كما لو أنه ليس ذلك العالم المدقق) وقد ورد ذلك في كتابه عن جابر في سلسلة أعلام العرب..»[٤] وقد أشار جابر إلى أن طبيب البحر استخدم في شفاء المرضى والطب، لهذا سمي بهذا الاسم.. وسنفصّل ذلك بالقول فما ورد عن لسان جابر..

«...إن هذا الحيوان يعرف بطبيب البحر، وذلك أنه إذا مرض كائن حي، وجئناه بذلك الحيوان البحري فمسحنا على موضع العلة منه مرتين أو ثلاثا بالحجر الذي في جبهته، عرق المريض وبرئ من مرضه وعاد سليما، ولقد عرف عن (طبيب البحر) أنه إذا صيد، لبث يلتمس الوسيلة التي تعيده إلي الماء، ولقد رأيت قوما من البحرانيين

٤- ص ٢٥٦ إلى ٢٦٨، زكي نجيب محمود، جابر بن حيان، سلسلة أعلام العرب (٣)، الناشر: مكتبة مصر، طبعة قديمة بدون تاريخ. كذلك كتاب «الرسائل السبعين» لجابر بن حيان وهو المصدر الأساسي.

الملجين العلماء، وسألتهم - الكلام لجابر بن حيان - عن (طبيب البحر) فإذا أمره أشهر مما كنت أظن، وضمنوا لي أن يرونني إياه، فلما أن لججنا في البحر وصلنا إلي جزيرة تُدعي سنديات، إذا نحن بجماعة من (أطباء البحر) فقلت: اعملوا الحيلة في صيد واحد منها، وألقينا الشبكة، وحصرناهم، فوقع واحد منهم فيها، فلما لم يجد لنفسه مخلصاً، جعل يلطم- كلطم المرأة- علي خديه شديداً، وتبينت جبهته، فإذا هي حجر يلمع، فأخذته، فإذا هي جارية حسناء، كأحسن ما يكون من الصور، فبنيت له بيتاً في المركب وحبسته فيه، وعرض لبعض أهل المركب تشنج. فأخرجته- أي طبيب البحر- ومررت به علي ذراعي المتشنج وساقيه، فابرأه لوقته، ورآه غلام معي، فعسقه (أي أولع به)، ولم يزل يلح فيه، إلي أن خفت عليه الهلكة منه، فجعلته معه في البيت، فصبر الغلام معها على ذلك، وزاوجها، وأحبلها، فولدت غلاماً، وتربى، إلا أن خلقته كخلقة الإنسان، وفي جبهته شيء يلمع، ليس كالأم، فلم أر شيئا قط أعجب من أمره، فلما أن كبر الصبي ورأيت ميل الأمِّ إليه ميلاً عظيماً، وهي مع ذلك لا تتكلم مع طول المدة بكلمة واحدة، أكثر من الهمهمة شيئاً لا صوت له إلا خفي جدا، أمنا أن ترمي بنفسها في الماء، فجعلت تدخل وتخرج، وللمركب جوانب عالية ليس تلحق أن تظفر منها، فلم تزل تؤانسنا وترتقي من موضع إلي موضع، حتي إذا وثقت بأنّا أمناها صعدت ورمت بنفسها في الماء،

فجزع الغلام- زوجها- عليها، فأخذ الغلام ابنه معه، وهو مع ذلك لا يتكلم، فلما أن سرنا بعد ذلك، وقعنا في شدة عظيمة لا فرجة لها فإذا نحن بالطبيب- طبيب البحر- جالس على الماء، ليس منه شيء غائصاً، وإذا هي تومئ بالسلام، فأومأ الناس إليها كلهم، وأقبل القوم يقولون لها: ما الحيلة؟ وقوم يدعون، وقوم يبكون، وكل قوم في فن من الفنون، فأومأت إليهم بشيء من الأشياء، فإذا الغلمان قد ألقوا الأناجر، وإذا الأناجر (مرساة السفينة) لا تثبت، إلي أن ثبت منها ثلاثة أناجر، وإذا البحر قد انقلب، و إذا هي سمكة قد فتحت فمها والماء يدخل إليها كأعظم ما يكون من البحار، وإذا نحن قد توهمنا أن شق فمها الأعلى جبل عظيم في البحر، قد أخذ البحر من أوله إلى آخره، فلم نشك حين رأيناها أنها تطبق فمها علينا فنكون في بعض أضراسها إلي أن كفى الله تعالى، ثم انفلت الصبي فوقع إلى الماء، فلما أن كان من غد، ظهر، فإذا جبهته قد صارت حجراً، فلم أزل إلى أن صدت من الأطباء ثلاثة، فأخذت جبهة واحد وألقيته، فنظرت إلي صَبّغِه، ففكرت حينئذ في قدرة البارئ عز وجل كيف عدل هذا الموضع من هذا الحيوان بما لم يمكن أحداً من الناس- أو كلهم لو اجتمعوا علي ذلك ما قدروا عليه، فتبارك الله أحسن الخالقين، فناديت أن لا إله إلا أنت سبحانك، ربنا وتعاليت عما يقول المبطلون..»

●●●

خامساً: الرضيعة الآدمقلزمية

(١)

نشأت قصة حب خفية بين الصبي الآدمي والصبية القلزمية، توجت برفقة بينهما. وجدها ترافقه في المساء والنهار يجمعان ثمار الفواكه من الأشجار معاً، يأكلان، ثم يقصفان بعضهما ببقايا القشر. وعرف الصبي أن هؤلاء القوم لا يأكلون سوى الخضروات، يبدو أنه لا تفضيل لهم للحوم أو هكذا ظنّ إلا أن تأكد أنهم أيضا يحبون الأسماك الطرية، غير أنهم يأكلونها في موسم محدد من السنة، وهو ما لا يستطيع أن يفهمه الآن.

مضى شهران والحياة قد أخذت ديمومتها، ثمة صبي وصبية، آدمي وقلزمية يسيران معا منذ الصباح الباكر عندما تلقى الشمس بأول أشعتها على الجزيرة، يتقدمان دون أن يكون من أحد مهتم بهما كما حدث في الأيام الأولى، عندما كان مقدم الصبي مثيراً لانتباه القلزميين، أما الآن فيبدو أنهم اعتادوا عليه، أو شعروا بأنه لطيف، كان هذا قبل أن يصل الأمريكيون للطرف الجنوبي من الجزيرة.

ينام الصبي في كوخ صغير قام ببنائه وساعدته الصبية في ذلك، وكانت عائلتها قد تركتها كأنهم يعلمون بطقوس الزواج أو الرفقة أو

من حق الأنثى أن ترهن حياتها لذكر وتخلص لأجله. كل شيء يبدو غامضاً. والصبي يتعرف على الأمور شيئاً، فشيئاً، المهم له أنه لم يعد يخاف. بل صار يقضي الليالي وهو يشاهدهم يرقصون بشكل سريع على إيقاعات منطوقة من أفواههم تذكره بصوت الطبول في ليل البلد، حيث يأتي بعض من الدراويش والمتصوفة وهم يرقصون إلى الصباح ويدورون في حلقات يلتفون ببعضهم البعض ويضربون ظهورهم بالسياط حتى تنزف الدماء وهم يصرخون اللّه، اللّه، لذة وألماً وشوقاً إلى ذلك البارئ الغائب الذي يسكنون في قلبه ويسعهم جميعاً.

مع الحلقة التي تدور بالرجال والنساء القلزميين، وهم كما خلقهم اللّه بلا ملابس، كما أن الصبي عاد مثلهم لا يخجل من ذلك، كانت أطياف سرجون تطل من مرة لأخرى في فراغات الليل، لكأنه يظهر بين النجوم البعيدة وهو يخاطب الصبي بأن خيراً قادماً ينتظره، ويكلمه بأن وجوده هنا لحكمة سوف يعلمها ذات يوم. ثم يفيق الصبي وسط تلك الرقصات مع وصول القلزميين لفقدان الوعي جراء الدوران السريع، ليجد أنه في هذا المكان الغريب عنه، ويكاد يشعر بالوحدة والخوف لولا أن الفتاة بجواره تمسك به بقوة وهي تشده لها، يحس معها بالأمان وأن ثمة ما يجعله يفرح بأن للحياة معنى يجب أن يعيش الإنسان لأجله.

يتذكر أهله هناك حيث تركهم أو تركوه ليس ثمة فرق، فالقدر قد حصل، ومن صعب جر ساعة الزمن إلى الوراء لكي نعيد صناعة الحياة. تعود إليه صورة أمه، حين كانت تكلمه عن الشياطين والجن والمردة، ثم يفكر أنه ربما سينجب بنتاً أو ولداً من رفيقته هذه، كيف سيكون شكل هذا المولود، هل له نفس شكل ولون تلك البنت القديمة في البلد هناك؟!..

بقدر ما كان شجاعاً لتقبل الأقدار، كان أيضا خائفاً من شيء مريب لا يقدر على تحديده، يأتيه من فينة لأخرى، يضرب على قلبه بقوة ثم يتركه وحيداً في العتمة، تكون رفيقته قد ذهبت لقضاء حاجتها، ومن ثم تعود. وفي هذه الأمور لاحظ ومن البدء أنهم أنيقون جدا بل أكثر دقة ونظافة من البشر. ورغم جسد الفتاة الحرشفي الذي شذبه لها في الأيام الأخيرة، كانت تبدو لامعة البشرة، نظيفة، ربما هو البقاء في الماء لقرون طويلة، حتى لو أنهم فارقوها الآن. طبعا هذه الجزئية لا يعلم عنها، فقط كان يراهم مرة واحدة في الأسبوع ينزلون جماعة إلى البحر، يسبحون بهدوء وبمهارة كما لو أنهم أسماك حقيقية، هو يعرف أن يسبح غير أنه لا يمتلك مهارتهم أبداً، لأنه لا حراشف تمكنه من انسيابية الحركة في كل الاتجاهات دون صعوبة.

صار اليوم يمشي في أمور الحياة المعتادة، حيث تعود على إيقاع الجزيرة وأهلها، وقد يكون فكّر في أن يصنع مركباً صغيراً ليحاول

به العبور إلى جهة مجهولة ليصل إلى أقرب سفينة مثلا تأخذه إلى اليابسة البعيدة حيث أهله، غير أنه لا ملمح واضح يدل على أن هؤلاء الأهل قريبون من هنا، وأن الوصول لهم سيكون سهلاً. ستكون مغامرة فاشلة، والأمر الأهم أنه يريد أن يأخذ رفيقته معه، فهل سيسمحون له؟ هل في تاريخ هؤلاء المخلوقات مفردة اسمها الاغتراب، الحنين المجهول؟ ذلك الذي جربه مبكراً وأدرك فحواه وقسوته، هل ستكون هذه الرفيقة قادرة على فراق أهلها، وهي التي بقدر ما تنام ليلها في حضنه، وتحبه جداً وقد بدأت تتهجأ بعض الكلمات من عنده، إلا أنها وكل صباح لابد لها أن تمرُّ على أمها وأبيها تنام في حضنهم كذلك لبعض الوقت، فالحب له طابع أصيل عند القلزميين.. وهي المسافة التي لاحظها فيما بعد العلماء في لاس فيجاس وسجلوها بدقة معيارية عبر الأجهزة المعملية الإلكترونية الحديثة.

ثم ذات صباح يفرح بمرأى طفله وقد أطل دون أن ينتبه لحمل سابق أو يكون قد رأى تكور البطن، حيث جاء المخاض تحت جذع شجرة كثيفة الظلال بالجزيرة، لا يعرف ما هو اسمها، كانت الصبية قد رقدت على الأرض ولبضع دقائق تأوهت وتألمت بشدة ثم خرج الرضيع يحبو على الطين المبتل، أخذته بنفسها وغسلته بالماء، ومن ثم دسته في صدرها لترضعه الحليب الذي تدفق أبيضاً كما عند البشر، ليس من اختلاف. كان الصبي في غاية السرور أن رأى ذريته

في الأرض، فرح ممتزج بمصير هذا الكائن الجديد، ماذا يكون وتذكر تلك الليلة التي شهدت حتماً الحمل عندما ناما في الكوخ غير أن ذلك لم يكن بعيدا ربما أقل من شهر، كانت الرياح الباردة والقوية تضرب في الخارج وظلام شديد يسيطر على المكان، حتى خال أن الجزيرة سوف تغيب في الماء لشدة الأمواج الضاربة. قبضت عليه الصبية بقوة، واعتصر نهديها الفائضين كانا يعطيان مذاقا غريبا لسر الحياة، ذلك الذي طالما سمع عنه من الرجل الستيني سرجون، حدثه ذات مرة:

«سر الحياة يا ولدي في اكتشاف الإنسان لذاته. ومرات يكون هذا الاكتشاف مع الآخر.. في تلك اللحظة التي لا يمكن تأويلها إلا لمن جربها أو في لحظة التجريب نفسه، إنه فعل الحب والاشتهاء»

يشعر الصبي بالخجل، وأحس بيد سرجون تزيح الكفين عن الوجه وهو يحدثه:

«الشجاع لا يخجل خاصة مع قصص الحب والرجاء والجنون البشري»

ثم تمضي الذكريات، تتسرب في أماكن قصية، يغيب في تلافيف تلك اللحظة المجنونة، هل يا ترى أن الإحساس نفسه يكون مع الكائنات الآدمية، وهل للكلام واللغة دور في إضافة أو حذف لما يمكن

أن يعيشه المرء، أم أن المسألة لا تعدو كونها التمازج مع قدر كوني، وموسيقى نادرة طابعها يشبه زقزقة العصافير البرية التي تأتي في مواسم الشتاء في البلد هناك. حيث كان يطاردها في صغره، ثم يقبض على بعض منها ويقوم بذبحها ثم شوائها مع رفاقه ثم أكلها، أولئك الأصدقاء القدامى الذين ذهب كثيرون منهم إلى الحرب ولم يعودوا ومن عاد كان جثة متناثرة مع الجثث الأخرى، أسرع الأهالي لدفنها وهم يذرفون الدموع. لا يفرقون بين جثة وأخرى.

يزيح صور الجثث والموتى، لأنها تخصم من إحساسه اللحظي بالفرح الكبير، وهو يمسك طفله، كانت بنت يتضح ذلك من عضوها التناسلي الذي لم يكن ممتداً للخارج، لا يعرف السبب الذي يجعله مهتم بذلك. الواضح أنها ذات صفات آدمية، الحراشيف غير واضحة، ليس لها من وجود، يحمد الله ثم يغالط نفسه بأنه أخطأ لأن في ذلك إهانة مستبطنة للصبية التي أحبها، يراها وقد ذرفت دموع الفرح مثله، يتعانقان وبينهما الرضيعة، وهما يطاردان معاً الأفق تحت مطر غزير بدأ يهطل للتو بعد أن توقف ليلة الأمس، يغسل ماء السماء آثار الدم على الأرض الذي كان ينزلق متقطرا نقطة فنقطة من تحت المولودة وأمها، كان الصبي يعيش كما لو أنه في حلم غامض ثم يغفل عن حقيقته ليعيش هذا المكان والزمن السرمديين، لا يمتلك إي إحساس سوى أن ينظر بحب وحنان فائقين إلى طفلته، جزئه الآخر.

●●●

(٢)

يوم وصل ثلاثة من الرجال على حين ظهيرة، وأخذوا الرضيعة مع أمها وأبوها، كان ثمة إرباك قد حصل، فهذا الصبي لا يشبه البقية، هؤلاء القلزميين، أنه ينطق كلمات مفهومة حتى لو أنهم لا يفسرونها، لكنها ليست غريبة، تشبه لغة ما، أخيرا توصل أحدهم إلى النتيجة، تذكر كلمة «عربي» صرخ فيه:

«أربك.. أربي.. عربي»

قالها كيف لا يعلم، خرجت من فمه، وأدركها الصبي فأومأ برأسه يعني نعم دون أن ينطق بها.. كان المستمع يستحضر عدداً من الشهور التي قضاها في القاهرة في بعثة هناك ورغم أنه لم يتعلم اللغة العربية إلا أن اللهجة لم تكن غريبة عليه. وقال له:

«السلام عليكم»

رد الصبي:

«وعليكم السلام»

شعر الصبي ومنذ البدء عندما تقدم الثلاثة نحوهم، بأن أمرا غريبا يحدث في الجزيرة، فثمة بشر من المؤكد أنهم وصلوا

إلى هنا، خاصة أنه شاهد في الفترة الأخيرة طائرات صغيرة تعبر سماء الجزيرة، ولم يكن يظن أنها قد هبطت هنا، كما لم يكن لديه أي فكرة عن حجم الجزيرة. وقد يكون فكّر في أن تدنو قليلاً منه لتلتقطه وتأخذه إلى أرض البشر، الآدميين، أما الآن ورغم أنهم قد جاءوا أمامه فقد شعر بالخوف والخطر يحدقان به، بدأ يستحضر صور الموت والدم والقتل في بلده، المصائب التي تركها وراءه، حتى الصراعات بين القراصنة في البحر.. هؤلاء هم البشر، وهؤلاء القوم هنا آباء ابنته وأجدادها هم أشرف وأرحم، إنهم لا يتعطشون للدماء ولا القتل المجاني حيث لم يشهد أي معركة بين اثنين منهم طوال وجوده هنا ولم ير سلاحاً يشهر ولا أي نوع من أفكار الغلو والرغبة في الانتقام.. وفكّر أنه الآن سوف تبدأ المتاعب مع وصول أحفاد آدم.

من جهتهم فقد كان الثلاثة من الفريق الأمريكي في غاية الاستغراب أن ثمة آدمي هنا، من أين جاء هذا الكائن الذي حتما لا يشبه القلزميين بل يتكلم لغة مفهومة، حتى لو أنهم لا يجيدونها لكن سيكون ممكناً فهم كلامه عمّا قريب جداً عبر مترجم ليس من مشكلة إذن، وربما فكّ الكثير من الطلاسم الغائبة واختصر وقتاً.. كما لاحظوا طبعا هوية الرضيعة التي هي أقرب للبشر، وإن لم يتوقفوا عندها كثيراً، أما الأنثى فبدت واضحة أنها قلزمية باهرة الجمال، بحراشيف أقل أو مقصوصة ببراعة.

أخذوهم في قفص كما جرى العرف كعينة سوف يتم إجراء الاختبارات اللازمة عليها، تم الاتصال بالبروفيسور لارنج الذي اتصل هو الآخر بالكولونيل باترس.. تكلم الرجل من الجهة الثانية يخبره بالهاتف النقال الذي يعمل بالأقمار الاصطناعية حيث لا شبكة اتصالات طبعا بالجزيرة:

«وجدنا آدمي في الجزيرة، وهذا أمر غريب!»

«أتحكي بجد؟»

«نعم.. ستراه بعد قليل.. وهنا..»

«نعم أكمل»

«رضيعة مشوشة الهوية.. تكاد تكون آدمية وإن كانت قد تبدو قلزمية»

«هذا مشوق ومريب»

كان لارنج وباترس في الانتظار، لرؤية هذه المعجزة الجديدة، فهذه الجزيرة التي تشغل العالم يبدو أنها سوف تكشف أن كل مسار العلوم الإنسانية ما هي إلا تجريب باطل وأن على البشر أن يعيدوا الكرة من جديد في سبيل الاكتشاف والمعرفة ومحاولة تفكيك ألغاز هذا العالم الغريب.

كانت تلك لحظة مربكة، في تاريخ الفريق العلمي.. الذي ربما لن يكون الأخير إذ سيأتي بعدها فريق ثالث ورابع وخامس.. ستتوالى الفرق العلمية إلى الجزيرة، سواء من الأمريكيين أو غيرهم من روس وصينيين وبريطانيين كل يحاول أن يستكشف بنفسه فكرة جديدة، أو يصل لنتيجة لم يصل لها من قبله أحد، كل يطمع بالثروة والغنى، يريد أن يخرج من كنز هذه الجزيرة بالمزيد من القدرات والأموال.

قبل أن يحدث ذلك، وقد كان باترس يفكر أنه سيحدث حتما.. كان يفكر مع نفسه، قبل أن يتكلم بصوت مسموع للارنج:

«أين كان هذا الآدمي طوال الفترة الماضية ومنذ اكتشاف الجزيرة؟»

رد لارنج بشيء من السخف، كأنه يريد أن يقول له إنك غير علمي ولهذا أنت جاهل، فحقيقة الإنسان العلمي ألا يتعجل في إطلاق الأحكام، يجب أن ينتظر ويختبر وألا يضع قناعة نهائية من الوهلة الأولى:

«لسنا متأكدين أيها الكولونيل؟»

«تعني أنهم ربما كان تحليلهم غير دقيق، وبالتالي ليس آدميا!.»

قالها باترس بهدوء ولم يباري انفعال لارنج المكتوم.. وسمعه يرد مرة أخرى:

«أقصد ذلك. حتى لو كان ثمة من هو قريب للآدميين فقد يكون نتاج طفرة جينية مثلا.. كل شيء متوقع»

ابتسم باترس قليلاً ثم تعامل بجدية مع وصول الرجال الثلاثة وهم يضعون القفص بمساعدة مجموعة من القلزميين الذين كانوا يتابعون ما يجري ولا يتدخلون وهم يهمهمون ويضحكون ضحكهم المميز الذي اعتاده الفريق الأمريكي، كان نوع من الضحك غير المفهوم ما مغزاه بالضبط، ففي عالم البشر ثمة شيفرات مشتركة يمكن إدراكها فوراً وبالتالي فهم السبب الذي يجعل إنسان ما يضحك، هل هو يسخر أم يفعل ذلك عن جد وتفاعل مع أمر مضحك فعلياً، هنا لا توجد إجابة واضحة، كما أن البحث ما زال مستمراً في المعامل الأمريكية، حتما سوف تتضح الإجابات ذات يوم قريب، كان لارنج يفكر، قبل أن يتفاجأ لمسألة لم تكن في بال أحد عندما نطقت الصبية القلزمية بكلمة مهموسة غير أنها مفهومة.. لا تشبه الهمهمة القلزمية.

قال بصوت مسموع للكل:

«هذا غريب فعلاً.. أتتكلم هي الأخرى؟»

انتبه الجميع بأن هناك أمر غير متوقع يحصل الآن، سوف يغير حصاد كل الأيام السابقة، وهذا قد يعقد المهمة بقدر ما يقربها من نهاية متوقعة ستكون سعيدة للإنسانية والعلوم.

●●●

(٣)

نقل القفص إلى أمريكا عن طريق القاعدة الجوية في جيبوتي، كما جرت العادة ومن هناك إلى المعامل في لاس فيجاس، وهذه المرة لم يتم عرضهم في الحديقة كما حدث مع المجموعة الأولى، فالعادة أن العلماء والاستخباراتيين لديهم دائما أجندة معينة في العمل تتطلب إظهار حقائق وإخفاء أخرى، وهذا طابع المهام من هذا النوع، وهو يعكس التنافس الكبير بين الدول حول الهيمنة والسيادة.. الكل في المعامل يعرف ذلك، وهم يعملون في ظروف غاية السرية، حياتهم محفوفة بالخطر إن خاطروا بأن يدلوا بمعلومات قد يكون الواحد منهم بعدها غير محسوب في عداد سكان الأرض.

في البداية كان التحقيق مع الصبي، الذي روى القصة كاملة.. حكايته مع سرجون منذ أن خرجا في رحلة بحرية إلى أن هبت العاصفة وظهرا في الجزيرة، ودفن معلمه.. كانت الحكاية واضحة للعلماء التي روت باللغة العربية الملكونة بلهجة سودانية، ما كان صعباً الإجابة على السؤال الغائب، الذي لا يزال لغزاً كيف ظهرت الجزيرة ومن هم هؤلاء القلازمة أو القلزميون؟! فالصبي لا يقدم أي تفسير بخصوص ذلك، بل زاد البحث تعقيداً وهم يقدم لهم الآن طفلة هي مزيج بين كائنين آدمي وقلزمي، وهذا مثار آخر للدراسة يتطلب عملاً ليس هيناً.

الذكاء الذي أبداه القلزميون، ومنهم الصبية كان كفيلاً بأن يشجع العلماء لمحاولة المضي في الأبحاث حول مسائل عديدة.. الذاكرة، اللغة، معرفة الألوان، التعامل مع الأحجام والأشكال وغيرها من أمور.. فلابد من التوصل إلى نتائج، ثمة مؤشرات أولية لذلك، كما يبدو أن لهؤلاء القوم لغة يمكن الاقتراب من فك شيفراتها. حتى لو أن الصبي لم يتعلم منها شيئاً واضحاً بدلاً عن ذلك كانت الصبية هي التي تتعلم منه، وهذا ربما يشير إلى أن القلزمي قد يكون أذكى من الآدمي في مسائل تعلم اللغات، دون أن يكون الحكم معمماً لأمور أخرى، لأنه لو كان ذلك صحيحاً لرأينا حضارة للقلازمة، كما فسّر الأمر أحد العلماء.

تم التأكد من هوية الصبي وعائلته بالفعل في مناطق السودان الشرقي، ووجدت عائلته فعلياً التي كانت قد افتقدته، غير أن الفريق الذي اتصل بأقاربه عبر السفارة الأمريكية في الخرطوم قدّم تحذيرات تأكيدية لأسرته بعدم التصريح بأي شيء. بالتحديد أمه التي سوف تنال اهتماماً وتؤخذ عبر طائرة خاصة تُقلِّع من داخل مدرج خاص بمبنى السفارة التي تعتبر الأكبر في أفريقيا والتي يبدو أمرها لغزاً، بحساب أن العلاقات بين أمريكا والسودان سيئة جداً، فما الذي يجعلهم يبنون أكبر سفاراتهم الأفريقية في بلد ليس لهم علاقة به، وهل واقعياً هذا ممكن؟!..

عموماً وصلت الأم واستقبلت ابنها بالدموع، كيف أنه نجا من الموت المحقق، ولم يشر لها من بعيد ولا قريب بقصة الحفيدة، وقد تم إخبار الصبي سلفاً بأن لا يقص هذا الموضوع على والدته. اكتفى فقط بأن أخبرها بأنه ضاع في البحر إلى أن تم الحصول عليه عبر سفينة بحرية أمريكية كانت تتجول في المنطقة، تلك الرواية التي تم اعتمادها. كان العلماء حذرين جدا في أن تتسرب المعلومات إلى المنافسين لاسيما العلماء الأوروبيين أو الصينيين بالتحديد، الذين طوروا قدرات كبيرة في السنوات الأخيرة في إمكانية كشف أمور قد يعجز الأمريكيون عنها، والإشكال أنهم لا يعلنون أغلب ما يتوصلون إليه، فهم في مسائل السرية أكثر تكتماً وقدرة على التمويه لسنين طويلة. هذا معروف لفريق لاس فيجاس. الذي واصل عمله بهدوء وحذر.

رغم كل الحذر والتكتم، فقد تسربت الأخبار، ما شكّل قلقاً بجد.. نقلت صحيفة «ذا ناشيونال أوف ذا قلزم» خبرا وإن كان مقتضبا إلا أنه يشير إلى ما يجري من تطورات، أوضح بعناوين مثيرة..

«العثور على آدمي في جزيرة القلزم تزوج من قلزمية وأنجب منها طفلة..»

«الأبحاث العلمية تدور حول تفكيك اللغة والذاكرة والألوان لدى إنسان القلزم»

كان استخدام تعبير عبارة «إنسان القلزم» تحولا جوهريا في النظرة إلى القلزميين، ولم يكن قد جاء عبثياً، لقد كانت هناك إشارات وضغوط من الجماعات المدافعة عن حقوق هؤلاء المنضوين الجدد للهوية الإنسانية، كما تقول جماعة «المدافعون» وغيرها من جماعات جديدة أنشأت على وجه العجلة. وكان المبرر الأوضح أنه لا سبب يدعو للتعامل معهم على أنهم أي شيء آخر سوى أنهم بشر، حتى لو أنهم كانوا بدائيين.. وبدأت مع ذلك تتفاوت الأخبار المتناقلة عن ذكائهم وإمكانية تعلمهم.. وغيرها من معلومات لا يعرف الناس مدى دقتها وكيف يمكن تأكيدها أو نفيها، فالأسرار الكبيرة تظل هناك في المعامل في لاس فيجاس وربما أماكن أخرى.

صحيفة «ذا ناشيونال أوف ذا قلزم» كانت قد تعرضت من جهتها لضغوط وتحذيرات بأن توقف نشر الأخبار حول الجزيرة، كان مالكها وهو رجل أعمال أمريكي يستثمر في كل شيء عابر، يدعى مالكوم بارك. قد ابتكرها لكي يجمع المال من هذا الهوس الجديد، وسبق له أن أصدر صحيفة باسم «١١ سبتمبر» بعد الأحداث الشهيرة في نيويورك عند انهيار البرجين، وأصدر صحيفة باسم «تسونامي».. كان يصدر صحفاً ويستثمر في الأفلام السينمائية كذلك حيث كان

له نفوذه في هوليوود ووسائط الميديا عامة. غير أن مالكوم لم يكن يستجب لأحد سوى هواه الذاتي، كان لا يخاف مؤمنا بالقاعدة التي ابتكرها بنفسه..

«ما دمت تملك المال الكافي.. لا أحد سوف يهددك»

غير أنه ليس في كل مرة تسلم الجرة.. كما درج القول.. فقد فوجئ وهو في مكتبه بالعاصمة المالية لأمريكا والعالم.. مدينة الاقتصاد والبورصات.. نيويورك بعصابة تدخل عليه في مكتبه وهي تهدده شخصياً بألا ينشر أي شيء حول جزيرة القلزم.. أي شيء مطلقاً.. لأن ذلك يعني موته هو شخصياً، لا أحد آخر.. ولو كان حكيماً يجب عليه أن يوقف إصدار الصحيفة فوراً وأن يعطل موقعها الإلكتروني بأي نوع من الفيروسات.. ولئن لم يفعل ذلك بنفسه ويعلن أنها تعرضت لهكر قوي، فسوف يقومون هم بذلك على الفور.. كان يحاول أن يتأكد من هوية هؤلاء الناس الملثمين.. ولم يتوصل لنتيجة سوى أن لكنتهم الإنجليزية آسيوية، يبدو أنهم من شرق آسيا.. هم ليسوا أمريكيين قطعاً..

●●●

سادساً: اغتيال باترس

(١)

ما كانت تخشاه سوزان فقد حدث، فقد تم اغتيال باترس وداخل جزيرة القلزم.. هل كان ممكناً إخفاء الخبر كما رغب الأمريكيون وعلى رأسهم الرئيس، قطعا لا. فقد بدا جليا الآن أن ثمة صراع خفي حول الجزيرة، وأن الموضوع برمته يتجاوز القلزميين وهويتهم من هم بالضبط، إلى الثروات والنفوذ، فالبشر مغرمون بالسطوة والسلطة والتسلط، أن يشعر الفرد منهم أو الدولة بأنه يتملك الحاجة المعينة لنفسه وأن يمثل الآخرون دور المتفرجين الذي يرون فقط ما يحدث وهم يبدون الإعجاب.

بدا الرئيس الأمريكي في ذلك الصباح الباكر حزيناً، وقد ذرفت دموعه قليلاً وهو يمسحها بمنديل ورقي يستله من الصندوق على الطاولة أمامه، كان يتكلم هاتفياً مع وزير الدفاع، ليؤكد له:

«يجب أن يستمر العمل وبدرجة أكبر من الاجتهاد»

رد الوزير:

«لكننا الآن سيدي الرئيس أمام تهديد حقيقي»

«أعلم ذلك.. ولهذا لابد من إرسال قوة عسكرية من المارينز فوراً إلى الجزيرة»

كان أمامه تقرير أرسل قبلها بنصف ساعة من وزارة الدفاع يوضح ملابسات ما جرى، أو يحاول تفسيره، لأن الحقيقة لم تكن واضحة أمام الأمريكيين ووزير الدفاع الآن في موقف لا يحسد عليه يكون فيه التبرير هو السائد للحفاظ على المركز.

خرجت الصحف الأمريكية والتلفزيونات ومن ثم كل العالم، بالخبر.. أن رئيس فريق الاستخبارات الأمريكي قد قتل في جزيرة القلزم.. كان ذلك يعني لغزاً سوف يشغل سكان الأرض لعدة أيام وربما شهور.. لا أحد يعلم بالغيب في الكرة الأرضية.. فقد يحدث ما هو أكبر في الغد. يبقى الناس مغرمون بالإثارة والطلاسم. ومن ضمن ما تم تناقله أن باترس قتل بواسطة القلزميين، وتم تطوير قصة مفاداها أن قلزمياً كان يحمل سلاحاً أبيضاً هو الذي وجّه طعنة قاتلة للرجل، في حين أن الصحيح أن باترس مات بطلق ناري من مسافة ليست بعيدة في الساحل، بالتحديد من سفينة صغيرة، لنش بحري مرتبط بغواصة كانت تحوم في فضاء الجزيرة المائي. كان قد تم تحديد الهدف بدقة ليسقط الرجل على الأرض ميتاً في الحال، وهو يلفظ كلماته الأخيرة..

«سوزان.. سيزان.. سوزان.. سيزان»

من جهتها كانت أسرته الصغيرة تعيش حزناً ملوعاً وهي تستقبل الجنازة، استلموا الجثمان بعد إجراءات روتينية لابد منها، ومن ثم صحبتهم فرقة عسكرية ومسؤولين، ليقام قداس الموتى للكولونيل الذي كان يحلم في اللحظات الأخيرة قبيل موته بأن ثمة مجد كبير ينتظره عند عودته إلى بلاده، سوف يحتفلون به كبطل حقيقي، وقد يعين في القريب العاجل وزيرا للدفاع ولم يكن يدري أن الرصاصة أقرب من كل ذلك.

سوزان كانت تسترجع تلك اللحظات، ذلك اليوم وهي تحس بأن القدر يمكن توقعه حتى لو أننا لم نكن متأكدين من طبيعته، يمكن للإنسان أن يضرب قلبه بقوة أو تكلمه عوالم خفية ما بأن هناك أمر ما سوف يحدث.. سواء كان طابع ذلك شراً أم خيراً، ومضت في الجنازة ببطء وهي تعانق ولدها سيزان الذي كان في حالة يرثى لها. وكان بجوارهما وزير الدفاع، وهو يحاول مواساتهما بعبارات أسى تبدو كما لو أنها مزيج بين الأسف على ما حصل والفرح به، حتى لو أن اغتيال باترس يشكل تهديدا حقيقيا له هو الآخر.

أما السيد لارنج البروفيسور، فقد كشفت الحادثة عن العمق الثاني له.. أن الطموح يمكن أن يصبح نوعاً من القلق.. فقد كان

خائفاً، ففي تقدير أغلب المجموعة الاستخباراتية والعلمية أنه الرجل الثاني بينهم، وهذا قد يجعله مستهدفاً، كان قلقاً، وكان ينتظر ما أفاده به وزير الدفاع في اتصال هاتفي:

«خلال ١٦ ساعة سيكون معكم فريق من الجنود المارينز»

«أرجو الاستعجال سيدي.. فالأمر..»

رد الوزير بغضب، وهو يتذكر الآن أن باترس كان أكثر تهذيباً..

«نحن نفعل ما بوسعنا.. لقد كان مفاجأة ما حدث»

ثم أضاف:

«علي أي حال سوف تتولى المهمة ليس أكثر من يومين سوف نعين شخصاً بديلاً لباترس في قيادة المجموعة»

وأغلق الهاتف.. ليترك لارنج ما بين الحيرة والظنون، لماذا لا يكلف هو بالقيادة ومن ناحية ثانية كان يخبر نفسه بأن في ذلك خير له من أن يتورط بطلق ناري، فهذه الجزيرة يبدو أنها بدلا من تكون مسرحا للآمال والأحلام سوف تتحول الآن إلى ميدان للشؤم.. قال بصوت مسموع لنفسه:

«هذا أفضل.. أحسن بكثير من أن أكون في المقدمة»

ومضى يتمشى في الجزيرة ولكن هذه المرة بعيداً من الساحل، كان القلزميون قد بدءوا أكثر نشاطاً في ذلك اليوم.. وهم يتقافزون في الأشجار يلتقطون ثمار المانجو، البرتقال، فقد كانت الجزيرة غنية بالفواكه.. كان يبادلهم الضحكات دون أن يفكر هذه المرة كما في مرات سابقة في طبيعة هذا الضحك أو قدرتهم على تفسيره، فقد كان خائفاً بجد، وهو يفكر أن مكان العلماء في المعامل المغلقة فحسب.

وفكّر كذلك أنه قد مضى أكثر من ثلاثة أسابيع، المدة المفترض أن الفريق يعود بعدها ليأتي آخرون يواصلون المهام في حقول أخرى، ومع الحادثة الأخيرة فقد يتضاعف الوقت طويلاً لاسيما أن وصول قوات الجيش يعني أن الجزيرة سوف تتحول تدريجياً لقاعدة حربية، وهذا يعقد الموقف بالنسبة له شخصياً حتى ولو ليومين إلى أن يتم تعيين بديل باترس، في الماضي قد يكون رغب في مكانة أو موقع باترس، أما الآن فلا. فهو أكثر ما يخاف الموت، لا يريد أن يموت.

صحيح أنه كان يطمح حتى لو أنه كان يعلم تماما عنصرية الأمريكيين الذين يحشدون كل العالم في بلادهم ويجلبون ما لا يقل عن ٥٠ ألف شخصي سنويا عبر اللوتري ليصبحوا مواطنين يتمتعون بكافة الحقوق المدنية، غير أن ذلك أكذوبة فالأمريكي يظل أمريكيا، وما سواه يظل مهمشاً، فكلمة الحقوق.. مفردة معقدة إنها لا تعني الحصول على إعانة مادية أو تأمين صحي أو تعليم مجاني لأبنائك..

أو بيت للسكن.. هي كلمة أعمق من ذلك بكثير، لا تحتويها الدساتير ولا التشريعات البشرية..

وسط لحظات الرعب من المجهول.. استغرق لارنج في هذا التفكير الفلسفي، ومنذ زمن طويل لم يفكر فلسفياً كان فقط منشغلاً بالمنطق العلمي البحت، وأدرك ما سبق أن آمن به في سنواته العلمية الأولى في الهند، قبل أن يذهب لأمريكا أن طابع الإنسان جيني بحت، ثمة تحيز للجينات حتى لو أن العلم لم يحلل ذلك بوضوح، البشر يتفاوتون طبقيا ومعرفيا وفي كل شيء والجينات تلعب دوراً في ذلك، لهذا لا مستقبل للإنسانية.. يكاد الآن توصل لذلك ثم ينسى الأمر برمته لأن الحقائق يجب أن تأتي في لحظة صفاء نفسي وليس قلق يسيطر على الذات.

●●●

(٢)

وفق الخطة المرسومة والتعليمات الصادرة من القيادة المركزية للجيش الأمريكي، وصلت القوة العسكرية إلى الجزيرة فجراً، هبط الجنود من المروحيات الواحدة تلو الأخرى، وبدءوا سريعاً في تشييد بيوتهم المؤقتة، عملوا بنشاط وانتشرت مجموعات من الفرق السريعة للحماية الساحلية وداخل الجزيرة، كان عدد القوة حوالي ألفين من الجنود المدربين لمختلف المهام العاجلة، ذات طابع مختلف يجمع بين العمل العسكري والاستخباراتي والمدني. وهي المرة الأولى التي يصل فيها جنود أمريكيون لموقع غير واضح الملامح، بخلاف ما يحدث في الماضي حيث أن التخطيط يسبق العمل، وحيث أن الخرائط تكون جلية. كان من الممكن أن يأتي الجنود كما توقع لارنج ولكن ليس الآن، ما حدث أن اغتيال باترس هو الذي عجّل بهم، حتى لو أن سبب الاغتيال ما زال غامضاً!..

استقبل البروفيسور الهندي، القوات وتقمص دور القائد العسكري رغم أنه لم يسبق له أن امتلك مهارات عسكرية ليلقي خطبة صغيرة فيهم يؤكد عليهم:

«الجزيرة تتطلب الحذر، والمشاق هي أساس النجاح»

أغلب الجنود لا يعرفون ما هو النجاح المقصود، لقد تم أخذهم هكذا سريعاً وأغلبهم جيء بهم من القاعدة الأمريكية في جيبوتي اختصاراً للوقت، تم تدريبهم على مهام مختلفة في الماضي ليس من بينها قطعا أن يؤتي بهم لجزيرة حديثة الاكتشاف طابعها غير مفهوم. وهذا طبعا كان يخيف بعضهم، فهم بشر في النهاية يلبسون ملابس عسكرية.

أفسح لارنج الفرصة للجنود لكي يسألوا أي أسئلة تخطر على بالهم، ولم يكن يدري أن الجيش مدرب على عدم السؤال فقط التنفيذ.. ابتسم الجنود وهم يلقون النظرات باتجاه بعضهم، قبل أن ينتهي اللقاء. الذي كان مؤقتا لن يتكرر لأنه في اليوم التالي وبأسرع من التوقع كان قد وصل الكولونيل باركر، المكلف الجديد بقيادة العمليات الاستخباراتية والعلمية بالإضافة لقيادة الجيش، ما يعني أن لارنج وجد نفسه من جديد تحت إمرة من يتحكم فيه.

بالنسبة لباركر، فقد كان رجلا عمليا لحد بعيد، ليس له من أي بعد فلسفي أو علمي في ذهنه سوى العقلية البراغماتية العسكرية، وهو بخلاف باترس كان معروفاً فقد قاد معارك ضارية من قبل في أفغانستان، حقق فيها انتصارات لا بأس بها، غير أنه لا يحب الأضواء كثيرا ونادرا ما ظهرت له صورة في وسائل الإعلام وحتى لو استخدم موقع جوجل، للبحث عن صورة له فمن الصعب الحصول عليها.

بمعنى أنه رغم أدواره الكبيرة إلا أنه ظل غامضاً، وربما لهذا السبب اختاره وزير الدفاع ليواصل المهام التي صارت مزدوجة الآن ما يعني الاحتياج لرجل مختلف عن باترس.

الجانب الآخر من شخصية الكولونيل الجديد أنه أعزب، لم يسبق له أن تزوج، لكن هذا لا يعني أنه لم يكن له اغواءات جنسية، فهو له ارتباط مع صديق بدأت علاقتهما في أفغانستان وهو جندي بهي الطلة، اسمه ماريو، غالبا ما يقضيان وقتهما معا في نهايات الأسبوع، وهي علاقة ظلت خاصة جدا طابعها السرية كما أغلب تحركات وعلاقات الكولونيل. وبالنسبة لوزير الدفاع فهو يحب مثل هذه الشخصيات في المهام العسكرية التي يجب أن يكون فيها رد الفعل قوياً، فاطلاق النار على باترس وموته يعني بالتعريف المباشر في قاموس الجيش الأمريكي، أننا في حرب. وهي الكلمة التي نطق بها الرئيس الأمريكي في اتصال هاتفي ثان مع وزير الدفاع بعد وصول الجيش للجزيرة..

«نعم في حرب ولابد من أن نحقق انتصارا»

«صحيح أن العدو لم يتضح بعد ولكن سوف ننتصر.. قواتنا على أهبة الاستعداد»

أكد الرئيس:

«لابد من التحقيق الوافي عما يجري أريد تقريرا سريعا حول الحادثة»

أكد الوزير قبل أن ينهي الرئيس المكالمة:

«تماما سيدي الرئيس.. هذا مؤكد قطعا»

قال الوزير ذلك وهو غير متأكد من طبيعة النتائج، الأمر كله يتوقف على الكولونيل باركر هل سيكشف الغائب ويستطيع أن يجتاز التحدي الذي بدا الآن جليا؟ أم أنه سوف يتقوقع ويكتفي بأن يقضي الليل مع ملذاته، فقد أخذ الشاب ماريو معه، كان الوزير يعرف بدقة تامة حتى لو أن الآخرين لا يعلمون ذلك أن باركر لا يمكن أن يذهب إلى أي مهمة ويترك ماريو خلفه، لأن طبيعة دماغه لا يمكن أن تعمل دون الحصول على تلك اللذة التي يجنيها معه، ومعها يكون له أن يتفتق ذهنياً ليفكر بطريقة أفضل ويخطط ويمكن أن يكسب الحرب. هذه المعركة المجهولة، ضد شيطان غائب وخفي لا يعلم من هو إلى اللحظة!.. لكن سوف يتضح كل شيء في القريب العاجل.

●●●

(٣)

كان القلزميون يشعرون بالتغيير الذي يجري في جزيرتهم، لربما يشتاقون عودة إلى مساكنهم في قعر البحر، هكذا فكّر باركر وهو يتأمل هيئاتهم الرائعة، وانتابه بعض الشعور بأن في غلمانهم من الوسامة ما جعله يفكر فيهم بديلاً عن ماريو، غير أنه يخشى أن يصاب بمرض نادر وغريب لم يكتشف بعد، فمثل هذه الكائنات التاريخية غير مضمونة، فلابد أن جراثيم خبيثة تسكن في أجسادهم. رغم أنه تأكد لاحقا من التقارير بوصفه رئيس الفريق أن لا شيء ويمكن له أن يمارس معهم ما شاء، إلا أن التوجس لم يبارحه وعليه أن يبقى مع ماريو، لأن العلم في العادة يحمل مفاجآت خاصة مع أناس حديثي الاكتشاف. كان قد استخدم كلمة ناس متأثراً بالتيار العالمي الذي بدأ سائداً في توصيف القلزميين.

كانت أولى مهام باركر هي المسح الميداني عبر الفرق البحرية لما يجري في محيط الجزيرة الساحلي، بهدف التوصل إلى الطريقة التي اغتيل بها باترس ومن كان وراء ذلك؟ ولهذا الغرض فقد جرى تحريك بارجة حربية أمريكية كانت في البحر الأحمر قريبا من السواحل اليمنية، يتطلب وصولها عدة أيام. وفي غضون ذلك ثمة مهام أخرى يجب إنجازها فورا، القيام بأعمال غوص حر في المياه العميقة

لمسافات قد تصل إلى عدة كيلومترات، كان هناك عدد من الجنود مدربين لهذا الغرض تحركوا على الفور وفق أوامر القائد، وبدءوا في العمل بحذر في البداية ثم انفتحوا بعدها حيث لم يكن ثمة تهديد واضح وحيث تبدو الأحوال هادئة ولا خطر، وهذا يعني أن من اغتال باترس فرّ ولم يترك أثرا أو أنه لم يكن مقيماً بالأساس في المنطقة.

لم يصل الغواصون لأي نتائج جلية خلال يومين، أعدوا تقريرا مفصلا للكولونيل باركر، الذي كان ذكيا في التقاط بعض التفاصيل التي لا يمكن التوصل إليها إلا عبر الخبرة الكبيرة، ورغم أنه لم يعمل في مناطق ذات طابع بحري إنما جبال ووهاد ووديان وأوكار تجار مخدرات ومقاتلي الجبال في أفغانستان، إلا أن مفهوم الخبرة يمكن أن يتسع ليجعل الشخص الذكي يقولب مواقفاً وأفكاراً على تحديات أخرى يمر بها، بحيث يتوصل إلى نتيجة مطلوبة لتفيكك مسألة أو لغز معين. ما التقطه بالضبط أنه تم العثور على آثار لنوع من الزيوت المستخدمة في اللنشات البحرية السريعة، ومن ناحية مبدئية فإن هذا النوع من الزيت وفق المواصفات الأولية ليس أمريكي الصنع إنما هو روسي بالتحديد. غير أنه لابد من تأكيد هذه المعلومة بإرسال عينة سريعاً إلى أمريكا لمعرفة المعلومة النهائية الدقيقة، وهذا يعني.. كذلك.. لاحقاً.. أنه لابد من تجهيز وتركيب معمل متكامل في الجزيرة يقوم بمثل هذه التجارب بدلا من تضييع الوقت في الانتظار.

كما تكهن باركر فقد أثبت الفحص المعملي أن الزيت فعلا روسي، وهذا ربما يشير إلى أن ثمة لنش كان يتحرك في المنطقة أو مُعدّة بحرية روسية جاءت لأي سبب كان، وهذا يعني أكثر أن الروس قد يكونون وراء الاغتيال، إنما لأي سبب، يبقى هذا هو السؤال؟!.. فثمة اتفاق واضح قبل البدء في العمل بالجزيرة تم تنوير فريق باترس به منذ البدء أن جزيرة القلزم الآن هي تحت الحماية الأمريكية بل يمكن اعتبرها مستعمرة أمريكية أو جزء من الولايات الأمريكية.. لا فرق في التعريف.. والسبب ببساطة أن اكتشافها تم عبر الأقمار الاصطناعية الأمريكية التي رصدت ظهورها أولاً قبل أي جهة ثانية في الأرض.. الاتفاق تم مع الروس بأنه لا تدخل ولا عمليات لأي طرف عالمي هم أو أي دولة أخرى، حيث اعتبر الروس وكلاء لجهات أخرى في حين اعتبرت أمريكا وكيلة لنفسها وبقية الدول الأوروبية.. إذن فالقوانين الدولية تتيح للأمريكيين فقط الآن التعامل مع أمر الجزيرة، ربما تتم الاستعانة لاحقا بأطراف أخرى، فهل هم الآن ينقضون العهد؟ ومن هم الذين يقومون بذلك ويشكلون تهديدا صريحا، أم أنّ في القصة تمويهاً، وقد يكون من نفذ العملية مثلا صينيون أو ربما كوريا الشمالية تلك الدولة المضطربة التي تحاول أن تقلق العالم، ربما تريد مثلا أن تخلق حرب كونية لأسباب تافهة، كما تتصور قيادتها دائما وهي تستمر في تهديدات بلهاء.

انتهى التفكير بباركر، وهي تقريبا الأفكار نفسها في ذهن وزير الدفاع الأمريكي وعند الرئيس؛ إلى مسألة دفع بها في تقريره الذي وصل الرئاسة..

«... ثمة خطر وعلينا الاستعداد.. لابد أن مؤامرة ما تحاك للسيطرة على الجزيرة لا معنى لأي اتفاق ما دام لا يمكن التأكد من الالتزام به، سواء تعلق الأمر بالروس أو غيرهم فالسياسة لعبة قذرة لا أحد يلتزم.. ويبدو أن لدى بعضهم معلومات تسربت بشكل ما عن نتائج الأبحاث الأولية في الجزيرة التي تشير إلى إمكانية العثور على معادن نادرة كاليورانيوم المستخدم في تصنيع القنابل النووية، أو بعض الشعب المرجانية النادرة جدا ذات الخصائص الطبية المهمة...»

لم يكن باركر يصوغ التقارير شخصياً لأن طابعه الأدبي ضعيف جداً، ليس كما يحدث مع باترس الذي كان يعتمد على نفسه في الكتابة على جهازه المحمول. كان الكولونيل باركر يستعين بعدد من الجنود من ذوي المواهب الفذة في تدبيج التقارير، وكان يهتم باللغة الإنشائية لسبب مباشر يؤمن به أن اللغة هي مفتاح الآخر في أن يقتنع على الأقل أنك في الطريق الصحيح حتى لو أنك لم تقدم أي معلومة مفيدة، فاللغة قادرة على منح المعاني للأشياء التي تفتقدها، وهذا يجعل الشعر مهما كذلك في حياة الناس. كل ذلك لا يعني أن باركر يهتم بالشعر أو الأدب، فقط كان يهتم بالمسائل البراغماتية المباشرة التي توصل إلى الأهداف. رغم أن ماريو قال له مرة:

«إن الشعر له لذة كما لعبة الحب بين كائنين»

قالها له ذات لحظة صفاء بين الإثنين وهما يعانقان بعضهما بحميمة.. لكن باركر لا يهتم بإفادات ماريو، قد يحترمها دون أن يدقق فيها أو ينفذها، لم يكن يشغله موضوع الذكاء في شخصية الشاب الذي كان ذكياً بالفعل، وكان موهوبا في الشعر دون أن يعلن عن ذلك لأحد، لأن الجنود بطبعهم يضطرون لإخفاء مواهبهم بسبب قسوة الحياة عندهم والقول بأن التفكير في أي أعمال أخرى يجعل الدماغ منشغلاً بتفاهات قد تحدُّ من التركيز فينهار الجندي ذات لحظة فيأخذ العدو مساره فتحدث الهزائم.

الآن يفكر في شيء واحد.. كيف يمكن التأكد من تأمين الجزيرة، اجتمع بوحدة مختارة بعناية للهدف. بأن تقوم بالواجب بدقة قبل أن تصل البارجة الحربية التي سوف تختصر عليهم عملهم ليقتصر على مهام جديدة في الجزيرة، وقد كان الوقت يمضي بطيئاً في انتظار وصول البارجة فالزمن شيء اعتباري كما يفهمه باركر تعتمد علاقتنا به على ما ننتظره بالضبط، لهذا قد يسرع وقد يبطئ. كان القلق قد سيطر عليه بعض الشيء. وهو خائف دون أن يسمح لذلك بأن يظهر على تعبيراته الخارجية لاسيما الوجه لأن عليه كقائد أن يكون متماسكاً وقوياً أمام جنوده والعلماء الآخرين من الفريق العلمي. لكي يقتل الضيق الذي انتابه ومع حلول المساء كان قد هرع إلى كوخه

يصب الخمرة على الأكواب الزجاجية مرة واحدة ليبدأ في الشراب برفقة ماريو الذي بدأ هو الآخر قلقاً فهو أكثر الناس الذين يفهمون شخصية صاحبه تماما، يقدر على اكتشاف ما وراء وجهه المتنكر، إذ يزيح القناع بمجرد أن تبدأ العلاقة الخاصة بينهما.

ترك الكولونيل هاتفه المحمول على الصامت، ولعبت الخمرة برأسه مع تعريه التام وجوعه لقتل القلق بأن يمارس بغيته إلى أقصى مدى ممكن في هذه المكان الغريب عن العالم، جزيرة تشبه لغز الحياة.. داخ رأسه جدا وهو ينام بجوار ماريو الذي كان يعتصر قضيبه بقوة بفمه ذي الشفتين الصغيرتين المبرقتين، وكان باركر ذو الخامسة والخمسين يبدو قويا مع الفياجرا المضاعفة التي تناولها، رغم أن وزير الدفاع أشار له قبل السفر بأمر واضح:

«يمكن لك أن تتبع ملذاتك ولكن كن حذرا إننا في حرب ولسنا في نزهة.. أنت لست في لاس فيجاس»

«أعرف ذلك»

قالها بإمتعاض في المطار صاعداً إلى الطائرة الحربية الضخمة في الطريق إلى جيبوتي. وهو الآن يستعيد هذا المشهد، لينهض فجأة كأنه نصل يستل من غمده، عمل دماغه على عدد من الأفكار السريعة التي ضاعفت خوفه وجعلته يدفق المني على الأرض دون

اهتمام بإكمال العملية، فقد ضاعت لذتها، ورمي بالواقي الذكري بعيداً بلامبالاة.. كان ثمة طرق قوي على باب الكوخ.. صوت لا يحتمل من شدته، جاء متزامناً مع هذا الهوس الذي سيطر على دماغه مع تذكر تحذيرات الوزير.

●●●

(٤)

كان الطارق أحد الجنود من فرقة الغواصة البحرية، وصل مبللاً وهو يصرخ:

"سيدي.. لقد قتلوا ثلاثة من الجنود؟"

واستطرد يتكلم وهو يقاوم الخوف:

"ألا تسمع صوت الرصاص.. ألا تسمع سيدي؟"

كانت ثمة جلبة عالية، أصوات الرصاص القوي، تضرب في الجزيرة.. يبدو أن هناك معركة بين طرفين.. ما بين جيش المارينز وأناس مجهولين يطلقون رصاصهم من بعيد من لنشات بحرية متحركة شديدة السرعة.

أسرع الكولونيل لارتداء ملابسه، وقد نسي أن يلبس سرواله الداخلي، المايوه، في حين بقي ماريو منذهلاً وهو عاري، أمام الجندي الذي اخترق عزلتهما، وهرع باركر مع الجندي ليجتمع سريعاً بالقادة الأصغر من جنوده المشرفين على السرايا حيث تتكون كل سرية من خمسين جندياً.. أطلق توجيهات مباشرة رغم سكره والصداع الشديد الذي حاصره نتيجة هذا الأمر الطارئ الذي كان يضعه في ترقبه:

"تحركوا بسرعة في كل مكان.. صوبوا الرصاص نحوهم بقوة أريد أن أراهم قتلى.. لابد من هزيمة هؤلاء القتلة.. لقد فقدنا ثلاثة من جنودنا الشجعان"

تحرك الجنود وفق الأوامر، انتشروا، منهم من جاء وفيه بقايا سكر ومنهم من كان شبه عارٍ كما ماريو الذي ظلّ يتقافز أمام الكوخ لا يدري ما الذي حصل، ومنهم من كان نائماً فاستيقظ كأنه في كابوس. ومع توسع الانتشار كان الرصاص القوي يتساقط يضرب الأشجار فيسقط بعضها وخرج القلزميون من كهوف صخرية كانوا يختبئون فيها في الجزيرة، ليسقط عدد منهم كذلك على الأرض سواء بنيران صديقة أو نيران الأعداء المجهولين القادمين.

ما الذي يجري بالضبط؟! كانت الحيرة تسيطر على ذهن الكولونيل الذي بدأ يتعافى من الخمرة مع بقاء الصداع الشديد، كان يفكر بلا توقف عما يحدث، هل جنت البشرية؟ ثم فكر من هو المجنون في هذا العالم؟ فالنتيجة هي أن الكل مجانين يقتلون بعضهم بعضا، الإنسان لا يعرف أن يعيش بلا جيوش ولا حروب، صراع مستمر منذ البدايات القديمة محوره المادة لا غير. ثم قاوم الأفكار التي لا مكان لها الآن، ليبدأ في تشديد تعليماته وهو يضطر للزحف أرضاً خشية أن يصاب برصاصة رغم أن عشرة من الجنود عملوا على حمايته والالتفاف حوله بقوة حتى إذا ما وصلت رصاصة صادتهم بدلاً عن القائد.

بعد مرور حوالي ربع ساعة ربما عشرين دقيقة، حيث لا قيمة للزمن إلا بعدد الموتى، توقف الرصاص القادم من البحر، كانت أضواء متناثرة قد تباعدت ما يعني تباعد الخطر، في حين بدأ الأمريكيون في إحصاء عدد قتلاهم، كان ثلاثون رجلاً قد سقطوا موتى بالإضافة إلى مجندتين من ضمن سبعين مجندة مشاركات في العملية بالجزيرة كان بعضهن يمنين أنفسهن بليلة سعيدة مع غرمائهن من الجنود فانكسرت الأمنيات.

سيطر الحزن على الجميع أن المعارك بدأت بأسرع من المتوقع، قبل أن تصل البارجة الحربية التي من المفترض أن تحمي الجزيرة. في مقابل ذلك كان قتلى القلزميين لا حصر لهم ولم يهتم أحد بأن يحسبهم، وكانت بالنسبة لهم تجربة جديدة صوت الرصاص القوي، حتى أنهم حسبوها إحدى حفلات الطبول كالتي كان الصبي يتخيلها، وقد تمتموا مع الرصاص يرقصون، فانهالوا صرعى للموت، حتى أن ذكائهم الذي يتحدث عنه العلماء بات بلا قيمة في مقابل تفسير ما جرى.

لم يكن أمام القيادة الأمريكية أن تدس الخبر، فلابد من إبلاغ الرئيس الأمريكي وهو الذي يقرر إن كان سيذاع على عامة الشعب الأمريكي أم لا، وهل يمكن إخفاء موت اثنين وثلاثين شخصاً سوف تفتقدهم عائلاتهم، لا يمكن أن يحدث ذلك، عاجلاً أم آجلاً سوف يعلمون بما حصل..

كان الرئيس قد اتخذ قراره على الفور حيث أعلن عن مؤتمر صحفي سريع بالبيت الأبيض، وخرج ليتكلم وهو يمسح دموعه التي لا يعرف إن كانت صادقة أم لا..

أعلن وهو يرتدي قميص أبيض وجاكيت أسود:

"لقد فقدنا أبطالا اليوم في معركة القلزم"

كان استخدامه لتعبير "معركة القلزم" غريباً، فلا أحد سمع عن معارك في الجزيرة، نعم سمع الناس باغتيال باترس من مجهولين، لكن لا أحد كان يتوقع أن المسألة ستتطور إلى حرب. وأضاف الرئيس الأمريكي يقول:

"نحن الآن في حرب حقيقية ضد عدو مجهول.. سوف نتعرف عليه ولن نتركه.. إنه عمل إرهابي في مكان من المفترض أنه لا إرهاب فيه. لقد بدءوا فعليا بقتل الكولونيل باترس وهم الآن يمارسون الألعاب القذرة. غير أننا لن نتركهم"

استخدم الرئيس كلمة "إرهاب" وهو ما انتقدته بعض من وسائل الإعلام، لأن مفردة إرهاب لابد من ارتباطها بهوية معينة للأعمال الإجرامية التي يقوم بها متشددون في مواجهة أبرياء، فهل من قاموا بذلك هم متشددون أم أنها دولة أخرى لها مطامح في الجزيرة، ولماذا لم تطلب تعاوناً مباشراً من أمريكا في ذلك.. صحيح هناك اتفاقيات

تحت الطاولة تتيح للأمريكيين وحدهم أن يتصرفوا في القلزم، لكن ذلك لا يمنع من الطلب بدلا من قتل الناس وإراقة الدماء بما في ذلك هؤلاء القلزميين المساكين الذين لا ذنب لهم، أنهم الآن ضحايا حرب بشرية، ربما في تاريخهم لم يعرفوا الحروب من قبل. وثمة أيضا أقوال جديدة أن الحرب كانت بين أهل الجزيرة والجيش الأمريكي، لأن الصور التي تم نقلها كشفت عن عشرات القتلى من القلزميين.. وقطعا كان ذلك تفسير ساذج، دحضته وسائل إعلامية رداً على من روجته.

كانت تلك بعض من الوصفات التي جاءت بها التقارير الإعلامية.. الأسئلة التي أثيرت هنا وهناك..أمام الهلع الذي أصاب الأمريكيين لاسيما أسر الجنود الذين قضوا نحبهم في ذلك الليل الدامس، وحيث بدأ كل شيء يتعقد أمام الكولونيل الغارق في هلوسته وهو غير قادر على التصرف فقط ينتظر البارجة الحربية وربما قرار سريع بإقالته وإرسال شخص محله، فقد نقل في التقارير عنه أنه كان يقضي أغلب وقته مع ماريو متناسياً المهام الحقيقية.

●●●

سابعاً: ظهور النوراني
(١)

على شاشات التلفزة، وبدءاً من قناة الجزيرة الفضائية فقد بث شريط مسجل لرجل يتعرف عليه العالم لأول مرة يسمي نفسه سليمان النوراني، يقول إنه يتزعم جماعة النورانيين الجدد الذين يؤمنون باقتراب نهاية العالم وأن ظهور جزيرة القلزم هو أول العلامات لذلك وربما هي العلامة الكبيرة، وهي المكان الذي من المفترض أن يخرج منه الوحش الموعود منذ الأزل، الذي يسميه بعض الناس بالدجال أو المسيخ الدجال. ذلك الرجل الذي سوف يقلق حياة الناس ويغير هواهم ويضلل المؤمنين ولن ينجو منه إلا الذي عرف كيف يختار الطريق السوي.

النوراني، قال في الشريط إن جماعته هي المسئولة عن الأعمال الإرهابية وفق وصف الرئيس الأمريكي بالجزيرة، وجاء على لسانه حرفياً:

"... نعم نقتل الكفار، لأنهم يريدون أن يستولوا على جزيرة الوحش.. يريدون أن يغيروا النواميس ولكن هيهات.. فالويل لهم والثبور أينما حلوا.. سوف نهددهم إلى أن يخرجوا عن هذه الأرض

الموعودة، لكي يخرج الوحش من هناك. إن خروجه شر ينطوي فيه الخير، لأنه سوف يمحص به الله الأخيار عن الأشرار ليكون مشيئته الكبرى، ولن يبقى مع خروجه، من أحد من العالمين إلا ويعرف قدر نفسه، من يكون هو بالضبط..."

"..كل من لا يرغب في الوحش.. يتبعه.. حتى لو لم يدري بذلك.. وهم يعلمون بهذا وقد ورد في أساطيرهم الأولى.. لا تحسبون أنهم جهلة.. هم للحق عارفون لكنهم كارهون.. يريدون أن يستولوا على الوحش نفسه، قبل أن يطل على الأرض بألف وجه.. لأنهم لو عثروا عليه لربما وظفوه لصالحهم، فالوحش يحب المال والخديعة وهم أهل لذلك.. ولابد لهذا الهراء أن يتوقف فورا.."

تحولت تصريحات النوراني المسجلة إلى هوس ساد الجميع، الكل يتكلم عنها ويربط بين حديثه وأحاديث متناقلة سابقاً كما جاء ذي قبل في فتاوى الشيخ الذي كان قد أشار لفكرة نهاية العالم.. الآن يبدو أن ثمة ما يحاك وراء الأفق، وهنا من يصدقون.. بل هم بالملايين الذين أعجبوا بالنوراني وجرأته على القول والتحدي الواضح الذي أبداه للإمبراطورية الإمبريالية الأمريكية، كما أسماها في كلمته التي استمرت لخمس دقائق دون أن يشار إلى الموقع أو الجهة التي يتكلم منها، وكانت الفضائية قد ذكرت كما جرت العادة أن الشريط قد أرسل من قبل مجهول، أو مجهولين لم يفصحوا عن عنوانهم، وأنه

سجّل تقريباً في يوم مقتل الكولونيل باترس قائد الفريق الاستخباراتي الأمريكي.

إلى أن أذيع البيان وانتهى، طبعا كان ثمة تخاريص كثيرة هل هذا الرجل حقيقي أم مُدعٍ؟ وهل بالفعل ثمة جماعة تسمي نفسها بالنورانيين الجدد هي التي قامت بقتل العشرات في القلزم سواء من المارينز أو سكان الجزيرة، وما هي حقيقة الوحش الذي سوف يخرج من الجزيرة كما يقول النوراني؟

في المقابل لكل هذا الكلام الكثير، فقد عمل رجال "السي أي إيه" الأمريكي على دراسة مضمون الشريط وتحليله كما تعودوا دائما وذلك للوصول إلى نتيجة مؤكدة حول مصداقية الكلام الذي كان صادماً وغير متوقع، لكن النظرية الحديثة وفق باركر فهي:

"كل شيء متوقع.. الرئيس كان محقاً عندما أشار إلى الإرهاب"

أضاف في الاجتماع مع الفريق في الجزيرة:

"البارجة سوف تصل اليوم وسيتكثف العمل ويجب أن نكون في أشد الحذر.. يجب أن نعلم أن هؤلاء المتطرفين الذين يظنون أن العالم سينتهي بهذه البساطة، لا أحد يمكن أن يوقفهم عن الهذيان، فهذا طابعهم.. ولهذا فهم مستعدون للتضحية بأي شيء وبلا هوادة.. إنهم لا يتوقفون البتة.. وهذا مخيف طبعا"

مضت عدة أيام بهدوء، وتم تكثيف أمن الجزيرة، لا موتى ولا رصاص.. والقلزميون كانوا يمشون في الجزيرة وهم يبكون ضحاياهم، فقد بدا أن لهم مشاعر صادقة في البكاء بخلاف الضحك سمتهم الأخرى.

كان باركر يتأمل ذلك وهو يشعر بالحزن الشديد على أنهم ماتوا هكذا بلا ذنب، يمكن لهم أن يعيشوا حريتهم وحياتهم لكن وجود البشر القهري هنا، أفضى لهذه النتيجة المؤلمة.

مرات يفكّر الكولونيل بهذا الشكل، وهو في أشد توجسه النفسي أن يتم تغييره سريعاً عن مهمته ويستبدل بآخر، وهو الأمر الذي تأخر فقد دافع وزير الدفاع عن باركر منذ أول وهلة:

"إنه رجل متمكن من عمله وما حدث كان يمكن أن يحدث مع أي شخص آخر"

قال ذلك للرئيس الأمريكي، الذي لم يجادل في الموضوع، ولم يهتم بالجزئية في التقرير الذي أمامه التي أشارت إلى أن باركر كان في ليلة حميمية ساعة دقت طبول الحرب ومات الجنود.

تناسى ذلك باعتباره أمراً شخصياً، غير أنه لاحقاً أومأ للوزير بعبارة واحدة:

"قل له أن الحب غير الحرب"

وبدوره نقل الوزير العبارة إلى باركر الذي فهم المقصود، فأخبر ماريو بأن يبتعد عنه إلى حين اتضاح الأمور وهدوء الأحوال، وقبل أن يأتي ذلك الهدوء كان بيان النوراني قد أذيع على الملأ.

●●●

(٢)

اختفى المحلل السياسي هذه المرة عن الفضائية في برنامجه الأسبوعي لعدة أسابيع، وسرت الشائعات. فلا هم للناس سوى ابتكار الشائعة عندما يغيب صاحب الشأن. قيل إنه يتهرب من الحديث عن النورانيين هؤلاء الأناس الغامضين، وقيل إنه ربما يخاف منهم أو أنه خائف فعلا، وقيل إن ثقافته في الأمور الدينية والميتافيزيقيا وعلوم الغيب والتراث ضعيفة جدا، فليس له أن يفتي في شأن الوحش. فهذا أمر يختص به علماء الدين أمثال الشيخ التلفزيوني المعروف براد الرومي.

قيلت أشياء كثيرة وأولها أنه ما زال مغضوباً عليه مما حدث سابقاً وهو يحكي قصة البشر الذين عرضوا في الحديقة بألمانيا وأن هذا الغضب المتفجر لم يتوقف بعد، وأن هناك من هدد بقتله إن رآه يفتح فمه مرة أخرى بهذه المواضيع التافهة. يكفي ألماً لبلدان يعاني أناسها الحروب والمجاعات وشظف العيش، حتى أن يأتي أحدهم لينكت تاريخهم الاسترقاقي البشع، حتى لو أن ذلك يدين الغرب في مشاريعه التي أفسدت الإنسانية بقدر ما أفادتها. كانت المقالات تدبج بمثل هذه الأقوال وغيرها ولا أحد يدرك المقصد النهائي ولا أحد يقبض على الحقيقة.

لكن الرجل أطل من فضائية أخرى هذه المرة من لندن وبفارق توقيت عن موعد البرنامج الأول بعدة ساعات. لتقطع جهيزة قول كل خطيب كما في المثل العربي، وبدأ هذه المرة بشكل أنيق، العينان البراقتان والأسنان الملمعة والوسامة التي بدت جلية في عين العشيقة الطليقة التي يخال أنها أحبته بجد حتى لو أنها لم تسر له بذلك، ولكن هل هي مغرمة به أم بمركزه وشهرته أم بماله؟!، لم يفكر بذلك كثيراً، وهو يسترجع آخر ما قالته على الهاتف، قبل أن يدخل الحلقة التلفزيونية.

كان قد وصل لندن قبل عدة أسابيع وحاول الاتصال بها كثيرا، وهي لا ترد.. تتغنج وتمثل دور المرأة التي لا يهمها رجل.. ومن ثم يكون عليها أن تتنازل عن الكبرياء، بعد أن توصلت مع نفسها بأنه لا جدوى من الاستمرار في لعبة القط والفأر وأن اللعبة قد انتهت، آن لجنونها أن يتوقف تعرف أنها مجنونة بطريقتها الخاصة جدا، يجب أن تتقدم بشجاعة إليه الآن وتنهي كل شيء، تنهي أو تبدأ، ليس من فرق عندها، منظورها للحياة مرتاب يصعب الإمساك به بسهولة.

انتظرت نهاية الحلقة التي كانت بالنسبة لها مملة، فهي ليست لديها قناعة بالفبركات التي يصنعها الإعلام والميديا. لا تصدق هؤلاء الأمريكيين ولا في مقابلهم الإرهابيين.. كلهم بالنسبة لها كذابون، المصلحة هي التي تحكم كل الأطراف وكلهم يصنعون الحرب ويعانون التوحش، جميعهم ذلك الوحش الذي يتحدث عنه سليمان النوراني.

تحدث المحلل السياسي هذه المرة عن أن حجج الجماعة النورانية قد لا تكون واضحة بالضبط:

"ما الذي يمنع ظهور دجالهم هذا لو أن الجزيرة بها أيّ من كان.. أمريكا أو غيرها، ولماذا قتلوا هؤلاء المساكين؟"

كان هذه المرة ثمة مذيع.. رجل متقدم السن، برأس أصلع، وأظافر طويلة، تظهر في الشاشة وهو يقلب أوراقاً أمامه قبل أن يوجّه سؤالا جديداً :

"يبدو ثمة تناقض أيضا في حجة انتظارهم للدجال؟"

يضحك المحلل، يقول:

"هذا لو صدقت روايتهم.. على العموم كيف ينتظرون الشر ليصنعوا الخير.. لا أفهم.. يبدو الأمر مشوشاً.. إنهم أدعياء"

لكن المحلل يتوصل لفكرة أخرى يقول:

"يبدو أن النوراني متخوف من استيلاء مبكر على الوحش.. هو أشار بوضوح إلى إمكانية توظيفه"

"ولكن هل يمكن خداعه، أو اللعب عليه؟"

"ليس لدي تأكيد على أمر وهمي.. لا شيء اسمه الوحش"..

كاد أن يسترسل في شتم سليمان النوراتي وجماعته الذين رآهم أدعياء يوظفون مقولات متوارثة يضيفون عليها بهارات مثل ما يفعل الكثيرون لكي يلعبوا بعقول الناس ويمررون أهدافهم الخاصة، هكذا تجري ألاعيب السياسة وفتنة العقائد وهي تشوّه عند بعضهم. كاد ثم توقف، فهو يخرج مرات عن طوره، يبدأ في تقديم إهانات لجهات لا تكون ثمة ارتباطات أو مصالح واضحة معها.

تريث هذه المرة، لأنه في داخله كان يشعر بالخوف فالإرهابيون لا يتركوا أعدائهم سوف ينتقمون منهم بأي وسيلة كانت، لهذا عليه أن يكون هادئاً وألا يكرر خطأ المرة السابقة، حتى لا يتعرض لمزيد من الشتائم وهذه المرة من أناس آخرين، غير جمهور المرة الأولى الذين لم يتخلص من جرحهم بعد.

كان متشوقا لنهاية الحلقة للقاء حبيبته المطلقة، فقد اتصلت به قبل بداية الحلقة بدقائق بأن عليه أن يستعد للقاء الموعود وأن لديها أخباراً سارة له، وكان ملتهباً لمعرفة السبب الذي جعلها تغيّر رأيها، ما الذي حدث معه، فقد ظلت تراوغه طوال المدة الماضية دون أن ترد على الأقل على اتصالاته. ومرات تجعل شخصاً آخر غريباً هو من يتولى الردّ وبقلة ذوق، وكان هذا مزعجاً ومؤلماً كذلك، غير أن من له هدف فعليه أن يصبر إلى أن يحقق مراده.

انتهت الحلقة وهو يتجه بالتاكسي للقائها، كانت في ذهنه تلك اللحظات التي قابلها فيها أول مرة، كيف دخلت قلبه يصعب التفسير. كان ثمة مؤتمر يضم عدداً من الشخصيات الهامة من العالم، إعلاميون وصحافيون وصناع أخبار ومحللون وكتّاب ودارسون، وإعلانات وموضة، يكاد يتذكر موضوع المؤتمر، يكون قد نساه، ففي حياته حضر مئات الأحداث والمنتديات والمؤتمرات من هذا النوع ما يجعل التذكر صعباً بجد، إنه يمكن أن يمثل على الآخرين لكنه لا يمكن أن يمثل على نفسه، نسي فعلاً.. وفي ذلك الصباح أو ربما الظهيرة قبلها بقليل، التقاها.. كانت تلبس تنورة رائعة زرقاء اللون وقميص أبيض وشعرها مهذب بما يشير إلى أنها خارجة من الكوافير للتو، وقد يكون ذلك التحليل غير صحيح. وهو إلى الآن لا يعرف ماذا تعمل بالضبط، فقط يعرف أنه مغرم بها، ولا يعرف كذلك السبب، هل هي جميلة وفاتنة بحق كما يتخيل أم هي غير ذلك، مرات فإن الإنسان يقع أسير حالة من الهيام لا يكون قد أدرك لها منطقاً واضحاً.. وحيث لا يعرف قانوناً للحب ولا للجمال وليس له من أي منظور واقعي للعالم. هذه الحالة من الوعي الذي يمتزج باللاوعي والأوهام، تسيطر عليه منذ طفولته وصباه، يدرك ذلك جيداً وأنه ضحية لعالم غريب وغامض ومشوش وأنه رغم شهرته يظل متوحداً ومتوحشاً لا زوجة ولا أولاد، حتى لو أنهم يروجون أنه يتزوج ويطلق.. أو أنه عاشق مدمن لبنات

الهوى وغيرها من الترهات وثمة من نعته بأنه مثلي يعشق بني جنسه من الرجال.

هل من المعقول أن يظل طوال فترة طويلة يطارد هلاماً لا يفهم ما هو؟ ما هي هويته سوى أنه يدرك أنها امرأة مطلقة كما قالت هي بنفسها:

"نعم مطلقة يا سيد سليم!"

ينظر إليها بعمق يكاد يغوص في الخبايا المندسة وراء وجهها المشرق، وفيه رغبة بمص شفتيها بقوة كما فعل مرة بشكل عابر مع شابة أصرت على معانقته في مهرجان ثقافي، ولم يجد نفسه يتمالك هواه فقد عانقها بل أطفأ شبقه ومصها بقوة وذابت هي الأخرى وجداً لا تريد أن تفكه وسط البشر الذين ضحكوا كثيراً في حين ابتل سرواله دون انتباه ومن ثم أسرع إلى حمام بالفندق لكي يزيل أثر الفضيحة، دون تأكد هل هناك من رآه أم لا؟ ومن ثم نسي ذلك الموقف. فالحياة باتت سريعة الإيقاع.. قوية ومدمرة وبائسة. لا يفرق أن تكون فقيراً أو تمتلك مالاً كثيراً. طبيعة الإنسان في حياة اليوم هي الاغتراب الذاتي والتشريد الذهني، الحنين للمجهول والغيب والانتظار لأمور غير ملموسة وغير ناضجة، مثل ثمار يكون عليها أن تسقط قبل أن يحين وقت قطافها.

هاهي أمامه الآن تبتسم له من على البعد، لم تتغير كثيراً، الأناقة والرونق الجذّاب.. اللون الأزرق والتنورة العريضة. والقميص الأبيض الذي صار وردياً، واللغز المجهول بشأن هويتها، لا جديد سوى أنها تلك المطلقة الغاضبة..

"نعم.. أغضب يا سيدي.. أنا كثيرة الغضب. الرجال لا يحتملونني"

"أنا بإمكاني أن.."

تقاطعه بانفعال:

"كلكم كذابون.. تقولون ذلك في البداية وبعدها كل شيء يتبدد يصبح العكس تماما"

"أنا مختلف.."

"لا تداهن.. لا أراك مختلفا.. أنا أتابعك بدقة منذ أن كنت تتسكع في البرامج التلفزيونية"

كانت ولا تزال مباشرة في قاموسها اللغوي، لديها بعض من العجرفة المحببة. فالرجل مرات يريد امرأة تستفزه عن حب.. لا يرغب في الأنثى التي تخنع له وتكون ألعوبة في يده يتصرف فيها كيفما شاء. لابد من المناوشات والصراخ والعويل. هل كان يكلم نفسه بذلك لأنه عاش تجربة كهذه في سنوات بعيدة من حياته، يرى في

أمه تلك الشخصية التي يحاول أن يبلورها في ذهنه أو يبحث عنها وقد وجدها في هذه السيدة التي لا يعلم إلى اليوم هل هي صادقة بخصوص طلاقها أم لا، وربما هي ليست متزوجة من الأساس، وقد تكون مجنونة، فمرة قبل سنين كاد أن يحب واحدة، أن يتعلق بها وهي أصغر سنا منه وألطف من هذه التي بدت غريبة الأطوار الآن.. فاكتشف أنها هاربة من المستشفى النفسي لحضور حلقة تدريبية لعدد من الشباب والشابات في الحقل الإعلامي، كان يقدم لهم محاضرة في حين تم التعرف على شخص غريب وسط الحضور، عليه أن يحبه ويهيم به، وأن هذا الشخص بالذات لا يعرف أحد ما الذي زجّ به في القاعة.

كانت أمه تتعامل مع والده بالشكل نفسه، تتعامل كامرأة مطلقة.. كمطلقته التي تقف أمامه الآن وهي تواجهه بحقيقة نفسه.. وإلى سنين لم يكن يعرف أن يصدق أو يكذب ما يتم تناقله بشأن أمه، هل كانت فعلاً كما يقال مطلقة تعيش مع زوجها وترفض مبارحته، وهي شخصيا لا يمكن أن تتكلم عن ذلك، كما أبوه إلى أن ماتا.

سمع المطلقة تكلمه:

"إذا كان الجميع يجهلون من تكون أنت يا سليم عباس، فأنا أعلم من أنت.. أدرك تاريخك الأسود الذي تحاول أن تدسه؟"

يكاد يتربك.. يقول لها بجرأة وهو يتمالك ذاته:

"ليس هذا موضوعنا.. هناك موضوع معين جئنا لأجله"

"أعلم ذلك.. طاردتني سنين لتنال مني مبتغاك تظن أنك شجاع وقادر على مواجهتي واليوم تخاف مني أيها الجبان!!"

كانت تدرك بالفعل من يكون سليم عباس.. لكنها لا تريد أن تناقش معه الماضي، لا تريد أن تنكأ جراح القدر وأناته المزعجة، وهي علي أي حال رغم الانتظار والتوهان أحبته منذ وقت طويل. أحبت ذكائه، كونه غجري بلا وطن مثلها تماما، وما هي الأوطان سوى فقاعات صابونية تطفو على الماء القذر ثم تتلاشى. ثم ضحكت بشدة.. القهقهات ترتفع في سماء الشقة الصغيرة التي قررت أنها مكان اللقاء.

تصرفاتها الغريبة، أطوارها كسيدة لا يمكن التكهن بخطواتها القادمة، ربما دربتها في الحياة كل ذلك جعل الرجل يدخل دوامة من التوجس والارتياب والشك، كأن ثمة خديعة كبرى تحاك ضده وأنه في المكان الخطأ أو ربما جاء في الوقت غير المناسب. ومن ثم كلم نفسه بأنه أخطأ بالفعل وهو يوافق الحضور إلى مكان مغلق مع سيدة لا يعلم من هي بالضبط، سوى أنه مغرم بها، يتصل بها هاتفياً في الرقم نفسه الذي لم يتغير طوال الزمن الماضي، وقد ظلت تراوغه إلى

أن جاءت ساعة إعدامه. هل تنوي أن تتخلص منه بأن تمزقه الآن، تفضحه؟ وكيف تدنى أمامها، كيف تنازل عن هويته والتزامه؟..

طوال تاريخ طويل، كان محاطاً بالمعجبات دون أن يرتكب خطيئة، وحتى لو صاحب بنت هوى فهو يعلم أنها سوف تمضي بعد أن تأخذ أجرها ولا تعود تهتم بمن كان معها، وفي الغالب هي غير مشغولة بمن هو الرجل الذي نامت بجواره ليلاً، وهي كذلك لن تتابع الفضائيات العربية ولا تعمل في قصور الحكام لتراه يمارس استشاراته لهم، أبداً أو تدخل البنوك لتعرف أرصدته. أما الآن فهناك خطر أمام هذه المرأة المطلقة، فهو قد استجاب لاستفزازها وهي تتكلم عن تاريخ أسود ومن ثم استجاب لرغبتها الدفينة بأن تمتص قضيبه الذكري، وهو الشيء الذي يحلم به منذ تلك اللحظة الفارقة في حياته.. يوم التقاها في ذلك المؤتمر.

وبدأت تمتص.. كانت هناك كاميرا تصوّر المشهد وهو لا يدري.. هل تعرض للخداع والابتزاز؟.. وكيف فات عليه ذلك وهو المحلل الكبير والمستشار الذي يحسب خطواته بدقة تامة، لماذا أقدم على هذا الفعل الشنيع؟ هل هو حب أم غباء؟ وكاد أن يصرخ.. بل هتف بقوة وهو يمسك بعنقها، بكل ما عنده. ليرى اثنين من الرجال يمسكان به ويزيحانه جانباً، لا يعلم من أين جاءا؟

وارتفع الضحك في المكان.. امرأة عاهرة ومجنونة. لا يمكن أن يوصفها بغير ذلك واثنين من الرجال المخصيين على ما يبدو، واحد منهم يبدو مثل كافور الأخشيدي زنجي أسود ولئيم لا يحفظ الود، ويرقص ثلاثتهم وهم مخدرين تماما، كيف فات عليه اكتشاف ذلك، يبدون كالسكارى أو مدمني الهيروين.. وأسرع لكي يلاحق نفسه بأن يخرج من الشقة، غير أنه لا مهرب، فالأبواب كانت محكمة الإغلاق والرجال يضحكون وهم يستعرضون الشريط أمامه الذي يبدو فيه بفعلته التي سوف تذل شرفه، وابتل جسده بالعرق كأنه يستحم في يوم ساخن جداً.. أخيرا خرج الرجلان عبر باب غرفة داخلية أو ربما اختبئوا في الداخل ليس من دليل، ليسمعها تقترب منه، تحتضنه، وهي تقول له:

"أعرفت الآن كم أنت ذليل وفارغ؟"

وضحكت كثيراً وهي تمسك به لا تريد أن تغادره، وهي تقول له بتكرار:

"كم أحبك لكنني لئيمة لا أرضى بالرجل من أول وهلة"

"ألهذا السبب أنت مطلقة؟"

قال ذلك بعد أن بدأ يمسح عرقه عن وجهه ويتنفس الصعداء. فسمعها ترد عليه:

"أبدا يا غبي.. لست مطلقة أنا عزباء لم أعاقر رجلاً طوال حياتي؟"

من جديد ضحكت تخبره:

"جنون النساء مثلي لا حدود له، ولكن لا تطمع بأن أكون لك إلى الأبد"

وواصلت الضحك في فراغ شبه مكتوم، كانا وحدهما الآن.. ثمة أضواء خافتة في المكان بعد أن خرج الرجلان وأغلقا على ما يبدو الإنارة.. وبدا الرجل الآن غير قادر على فهم ما يدور حقيقة، هل هي مجنونة بجد، أم ماذا يحدث.. كان قد فقد أعصابه واستسلم لنوم عميق بفعل تخدير من حقنة طويلة غرستها في ردفه وهو غير قادر على المقاومة.

●●●

(٣)

ما نجهله. لا نعرفه، أو لا نفهمه، أو لا نقترب منه ربما إلا للحب والتفريغ النفسي. وهذه هي كانت حالة المحلل السياسي سليم عباس، فقد كان يظن أن خبراته في عمله وعلاقاته الواسعة هي منتهى الحال في إدراك شأن كل شيء. وهاهو اليوم يكتشف الجانب الآخر من جهله، كيف أن العالم بات أكثر تعقيداً من اتساعه الشكلي. كيف فات عليه طوال سنوات تعلقه بالعمل السياسي والنضال القديم إلى أن أصبح في موقعه الحالي، ألا يعرف هوية محبوبته المطلقة، هل كانت مثل تلك الجزيرة مختبئة في مكان ما وأطلت اليوم لتصنع قلقه؟ ولماذا أرادت أن تلعب معه هذه اللعبة، تشد الحبل وترخيه وهي تمارس جنونها، نعم هي مجنونة بحق ليس له من تفسير سوى ذلك.

قرأ كثيراً عن تاريخ الجنون، وقرأ ميشيل فوكو في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" وفي فترة ما كان مهتماً بهذا الموضوع كجزء من أمور كثيرة سبق له أن اهتم بها، وهو الآن يقع في ورطة حقيقية بأن تعرّف على هذه السيدة، ولو كان يدري منذ البداية لتوقف. لكن هيهات فهو الآن في عمق اللعبة. وهو لا يدري كذلك الهوية الخفية والداخلية المختبئة لهذه السيدة العجيبة، حتى لو أنها تناقش بعمق وتمتلك معلومات جادة يمكن أن تفيده في عمله.

كان في بيته الذي اشتراه في لندن قبل عدة سنوات بالأحرى حصل عليه من شخصية عربية مرموقة، مقابل صفقة ترويج إعلامية عبر برامج اقتصادية، في تلك الفترة كان قد ابتكر خطاً جديداً في تجربته بأن يدمج بين التحليلات السياسية والاقتصادية وشارك في برامج من هذا النوع وقدّم دورات لعدد من الشباب النابهين من أبناء المشرق المتطلعين لبناء حياتهم ومثلهم الأعلى الأستاذ سليم، كما ينادونه، وهم لا يعلمون إن كان يمتلك شهادة محددة عليا أم لا، ومن أي جامعة تخرج بالضبط. ولا أحد يمتلك الجرأة ليسأله عن ذلك. في هذا الليل المتأخر يبدو البيت أضيق من رحابته يوم دخله لأول مرة، وراحت ذكريات متفاوتة تعشعش في الذهن المتقد لفكرة غير محددة وهو قد تخارج من أسر هذه السيدة المطلقة، وإن لم يكن قد صدقها بعد، كونها غير متزوجة، دائما الاحتمالات مفتوحة والنتائج غير واضحة، وحيث يبقى كل شيء معلقا إلى أن يتم تأكيده، وقد يصعب ذلك تماما.

أمسك بهاتفه المحمول، يرغب في أن يكلمها، يقول لها إنه أحب جنونها، وأن وافق على أن يهدي لها بيته، اللندني. فهو يأتي هنا بعض المرات وربما كثيراً، وليس في حاجة لبيت كبير. يمكن أن يكتفي بشقة صغيرة جدا، أو أن يقيم في فندق، لديه من المال الكثير ولهذا ليس مزعجاً أن دفع في كل مرة لغرف الفنادق ولن يضطر لتقديم المزيد

من الأموال لعاهرات الليل فلديه الآن المحبوبة التي سوف يراها في لندن وغيرها من مدن الدنيا.

سمع صوتها:

"آلو حبيبي.. ما الذي جرى معك هل ما زلت خائفا؟"

"لست خائفا أبدا أنا طرب اليوم.. سعيد أنني عرفتك جيدا"

تضحك يبدو أنها لم تفق من جنونها بعد، ردت عليه:

"أبدا.. أنت هازل..لم تعرفني ولن تعرفني.."

ثم أغلقت الخط.. وهذا أربكه، هل عادت للجنون من جديد، فبعد أن ظن أنه اقترب منها يبتعد. بعد أن عرف أنها الأستاذة الجامعية التي كتبت عشرات الكتب حول الجماعات المتشددة وباسمها المستعار.. بثينة آل موسى، كيف فات عليه أن تلك البثينة هي تلك المطلقة، وكيف فات عليه أنه التقاها في ذلك المؤتمر الذي كان يناقش قضية غير واضحة، "الإعلام والليبرالية في البلدان العربية"، وحيث كانت تجلس بهدوء إلى أن عرفها ففاض الجنون به. وربما بها. وحيث كل شيء مشوش الآن، هل ما زال يعاني الهلوسة وهل ما زال هذا المخدر يعزف في جسده فيرهقه عن التفكير والتذكر بشكل جيد.

هي إذن تعرفه وهو لا يعرفها؟ كان ذلك يرهقه كثيراً، وهي ترن عليه مرة أخرى تقول له عبارة واحدة:

"لا تظن أن التاريخ الأسود سوف يصبح ألمعياً ذات يوم؟"

"تحب انتقاء المفردات هذه المجنونة، تريد أن تجعلني أتكلم بقاموسها المنتقى والغريب.. لن أرد عليها"

حدّث نفسه بالكلام الأخير، كان بين الصحو والمنامات يتجول في أطراف عالم غير مرئي وغير واضح الملامح، كأنه في تلك الجزيرة، أو في كوكب آخر، ومرات في بلده الذي جاء منه منذ سنوات بعيدة ولم يعد إليه أو يتذكره في أي وسيلة إعلامية، هل يخجل منه؟ ليس له من دليل على الخجل، هل يرغب في الانتقام لطفولته وعالمه القديم وتشرده في ملاهي تلك البلاد التي حكمت عليه بالجرح فاستبدل كل ذلك بأن يغفل عنها وإلى الأبد؟ حتى أنه بدل اسمه وجنونه ووثيقة سفره، غسل كل الماضي. ليس له من دليل أيضا، سيظل صاحب تلك الهوية الغامضة، إلا لها هي. لماذا قال ما قال.. لماذا أخبرها بالأسرار التي من المفترض أن تبقى له إلى الأبد، بحيث لا يتذكر الناس سوى رجل يطل على الشاشات.. المحلل، والمستشار العميق.. الذي لا يعرفون عنه أي شيء.. سوى إطلالته. الناس دائما لا ترى سوى اللحظة والنهاية وما سواه ليس مهماً لهم، قد يرغبون في نبش التاريخ، وهذا يحدث ليس بحثاً عن حقيقة التكوين أو ما وقع في الأمس، إنما بهدف تعميق الوهم والأساطير التي تسكن العقول. سر العالم وجماله الخفي في عمقه الثاني وفي جدله الساحر أرض الحقائق المجهولة والبدائل المغلوطة دائما.

لا ينهي تأملاته. يكون قد استغرق في نوم عميق. لم ينم كهذه النومة منذ سنوات طويلة، ولم يستيقظ إلا عصر اليوم التالي قريبا من المغرب، كان قد ضيّع عدة مواعيد وارتباطات، وكان هاتفه قد رن كثيرا منها وقد اتصلت عليه هي بالتحديد لا أحد سواها كان مهتماً حتى لو فات ألف موعد وموعد، ومن ثم كتبت رسالة مقتضبة يكاد يقرأها بصعوبة بين اليقظة والرغبة مجدداً استطالة النوم. رسالة مشوشة.. يستبين كلمات متناثرة منها.. مثل نوراني.. جزيرة.. حلم.. غيب.. ظنون.. آهات.. وداعا..

●●●

ثامناً: قصف جوي

(١)

توجهت الأصابع.. الاتهامات إلى دولة السودان بوصفها مسئولة عن تصدير الإرهابيين.. وقف الرئيس الأمريكي يتحدث في البيت الأبيض.. صدرت الصحف الكبيرة في العالم.. مواقع الإنترنت.. تشير إلى النوراني بوصفه ذلك الرجل الأسمر الذي يتخذ من سواكن شرقي السودان مستقراً له لشن عملياته الإرهابية على الجزيرة.. قال الرئيس الأمريكي:

"التهديد باقٍ ومستمر.. سنكون أكثر تحسباً ولن نتهاون هذه المرة معهم"

أصدر تعليماته بقصف جوي سريع على عدد من المناطق في الشرق السوداني.. بالتركيز على مدينة سواكن الساحلية، التي كان سرجون يحبها جداً ويعتقد أنها عاصمة الجن في العالم.. بل كان يظن أن جده الكبير جاء من جنها الأشاوس.. يوم كان بمقدارهم أن يسيروا في الأرض وقبل أن يعمل سليمان النبي على سجنهم.

"الأمريكيون بارعون في العمل الاستخباراتي"

قال سليمان النوراني لجماعته وهو يتجه للاختباء في القبو تحت الأرض، وراء أنقاض بنايات قديمة من زمن الأتراك في السودان، قبل مائتي سنة كان الجيش العثماني قد دخل هذه الأرض واتخذوا من هذه المدينة عاصمة لهم على بحر القلزم، قادوا منها الجيوش في محاولة لغزو منطقة القرن الأفريقي جيبوتي والصومال وما وراءها، ولتأمين الطريق إلى الحجاز ومكة.

واصل النوراني وهو يصلي خاشعاً لله:

"لكنهم لن يقدروا على اصطيادنا.. فهناك جنود الله تحمينا وهم لا يبصرون.. أسلحتهم سوف تمضي هباءاً منثوراً أمام معجزات خالق السماوات والأرض ورب كل معجزة"

يمضي الليل في غاية البطء، الطائرات الأمريكية تضرب بقوة.. القنابل تتهاوى في مدينة سواكن.. تحيل الخراب إلى خراب.. فالمدينة في أساسها غير معمورة، تبدو كمدينة للشياطين والمردة.. من ينظر إليها بدقة من علٍ لن يرى ما يدل على الحياة.. ليس إلا صورة الموت الأزلي الذي غمرها منذ آلاف السنين.. وقد انتفضت ثم ماتت من جديد.. يتوارثون إنها لعنة سليمان النبي الذي قرر أن يسجن فيها قادة الجن في العالم انتقاماً منهم أولئك الذين يمكن أن يخرقوا النواميس ويفسدون العالم.

تبتعد سواكن أو سواجن، ليس كثيراً عن جزيرة القلزم، ومن هناك يمكن الحركة بسرعة للقوارب السريعة أو اللنشات التي يديرها النوراني وقومه، كما تشير ملفات الاستخبارات الأمريكية.. ملفات لا يعرف تاريخها بالضبط متى جمعت وصيغت.. وفي المقابل كيف فات عليهم إمكانية تنفيذ عمل إرهابي ضد القوات الأمريكية في الجزيرة.. التقدير الوحيد وفق ما ورد في التقرير أمام الرئيس الأمريكي الذي قرأه أكثر من مرة وهو يشاهد صوراً ملتقطة بالأقمار الاصطناعية لعمليات القصف..

"... لم يكن ثمة أدلة واضحة أن هؤلاء النورانيين سوف ينفذون أعمالاً إرهابية.. فالرصد الأولي لسليمان النوراني وجماعته يدل على أنهم أناس متسامحون لا يهتمون بسوى انتظار ما يسمونه المشيئة الإلهية في انتظار الوحش.."

لم يكن ذلك مقنعاً للرئيس، أصدر أوامر بتغييرات سريعة في القيادات الاستخباراتية العليا.. شكّ أن مؤامرة ما تحاك ضد الأمن القومي الأمريكي.. لا يمكن تفسير ذلك العبث الذي حصل.. الجندي الأمريكي ليس مهزلة لتضيع حياته في أقل من ثوان..

كان قد استمع لكبير رجال الاستخبارات ولم يكن رده مقنعاً:

"سيدي الرئيس نعم كان لدينا معلومات دقيقة عن القوارب وعددها.. لكن لم يحدث أن استخدمت ذات يوم لأعمال سيئة، كانوا يخرجون للبحر للصيد أو جمع المرجان ليس إلا.."

أضاف يبرر أكثر:

"سيدي الرئيس كما أكدنا لكم في التقرير لا دليل على أي عمل إرهابي.. ونؤكد لكم أكثر أن القوارب التي ضربت الجزيرة لم يكن يقودها بشر"

يصمت الرئيس.. ثم يسأل:

"كيف يحدث ذلك؟.. هل كانت تقودها كائنات فضائية؟"

يقولها بسخرية، ثم ينظر إلى ملفات متراكمة أمامه، حول أمور غامضة حدثت من قبل تشير لها الاستخبارات لكنها لم تتكرر ليكون ممكناً الاستناد عليها كأدلة عملية على أن هناك عوالم أخرى داخل عالمنا البشري المرئي، كائنات يمكن أن تشارك الإنسان الحياة أو الوجود وتقوم بأعمال إرهابية أو تصنع السلم، وفق ما جاء في تقرير قديم أكد أن مجهولين أنقذوا عشرات الضحايا في إعصار كاترينا الذي ضرب الولايات المتحدة، ولا يوجد توصيف لهم سوى أنهم أشباح ظهرت ثم اختفت.

الرئيس لا يؤمن بهذه الأشياء.. غير أن أمرها يقلقه.. خاصة في حادثة القلزم، فالتقارير الجلية أن القوارب قد خرجت من الجزيرة وصورٌ أخذت لاحقاً من كاميرات تسجيلية بالأقمار الاصطناعية تشير إلى أن لا أحد كان في القوارب.. كانت تنطلق بنفسها وبسرعة هائلة.. يمكن رؤية أفواه بنادق أو بنادق مكتملة محمولة في الهواء، توجه ضرباتها ومن ثم عادت القوارب حيث وقفت في محطتها على شاطئ مدينة سواجن.

النوراني داخل قبوه.. يقول لأعوانه:

"اللّه سوف ينقذنا.. مثلما قاد جنوده من الجن القوارب فسوف يقودوننا إلى بر السلامة"

كان يقول ذلك دون تأكيد واضح منه أن القوارب قد قادها الجن الذين يعيشون في المدينة ويمكن رؤية بعضهم أحيانا.. يقولون ذلك. النوارني نفسه يؤمن بهم غير أنه لم ير أحدهم من قبل، لكنه لا يقول ذلك إذا سئل عنهم قال:

"إنهم موجودون يمكن رؤيتهم للأصفياء"

ثم يصمت، لا يزيد الأمر إلا غموضاً. يظل في صلواته وابتهالاته تحسباً من القصف ومن أمر الوحش الذي لا شك خارج إلى البرية لكي يقلق حياة الناس.. ثم يصرخ:

"واشوقاه إلى الوحش"

ذلك الشوق الذي يظن أنه سوف يحرره من كل الألم الذي عاناه طوال حياته الماضية وهو في الأربعين من عمره.. يتيماً بلا أب ولا أم.. سوف يصحب الوحش ويسير معه في كل البلدان.. وسوف يعلم الوحش بأن النوراني ليس من أتباعه لكنه لن يقاومه أو يقتله، لأن الوحش ينفذ إرادة المولى حتى لو أن كان يدعو إلى ضلال الناس.

كان يدير هذه الصور الملتبسة والغامضة في ذهنه، بحيث يصعب معرفة ما هي صورته الحقيقية عن الوحش وأمر الجزيرة التي طالما انتظرها كما يقول لاتباعه وكما يصدقونه دون أن يغالطوه أو يتطاولوا عليه، فالنوراني لا ينطق عن الهوى، إنه رسول المشيئة الربانية والرجل الصالح الذي معه يظهر الله غيبه ومعجزاته في نهاية العالم المنتظرة. وبعضهم يعتقد حتى لو أن النوراني نفسه لم يصرح بذلك، أن نهاية الوحش سوف تكون على يده، سوف يقتله بسيفه وصولجانه، حيث سيأتي يوم تسكت فيه البنادق وتتعطل كل الأسلحة النارية الحديثة.

●●●

(٢)

ورد في المرويات القديمة أن سواجن كانت خالية من السكان وكانت أقرب لجزيرة في البحر الأحمر إلى أن انفصلت لتكون أرض على اليابسة تجاور البحر، ولم يكن يسكنها سوى الجن، إلى أن أهدى أحد ملوك أثيوبيا، الحبشة، سبعين جارية إلى نبي الله سليمان بن داود، حيث أرسلن إلى بيت المقدس، أورشليم، فأبحرت بهن سفن شراعية من مدينة مصوع الساحلية حتى ألقت مرساها في سواكن، واستطابت الإقامة فيها، وهنا واطأ السواكنيون أو الجن، أولئك الجواري لما هبطن إلى ساحل الجزيرة البري، ثم أقلعن بهن السفن إلى ميناء العقبة، وهبطن منها وسرن إلى القدس، ثم ظهرت عليهن آثار الحمل، وبعد التحقيق مع رؤساء السفن، أقروا بأن إقامتهم بسواكن كانت طويلة جداً وأن كل الذي حدث كان من السواكنيين، فأمرهم سليمان عليه السلام بردهن إلى سواكن حيث يجب أن تكون إقامتهن بها نهائياً، فأندمجن وذريتهن في أهل الجزيرة وأمر بأن تتخذ جزيرة سواكن سجناً للمجرمين، كما اتخذ الأمويون جزيرة دهلك أيضا منفى لمن تحدث منه أضرار للمسلمين أو يثور على حكومتهم[٥].

٥- ص ٢٤ – ٢٥، محمد صالح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، طبعة ١٩٩١م.

مثل هذه القصص وغيرها كثيراً ما سمعها النوراني وعاشها على كونها حقيقة، وقد أقام دعوته على ذلك التحالف الخفي بين عالمي الجن والأنس حتى لو أنه لم ير هؤلاء الكائنات آملاً أنه سوف يجتمع بهم ذات يوم، ولهذا كان قد اتخذ من سواكن عاصمة له يخرج منها إلى العالم وينشر دعوته المبشرة باقتراب خروج الوحش، وكان لظهور جزيرة القلزم تعضيداً لما كان قد بدأه من خبر آخر الزمان، لاسيما أن نبأ القلزميين كان بالنسبة له مفرحاً، فربما كان هؤلاء القوم هم الجن الموعودون، إذ ليس ثمة دليل، لكن على ما يبدو أنهم من نسل الجن، وتلك الجواري القديمة التي جاءت من الحبشة.

في ليلة القصف الجوي كان سليمان يفكر في الطريق الذي قطعه في الحياة، إلى أن وصل إلى هذا اليوم بحيث اقترب من تحقيق أمنياته حتى لو أنه يواجه الموت، لقد استطاع أن يجمع حوله أولاً زمرة من الأتباع والمؤيدين، ثم أنه أقنعهم بأمر الوحش وكان ظهور الجزيرة تصديقاً لما أورده لهم من نبوءات، فالمعروف في التراث الديني أن الدجال أو الوحش يخرج من جزيرة في عمق البحر لكن للمسألة سر آخر يدركه هو وحده، لهذا كرر النوراني لأتباعه:

"خروج القلزم خير دليل على أمر الوحش"

وأردف يقول لهم:

"أبشروا بأن الموعد قد دنا.. هيا لنصلي للّه ونكثر الدعاء حتى يهيئ لنا الرشد، ويرانا الدجال بعين ونراه بعين أخرى.. فنخرج من فتنته"

في تلك الليلة، كانت الرأس قد اشتعلت بالأحاديث والذكريات، منذ أن كان الوحش الصغير.. النوراني صبياً يتقلب في الأرض البعيدة بجوار النهر، وهو لا يعلم شيئا عن مستقبله، يخال أنه سيكون له مجد ذات يوم وهو لا يعلم عنه، يرى أبناء الشيوخ والسادة وهو ابن من لا مجد لهم. كان مميزاً في العلوم والدرس ودرس بأرقى جامعات البلاد في الخرطوم وسافر إلى السوربون في باريس حيث أجاد اللغة الفرنسية وتعلم الفلسفة والمنطق الحديث، وتعرف على أشهر فلاسفة الفرانكفونية، ثم عاد إلى بلاده لينقطع للعبادة مع شيخ من شيوخ شرق السودان كما يفعل الكثيرون من أبناء هذا البلد دون أن يدرس أحد هذه الظاهرة ما الذي يصيبهم بعد أن يصبحوا علماء ومتفقهين في العلوم العصرية يأتون إلى تلك الخلاوي المنقطة عن الديار ليسلكوا درب النسّاك، وأثر النوراني في عزلته مع شيخه الابتعاد عن الحروب التي غطت البلاد في كل الاتجاهات، الموت والدمار والجوع.. وكان يقضي وقته في العبادة والصلاة إلى أن أخبره الشيخ الأكبر الذي يسمونه بالختم، بالوصية وأسلمه مخطوطة قديمة باسم "الوحش" أن

يلقي لها بالاً ففيها من نبأ الجزيرة الذي سوف تظهر ذات يوم، قد يكون ذلك اليوم قريب جدا وقد لا يكون. وقد تكون تلك الجزيرة ببحر القلزم قريبا من هنا وقد لا يكون. لم يعطه الختم أي تأكيدات ولا أدلة على أي شيء، وعلمه أن الغيب هو أمر إلهي بحت وأن الإنسان عليه أن يخطط ويجتهد وينتظر. مات الختم وبقي النوراني ينتظر الموعد، ثم خرج بجماعته إلى بر الشرق إلى سواكن، حيث كان يقتات وجماعته على الأسماك ولم يكن له من نية في أي أمر دنيوي سوى انتظار يوم الخروج.

الآن يعيش تلك التحولات، كيف أن البدايات سهلة والنهايات عسيرة.. المجد لا يكون مرة واحدة. وهو شخصياً لم يحلم بالمجد ذات يوم.. أبدا .. لم يكن سوى ذلك الرجل الذي هجر الدنيا والفلسفة والعلم وبقي شأنه مع أمر الله والنسك والملكوت، فكيف تغير القلب، لكن هل حقيقة أنه قد تغير فقد أوصاه شيخ الختم قبل موته قائلا:

"اعلم أن قلب المؤمن العارف لا يضل يا نوراني"

"ولكن كيف استهدي إلى أنني أصبحت من العارفين"

"أنت منهم قبل أن تولد يا ولدي.. أنت منهم"

كررها ثم أسلم روحه للبارئ، في حين كانت النساء يولولن لغياب الشيخ، وكان على النوراني أن يجهز أمر الدفن وبناء قبة الشيخ

المزخرفة بالألوان الخضراء والحمراء التي أوصى بها. كل ذلك يذهب الآن ويجيء مع صوت الموت، مع النار التي تعمّ المكان، حتى ليخال المرء أنه يوم القيامة، ثم رن هاتفه النقال، فداس عليه، ليسمع من يحدثه باللغة الإنجليزية التي يجيدها كما الفرنسية والألمانية.. لم يكن رقماً معروفاً له، وقلبه حدثه بأن يرد..

"نعم.. من معي؟"

هل أخطأ بأن رد على هذا المجهول، يبدو أنهم يراقبونه إذا سوف يقبضون عليه وجماعته ويرسلونهم إلى أحد سجون الإمبريالية في البحار البعيدة، ثم ربما يحاكم أو يموت في السجن.. يسمع محدثه من الطرف الآخر يخبره:

"هل استسلمت يا نوراني، لا مناص لك اليوم إلا أن تستسلم لهم؟"

لم يكن الصوت الأول الذي تحدث بالإنجليزية.. إنه صوت عربي، بل لهجته سودانية واضحة.. هل يتكلم، يرد أم يصمت.. ثم قرر أن يسكت، أغلق الهاتف وسط حيرة حيرانه وأتباعه المحيطون به وهم لا يعلمون ما الذي يجري بالضبط.

●●●

(٣)

عندما شاهد الشيخ براد الرومي صورة النوراني على شاشة قناة الجزيرة الفضائية، أصابته رجفة غير عادية، فهو يعرف الرجل وإن كان بشكل عابر، وقد شكّ لوهلة هل أنه ذلك الذي تعرف عليه مرة أم لا. كانا قد تقابلا في مدينة بورتسودان الساحلية، ميناء السودان، حيث ذهب الشيخ لتقديم عدد من المحاضرات ضمن مهرجان سياحي يقام هناك، بحضور رئيس الجمهورية، ويتذكر الرومي كيف أنه برع في عمله وأن الجمهور السوداني تعامل معه بلطف، فالسودانيون ودودون جداً في استقبال الغرباء ولا يعرف إن كان ذلك يتعلق به وحده أم أنه حالة عامة. وهذا لا يشغله الآن، فما يدور بذهنه، صورة الشاب الذي كان يجلس في مقدمة الصفوف بجوار الشيخ الختم، ذلك الذي يجد التقدير المبجل من الكل بما فيهم الرئيس، وكان الجمهور قد أقبل عليه يقبل قدميه ورأسه وهو يمشي محاطاً بالمئات الساجدين من حوله، في حين كان حراس الرئيس يزيحون البشر ذات اليمين واليسار بلا هوادة.

في الحوار الجانبي الذي دار بينهما في مكان الاحتفال داخل استاد كرة قدم بالمدينة ومن ثم أكملاه في الفندق القديم الذي أقاما فيه معا في غرفتين متجاورتين، كان النوراني يبدو رجلاً متعلماً

وعصرياً، لا يبدو أنه سيكون إرهابياً ذات يوم يقتل هؤلاء القلزامة المساكين، كان الشيخ مشغولاً بذلك، وكاد أن يفتح الموضوع مع حليمة لكنه لا يريد أن يقلقها بأنه يعرف الرجل المتهم بقتل الأمريكيين وهذا قد يشكل إزعاجاً لها، فهي تخاف من سيرة الناس الذين يقتلون الآخرين، وتقول له دائما وهي تداعبه:

"أنت شيخ عصري.. ليت كل الشيوخ مثلك"

تمارس غنجها في حين يضربها هو على كتفها ويأخذ قبلة سريعة منها حتى يلحق ببرنامجه التلفزيوني، بل بفاتنته الأخرى العنيدة، الزوجة الرابعة لو أن اللّه قد قدر ذلك وكتبه في المقادير.

ولم يتمالك نفسه حيث وجد نفسه يتكلم بصوت مرتفع:

"معقولة أيها النوراني؟"

"أأنت تعرفه؟"

كانت متربصة به تسمع كل شيء بدقة.

"ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"

تذكر الآية سمعته يتلوها بصوته الأجش، فقالت له:

"يا أبومروان قل لي ماذا عن هذا المجرم؟"

"استغفر اللّه لا نعرف عنه شيئا"

ثم تستمر في الإلحاح كعادتها لا تسكت إلا تنال مبتغاها.. وفي النهاية أخبرها بأنه عرف الرجل مرة في رحلته للسودان..

"إذن أنت تعرف أين هو بالضبط، وما هي جنسيته؟"

"يا حرمة لا تحققي معي؟ مجرد لقاء عابر وانتهى"

كعادتها سوف تتأخر في النوم ساعة تقلق بأمر ما، بل ستنام بعدها ليطاردها هذا القلق في أحلام متداخلة، وهذه الليلة لن تكون هادئة، سوف تطاردها مشاهد لذلك الرجل الذي أطل في شاشة التلفزيون يتكلم عن عملية ناجحة في قتل الكفرة. خافت أن يكون أبو مروان جزءاً من هذه المؤامرة، تعرف أنه بريء، ولكن الناس باتت تلفق كل شيء في هذا الزمن العجيب، وهذا ما يجعلها خائفة جدا. واستيقظت في ساعة متأخرة لترى إن كان زوجها ينام بجوارها أم لا، فلم تجده فاضطربت جداً، ولم يدر ببالها أنه في الغرفة الأخرى عاكف على تدبيج مقال جديد يرسله لتلك الصحيفة اللندنية حول استقراءاته بشأن ما حدث في الجزيرة، إذ يجب عليه أن يواكب الراهن، فالناس تريد أن تعرف رأيه الشخصي فيما جرى وما يتوقعه من أمر، تريد استقراء وفتاوي وترغب فيها منه هو لا غير. وهذه ضريبة أن تكون شيخاً لك جمهور عريض.

انتبه إلى أن هناك من يقف أمامه، وقد ظهر الظل أولاً، فإذا بها حليمة، فما الذي أيقظها وقد نامت قبل قليل، فهو يعرف ميقاتها في أيام القلق، ورأى أن يبادر لكي يحملها بجسدها الخفيف إلى الأريكة ليخرس قلقها، فهي بمجرد أن يمتطيها مثل فرسة صغيرة تكون قد سكتت تماما وشرعت في النوم قليلا ومن ثم قد يحملها لتواصل نومها على السرير في الغرفة، أما الزوجتان الأخريان فهما الآن تضرطان ولا أمر يهمها. وفي الوقت الذي أخذها جانبا، رآها قد مالت عنه، وهي تشير بعلامة بأصبعها فهمها مباشرةً، إنها تعيش الآن بداية الدورة الشهرية، المحيض ذلك الأذى. وعليه ألا يقترب منها. وفي مقابل ذلك ماذا سيفعل إن كان قد جهز عدته وعتاده لمعركة صغيرة.

ولما لم يقدر على مقاومة آفته، وكانت هي الأخرى تعبة جدا من القلق الكثيف، فقد قبض عليها وهزها ثم رمى بها على الأريكة وأنهال عليها بالقبلات وهي ترى عينه العوراء فتكاد تضحك لشكله، ثم تتذكر أنه في النهاية رجل جميل، فقلبه يعرف كيف يداعب الأنثى ويجعلها تعيش معه علاقة حميمية ورائعة، ولم يخلع ملابسها حتى لا يبلله الدم، ظل يحتك بها يمينا ويسارا ومن فوق وتحت حتى أرهق ماء الحياة الذي تدفق دون أن يكون قادرا على منحه الذرية، وهو الأمر الذي طالما أغضبه وجعله يشعر بالنقص غير أنه يتقاضاه ثم يعوّض عن ذلك ببرامجه التلفزيونية وشهرته التي تضرب الآفاق ومن ثم بلياليه مع نسائه الساحرات، ولو جاءت رابعتهن فما أحلاها من ليال.

أخذ دشاً ساخناً، فطالما يفضل المياه الساخنة حتى لو أن الجو لم يكن بارداً، كانت هي قد عادت للنوم وغرقت في أحلام جديدة تلاشت فيها صور النوراني وقلق الخوف من تورط زوجها معه بأي فعل كان. ومن ثم كان الرومي قد عاد للجلوس في مكتبه يفكر في ماذا سيكتب هذه المرة، فالمبررات التي صاغها النوراني ضئيلة وليست مقنعة، وهو لا يريد أن يدافع عن إرهابي قطعا ليس لكي لا يغضب السلطة بل لأنه يصنف نفسه شيخ متفتح حتى لو أن ذلك التفتح جاء تدريجياً مع الزمن. كان يشعر بأمر غامض في جوفه أن هذا الرجل لو كان ذلك الذي التقاه يومذاك فلا يمكن أن يكون قاتلاً ولا يمكن أن يفكر بهذا الشكل القذر. وأخيرا كتب ما يمكن لأي شخص أن يكتبه في مثل هذه الموقف. الإدانة وتجديد الدعوة إلى الحب والسلام بين البشر وما يشبههم من كائنات حتى مع النباتات والطيور، التسامح هو الذي يصنع الحب بين العالمين. ولم يشر في مقاله أبدا لسليمان النوراني، كان قلبه يحدثه بألا يأتي على ذكره. وفي مرات يكون له أن يتبع القلب لينجو من مخاطر لا يعلم ما هي، إلا في الوقت المناسب. وقد لا يعلم مطلقا، حيث لا قاعدة.

كان بوده في البدء أن يكمل ما بدأ في المرة السابقة حول إنسان الماء وقصة جابر بن حيان، وتذكر بعد أن أرسل المقال على البريد الإلكتروني أنه لم يقدم اعتذاراً للقراء حول ما سبق أن وعدهم به،

ولذا أرفق رسالة توضيحية للمحرر المسئول عن صفحة الرأي يخبره بأن يضيف الاعتذار، حتى لو كان لديه يقين أن الناس عموماً باتت سريعة النسيان، لا يتذكرون حتى وجوههم كيف تكون، فماذا يعني بالنسبة لهم مقال عابر؟.. لكن ثمة من يراقبون وينقبون ولا يتركون الرحمة تسود، كتلك الفاتنة العنيدة، فهي تعرف كيف تبتكر الأسئلة من التناقضات لتصنع أهوال البشر بدلاً من جعل الناس يعيشون السعادة، ربما كان ذلك طابع مهنتها، ولهذا السبب بالذات فهو يرغب فيها أن يضعها تحته ويدوس عليها بقوة يرهقها، فيهلك العناد ويحوّله بين يديه وهي في حضنه إلى مرونة وليونة، لتصبح هي دميته التي يتصرف فيها كيفما شاء.. ولكن إلى الآن يبدو الأمر هيهات.. وفي المقابل لا يأس، كان مقتنعاً بذلك.

●●●

تاسعاً: ظهور الوحش
(١)

تحدى رجل الأعمال الأمريكي مالكوم بارك العصابة ولم يوقف النشر عن القلزم، بل قرر أن يزور الجزيرة في واحدة من أكثر الأحداث إثارة، ذلك الحدث الذي نقلته أجهزة التلفزيون مباشرة. كان يعلم أنه يكايد هؤلاء الملثمون الذين هددوه ومضوا، وكان لديه نظرية تقول بأن القوة في أن تقاوم وبعنف وألا تستلم، لأن الجبناء يخافون دائما، أما الشجعان فسوف يكشفون عن هويتهم ويقررون الجلوس معك على طاولة واحدة لو أن لهم هدف حقيقي أو غاية يرغبون في الوصول إليها.

التقطت الصور لمالكوم وهو يقف بجوار القلزميين الذين ابتسموا وضحكوا لعدسات الكاميرات المحيطة بهم ويبدو أنهم قد نسوا الألم أو لم يعيشوه أساسا، عندما مات العشرات منهم، أو لكأن قاموسهم اللغوي إن وجد يفتقد لكلمات مثل حزن وبكاء.. حتى لو أن مظهرهم الأولي كان يدل على الأسى، ويبدو أكثر أنهم يتغيرون مع الأيام.. وما زالت نتائج البحوث لم تقرر ماذا في حقيقتهم، ولم يكن ذلك ليشغل ذهن رجل الأعمال الذي ظهر كذلك وهو يصافح القائد الكولونيل باركر الذي فهم أن هذه الزيارة لها ما وراءها، خاصة أنها جاءت بعد مقتل الجنود، فهل تريد السلطة في أمريكا وهو يعلم أنها متضامنة مع

رجال الأعمال والعكس صحيح، أن تقدم دعماً معنوياً للجنود، ولماذا لم يقم الرئيس نفسه بهذه الزيارة إذن لكان وقعها أقوى؟! وحيث يمكن للتوقعات أن تمتد بلا نهاية، فقد كان غرض مالكوم سري لم يفصح عنه، وصرّح أمام الكاميرات:

"ثمة فرص كبيرة للاستثمار في القلزم.. خاصة بعد أن أثبتت مسوحات استكشافية أولية أن الجزيرة يمكن أن تصلح لأغراض عديدة"

استطرد يوضح لواحد من الصحفيين الذين صحبوه في الجولة:

"نركز على الإمكانيات السياحية.. يمكن القول إنني أفكر في بناء منتجع كبير هنا. الأمر يتوقف على هدوء الأوضاع والجيش قادر على ذلك"

وسمع سؤالاً من الصحفي نفسه:

"ولكن كيف بشأن المسائل القانونية وملكية الأراضي في الجزيرة؟"

"ليس ثمة مشكلة كل شيء يمكن بحثه وخاضع للتفاوض"

في الواقع كان أمر الملكية معقداً، فحسب القوانين الدولية لا يوجد تعريف واضح إلى يوم زيارة مالكوم، لوضع الجزيرة في الخرائط السياسية بالتحديد.. لأن الجغرافية في عالم اليوم هي

صنعة سياسية بحتة ليس للأمر علاقة بخطوط الطول والعرض، وبهذا المعنى واستناداً إلى الاتفاقات مع الروس وحلفائهم والأقمار الاصطناعية الأمريكية التي كانت أول الراصدين فالقلزم هي ولاية أمريكية. كان الرجل يفكر بذلك، وفي ذهنه فكرة معينة أن التصريحات تصبح بعد بضع من الزمن حقيقة ماثلة يكون على السياسيين التعامل معها خصيصا إذا جاءت من رجال الأعمال الذين يقررون قبل أي سياسي وفي النهاية فإن ما يشيرون إليه هو ما يحدث في الغالب، بل دائما. لكن هذه النظرة ساذجة في بعض المرات. ليس لأن تحالف المال والسلطة السياسية قد انتهى، بل لأن حقيقة العالم والنفوذ أكثر تعقيدا مما يشاع، ثمة عصابات خفية وصفقات سرية وحكايات لا يمكن لأحد أن يفهمها إلا أن يكون جزءاً منها وربما لا يفهم مطلقا. إن هذا العالم المعقد يشبه البحث عن فلسفة المعنى في حقيقة العالم.

ما بين الأفكار في عقلية مالكوم التي تمزج الاقتصاد بالسياسة بالفكر الفلسفي، وذهن الصحفي الذي يبحث عن تمجيد ذاتي وإعلانات لصحيفته الورقية التي تنهار، أمام مد الصحافة الإلكترونية، كان مالكوم ينهي مؤتمره الصحفي في الجزيرة قبل أن يظهر بالصورة الأشهر وهو يصعد على المروحية التي حملته إلى مكان مجهول لم يصرح به، ومنها لأمريكا.

بمجرد عودته إلى نيويورك ودخوله مكتبه سمع أصوات غريبة، رصاص في المكان، سقط صريعاً على الأرض. ليفهم في اللحظة الأخيرة أن التحدي لا معنى له وأن أوهام التحالفات ليس لها أي مغزى أمام عالم معقد بالفعل كما كان يكلم نفسه في القلزم. فمرات يظن الإنسان أنه الأقوى أو القادر على الهيمنة وبسط النفوذ ويكتشف في اللحظة الحاسمة أن ذلك لم يكن إلا مجرد خيال، لأن الواقع شيء آخر تماما، لا أحد يمكنه القبض على الحقائق المجردة ليعرف كيف بإمكانه وحيداً أن يسيّر العالم إلى الدفة التي يرغبها. كان صوت الرصاص القوي قد صمّ أذنيه أولا ومن ثم رأى أناس يتحركون ببطء كالسلاحف في حين ظهر رجل مثل شبح ناري يتقدم في الظلام الذي غطى المبنى فجأة رغم أن الوقت منتصف النهار، فقد قطع التيار الكهربائي. ويخال له وليس متأكداً أن آخر ما رأته عينه هي صورة لواحد من سكان جزيرة القلزم، وهو يحمل بندقية رشاش.. أو مسدس.. المهم أنه سلاح بيده.

ساد الحزن من جديد البيت الأبيض، دون أن يتم الإعلان رسمياً عن ذلك، وصرّح الرئيس الأمريكي بشكل مقتضب:

"ليس ثمة صلة لما حدث بزيارة مالكوم إلى جزيرة القلزم"

كان يريد أن يقطع الشك بخصوص بعض ما تداول من أخبار أن

اغتيال مالكوم تم بواسطة الإرهابيين الذين لا يريدون لأحد أن يتخذ موضعا في جزيرة وحشهم المقبل لا ريب كما يؤكدون. ونطق الرئيس بكلمة "مونستر" Monster يريد بها تفسيرا لكلمة وحش العربية، كان قد بدا قلقاً كما قال عدد من المحللين في الشاشات دون أن يكون بينهم سليم عباس الذي كان قد غاب عن التلفاز لأكثر من أسبوعين.. مع الغموض الذي أحاط بالموت البطيء لبثينة آل موسى.. دون أن تثبت التحقيقات هل ماتت منتحرة أم قتلت.. في حين كان المتهم الأول هو المحلل السياسي.

●●●

(٢)

كان الوحش قد بدأ عمله فعلياً دون أن يكون ثمة أحد قد انتبه لذلك، فعمليات القتل التي تمت في جزيرة القلزم ابتداء من رصاصة الموت في قلب باترس، والتهديدات التي تعرض لها مالكوم واغتيال بثينة آل عيسى وقبلها الاتصالات الغامضة التي وصلت إلى سليمان النوراني وغيرها من الأحداث القادمة كل ذلك كان موقعاً ببصمة غامضة ونادرة في تاريخ الأرض. كان الوحش يترك علامة لا يعرفها إلا قلة من البشر، أو سيعرفونها لاحقاً عبارة عن وشمه المقدس الذي عرف به منذ أزله القديم يوم قيد إلى الجزيرة مسجوناً. وحيث يمكن للخرافة أن تطل حقيقة حتى لو كذبها البعض، وساعة يكون لعصر العلم أن يختلط بالأساطير ويصعب معها التأكد صعبا.

"...يخرج الدجال في غفلة من الدين وإدبار العلم، أي قلة من أهله، وله أربعون ليلة يسيحها في الأرض، اليوم منها كالسنة، واليوم منها كالشهر، واليوم منها كالجمعة، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه.. وله حمار عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً، فيقول للناس: أنا ربكم وهو أعور، وإن ربكم ليس بأعور.. مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب، يَرِدُ كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة حرمهما الله تعالى عليه، وقامت الملائكة بأبوابهما، ومعه جبال من خبز والناس

في جهد إلا من اتبعه، ومعه نهران - أنا أعلم بهما- منه نهر يقول له: الجنة، ونهر يقول له: النار، فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهي النار، ومن أدخل الذي يسميه النار فهي الجنة، قال وتبعث معه شياطين تكلم الناس ومعه فتنة عظيمة يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس ويقتل نفسا ثم يحييها فيما يرى الناس فيقول للناس:

أيها الناس هل يفعل مثل هذا إلا الرب؟

فيفر الناس إلى جبل الدخان وهو بالشام، فيأتيهم فيحاصرهم فيشتد حصارهم، ويجهدهم جهداً شديداً.."[٦]

●●●

٦ - حديث نبوي، أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن جابر بن عبد الله.

(٣)

"... سمعت من يحدثني؛ أنه ركب في سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام (من قبائل اليمن التي نزحت بعد خراب سد مأرب). فلعب بهم الموج شهرا في البحر. ثم أرفأوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس. فجلسوا في أقرُب السفينة (أي قواربها)، فدخلوا الجزيرة. فلقيتهم دابة أهلب (غليطة الشعر) كثير الشعر. لا يدرون ما قبله من دبره. من كثرة الشعر.

فقالوا: ويلك ما أنت؟

فقالت: أنا الجساسة.

قالوا: وما الجساسة؟

قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير. فإنه إلى خبركم بالأشواق.

قال: لما سمت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانة.

قال: فانطلقنا سراعاً، حتى دخلنا الدير.

فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً. وأشده وثاقاً. مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه، بالحديد.

قلنا: ويلك ما أنت؟

قال: قد قدرتم على خبري. فأخبروني ما أنتم؟

قالوا: نحن أناس من العرب. ركبنا في سفينة بحرية. فصادفنا البحر حين اغتلم (أي هاج). فلعب بنا الموج شهراً. ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه. فجلسنا في أقربها. فدخلنا الجزيرة. فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر. لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قلنا وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير. فإنه إلى خبركم بالأشواق. فأقبلنا إليك سراعاً. وفزعنا منها. ولم نأمن أن تكون شيطانة.

فقال: أخبروني عن نخل بيسان.

قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟

قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟

قلنا له: نعم.

قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر.

قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية.

قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟

قال: هل فيها ماء؟

قالوا: هي كثيرة الماء.

قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب.

قال: أخبروني عن عين زغر.

قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟

قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟

قلنا له: نعم. هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها.

قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟

قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب.

قال : أقاتله العرب؟

قلنا: نعم.

قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه.

قال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم.

قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه. وإني مخبركم عني. إني أنا المسيح (أي الدجال). وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج. فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة. غير مكة وطيبة. فهما محرمتان علي. كلتاهما. كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحداً منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتا. يصدني عنها. وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.. "[٧]

●●●

٧- عن حديث فاطمة بنت قيس، عن النبي محمد عليه السلام (رواه مسلم).

(٤)

كان تميم الداري هو الذي قاد الرجال إلى الجزيرة، جزيرة القلزم. ليس من شك في ذلك، كان الشيخ براد الرومي قد توصل لهذه النتيجة وهو في حالة قلق شديد، فما ظنه في البدايات مجرد تهويل قد يصير، أو صار حقاً وحيث لا مناجاة اليوم.. كان يفكر كيف سيكون حال العالم وقد ظهرت علامات الوحش، واقترب الحساب. إنه لأمر مقلق بحق. وقد نسي في تلك اللحظات التفكير بالفاتنة التي كانت قد جعلته مقرباً من الفاليوم لعدة أيام وهي التي مانعته وصدته، وهاهي اليوم الأهوال تتضاعف اليوم مع نبأ الوحش المرتقب. وحيث تخيل أن الفضائيات سوف تذيع الخبر والصحف تنقله والكل متربص ومتخوف ماذا سيفعل أمام هذا الجبار القوي، الإله الذي سوف يفسد حياة الناس. هل كان النوراني على حق إذن؟ وهل كان لديه علم من الكتاب؟

كان الشيخ أبو مروان يفكر بذلك، وهو يتمشى في غرفته الكبيرة بالبيت جيئة وذهاباً في حين كنّ نسوته الثلاث يشاهدن فيلما تلفزيونيا يصوّر مخلوقات فضائية تهبط على الأرض، فقال لهن:

"يا نسوة لقد هبطت منذ زمن وأنت تعبثن.. أما لديكن خوف من الوحش المقبل؟"

ضحكت حليمة وردت عليه دونهن:

"الوحش لن يختبر النساء.. شغله معكم أنتم الرجال؟"

ثم قالت بعد صمت:

"هل صدقت هذا المعتوه صاحبك النوراني؟"

ثم سرحت تواصل مشاهدة الفيلم غير مهتمة بأمر الزوج الخائف من شيء ما هو نفسه ليس بإمكانه أن يحدده، ما هو. في حين استمر الشيخ في تدبير أمر ما يحدث في العالم، ما بين رغبته في الاستزادة من العلم وخوفه من الغد غير البيّن، فكّر أن كتب الأثر لم تحدد مكان الجزيرة، الواضح أنها هي.. هي القلزم.. لا غيرها.. ويبدو أن هبوب الرياح والعواصف وتوهان الرجال في البحر حال دون أن يعلموا بموقع الجزيرة ليحددوه لنا وربما أرادوا أن يخفوه.

ورأى نفسه كما لو أنه صحب تميم الداري في تلك الرحلة الغريبة والمجهولة، وحيث اقتربوا من الجزيرة ورءوا الوحش بأعينهم، ووقف الشيخ الرومي أمامه يسلم عليه، يعاين إلى الأعور، غير أن عوره ليس كعور البشر.. هل هو ليس آدمي، هل هو من هؤلاء القلزميين مثلا. ومضى في تخيلاته غير قادر على الإمساك بنهاية لها إلى أن سمع صوت حليمة تصرخ فيه بأن ينهض لأن عليه أمور يجب القيام بها. كانت دقيقة في تنظيم مواعيده إن أخطا فيها، بخلاف بقية الزوجات

اللائي لا هم لهن سوى التلفزيون والأكل وقد ترهلت أجسادهن في حين أن حليمة تبدو رشيقة وأنيقة لهذا يحبها الشيخ كثيراً. حتى لو أنه فكّر في غيرها.

عندما وصل مبنى الفضائية في البرج العالي، وصعد بالمصعد إلى الطابق العاشر، لم يكن في ذهنه أن ثمة حدثاً خطيراً يجري في العالم. لم يكن يتوقع أن الوحش الذي كان يخافه قد خرج فعليا إلى الناس ليرهبهم ويقلق مضاجعهم. وأن شاشات التلفزة قد بدأت في بث خبره وأمره. فما أن فتح المصعد وجد عدداً من مذيعي الفضائية والمخرجين والمنتجين وغيرهم وهم في غاية الهلع والخوف يتراقصون من الرعب، وقد تماسك أول الأمر ثم لم يجد بداً من التراقص مثلهم فيبدو أن الأمر مرعب بحق. ثم سألهم:

"ما الذي يحدث أيها البشر؟"

لا أحد يجيب الكل يكلم نفسه. ورأى صاحبته تسرع إلى الصالة المجاورة للاستوديو حيث من المفترض أنها تستعد الآن للماكياج قبل الحلقة كما جرت العادة، وهي اليوم لا تبالي فشعرها منفوش وعيناها حمراوتان وكأنها مستيقظة للتوّ من النوم أو أنها خارجة من معمعة رجل قوي مثل الشيخ.. تخيل الرومي ذلك وابتسم بحزن عميق أن طلباته قد صدت. وسرعان ما عاد خائفا وقد رأى رجلا مسناً يعمل

في النظافة بالفضائية، يحرك الماكينة التي تنظف تلمع السيراميك وهو يئن، ويتكلم بصوت مهموس..

"الوحش.. الوحش.."

اقترب منه يكلمه ونادراً ما كلمه من قبل، لكنها إلفة الهلع والرعب تجعل الناس يحبون بعضهم، وسأله:

"أي وحشٍ يا رجل؟"

رد الرجل مرتجفا وقد رمى بالماكينة بعيداً :

"الوحش قد ظهر ألم تره.. أيها الشيخ إنه يشبهك"

لم يكن لائقا ما قاله الرجل المسن، وهذا على أي حال ليس وقت التفكير في مثل هذه الأمور البائسة، قال الشيخ سراً ثم أسرع إلى الاستوديو فقد تبقت خمس دقائق على الحلقة التلفزيونية، ومن ثم وجد المذيعة تهرع وراءه، لتخبره قائلة:

"هل سنتكلم عنه اليوم.. لا موضوع آخر!"

عرف أنها تعني الوحش.. حتى لو أنه لم يكن قد فهم ما الذي يحدث.. واستحى أن يسألها لأن هذا عيب أن يوصف بالجهل. فهو الآن يعلم وربما لا يعلم أن ما فكّر فيه في الصباح قد حدث، الوحش الذي تنبأ به النوراني قد خرج فعلا..

جلس في كرسيه، والمذيعة في مقابله، لا تبدو تلك المرأة الجميلة التي كان قد أغرم بها، ما بها اليوم تبدو قبيحة وغبية، ما الذي يفعله الوحش بالنساء باذخات الروعة؟ أين شفتيها الورديتان وجبينها المعطر وأين حلقات أذنيها الذهبتين؟ ما الذي حلّ بها؟ أكلٌّ ذلك من أثر الوحش.. كانت مرتبكة وغير قادرة على الكلام.. وكانت الكاميرات العلوية في الاستوديو تهتز كأنها سوف تسقط على الأرضية وتهشم رأس الشيخ ومذيعته.

●●●

(٥)

بدا الوحش رجلاً في الأربعين من عمره، قوي البنية، إلى حد كبير يشبه أهل القلزم ولكن ليس بإمكان أحد أن يؤكد أو ينفي أنه منهم وهو لم يشر لذلك، تكلم من مكان مجهول في الأرض لم يسمه، قطع شاشات الإرسال فجأة دون استئذان.. في كل الفضائيات ليبدو متربعاً بحجم الشاشة وخلفه يبدو رجلان وهما مدججان بالسلاح الأبيض السيوف الطويلة التي تنتهي برءوس مذهبة.

ثمة من قال إن الرجل لطيف وبهي الطلة رغم أنه أعور، لكنه رغم ذلك مخيف فالجمال البهي المتسم بالرزانة والقوة والسلطة يعني التخويف والترهيب أكثر من أي شيء آخر.

لم يتكلم كثيراً.. تكلم بالعربية على ما يبدو. غير أن أهل القوقاز سمعوه بلغتهم المحلية.. وفي الصين أقسموا بأنه يتكلم الصينية، والرئيس الأمريكي الذي داس على "الريموت كنترول" ليبحث عن قناة السي إن إن أو غيرها وجد أن الشاشة قد تسمرت في هذا الرجل لا سواه. كان قد سمعه يتكلم بالإنجليزية.. وهكذا مضى الأمر حتى للهجات المحلية في البقاع النائية من العالم. ما يحدث يشبه المعجزة في زمن اللامعجزات.

لم يكن للشيخ ما يقوله في الحلقة.. سمعها تكلمه:

"وما تعليقكم على ظهور الوحش وتحقق نبوءة النوراني؟

كاد أن يصرخ أظهر حقا؟ ومن ثم آثر الصمت.. فظهور الوحش يعني التزام الهدوء حتى لا يقع في أي خطأ يجعل الوحش يقرر به، إنه لاشك مريب حتى لو أنه لم يره.. وأعاد المخرج بث الدقائق القصيرة على الشاشة، تلك التي ظهر فيها الوحش.. وشاهدها الرومي.

كان الشيخ قد اكتسى عرقاً بين الهلع والسرور الخفي لأمر لا يمكن القبض عليه. هلعه من نهاية مستعجلة للعالم الأرضي وملذاته وسروره لأن يوم الجزاء الأوفى قد اقترب ولاشك أن مقعده في جنة عليين مع الصادقين والأولياء الصالحين.. قال:

"إن في مجيئه رحمةً للعالمين فبه يمحص الله البشر ويختبرهم"

"ولكن من يتبعه؟"

"يتبعه كلٌ بظنه.. إن كان صادقاً أم كاذباً"

"وهل يعلم ما بالقلوب؟"

خاف أن يكذب وأن يعلم الوحش بأمره، فيكون مصيره القتل أو الترويع، فالرجل الذي يمتلك هذه الطاقة الهائلة وفق ما رأى في عيون الناس وتعابيرهم وما رآه على فاتنته التي لم تعد كذلك، كله يشير

إلى أمر غير معهود، ليكون صادقاً إذن وعليه أن يتكلم من قلبه دون أي تمويه.. قال:

"لا علم لي.. أظنه كذلك.."

ورأى وجه الوحش يسد الأفق أمامه.. في الاستوديو الذي أظلم فجأة، فقد انقطع التيار الكهربائي على غير العادة.. كان ثمة هلع وصراخ وأناس يتضاربون ومعارك ضارية في أماكن مجهولة من الأرض. يصعب على المرء أن يقيم ما الذي يحدث بالضبط، هل هي أحلام أم كوابيس أم هي فعلا الحياة على الأرض تصبح معممة بهذه الفوضى؟

ولم يجد الشيخ بداً من البكاء والعويل بصوت عال. لم يكن يعرف لماذا يبكي بالضبط، أو السبب الذي يجعله يتذكر ذنوبه وآثامه.. كان قد نسي كل شيء إلا ربه، ووجد نفسه يسجد لله في فناء الاستوديو.. ثمة آخرون يسجدون.. ورءوس متناثرة في المكان ودماء.. وأعين مخلوعة عن الرءوس وأنوف متطايرة.. وأصوات تأتي من عوالم أخرى بعيدة، كأنها تأتي من سماوات علية أو أرض نائية تحت أرضنا، تلك التي يسمونها الأرض السابعة.

●●●

الجزء الثاني
الوحشي

أولاً: كوابيس ومناجاة

الأحد
أنقرة – تركيا

١٨	
١٩٩٩	يوليو

٥	
١٤٢٠	ربيع الآخر

(١)

وحيد، ليس لي سوى الوحشة والغياب.. الأنين الذي يشغل قلبي، من أكون أنا المجروح الذي ينتظر خيراً في هذا العالم دون أن يصل إليه.. أعاين من نافذة الفندق العتيق، صورتي في السماء الباهرة بأضواء متناثرة.. أنظر بحيرتي وارتباكي، لا أرى سوى عالمي القديم الذي يسكنني.. نزعاتي كإنسان بائس، يعجز عن مصارعة الحقائق ليحقق روحه المنهوبة.

كنت قد حدثتني عن تلك الرحلة، لكن لا بأس أن أسمع الحكاية من جديد.. أقلد تاريخي المنسي، وأحاول أن أفهم العبرة منه إن وجدت.. من أكون أنا؟ ما حقيقتي؟

لا حس ولا صوت ولا من يسمع لي، فالوحدة تحقق معادلة الانتباه للذات، وهذا أروع ما يمكن أن يعيشه الإنسان.. يخلد لحنينه

الخاص، لصورته، هو، لجنونه، لقلقه الذاتي.. لا يرى بسوى قلبه الغامض.. كل القلوب غامضة يا قلبي.. كل العقول ساكنة حتى لو ادّعت المعرفة.. الجهل يخيم على العالم.. الكل يدعي العلم.. الكل يظن أنه سيد الحقيقة المطلقة..

اقتربت اللحظة.. الساعة المرتقبة، المجنونة.. اقترب الخروج.. والكل في غيابه غائب.. مجنون بلهفته ووحشته.. لا يرى سوى التيه والانسياق للزمن.. من يتحرر من ذلك يكسب المعركة إلى الأبد، إلى اللحظة التي يحملونه فيها على آلة حدباء إلى مظناته الأخيرة.. يودعونه، يسرقون أحلامه وما بقي متجمداً منها في دماغه.. حيث تنطوي كل الذكريات والأنات ويغيب العالم.. وحيث التاريخ المعلن والسري لتلك الذات يصبح هناك مدفوناً بين الخلايا واللحم، فما أعجبك أيها الإنسان! تعيش وتسافر وتتعلم وتختبر وتجرب وفي كل الأحوال سوف تترك الأشياء المهمة وغيرها وتمضي، إلى ذلك الإناء الغريب والمجهول لتندس هناك.. لتكون جزءاً من سرية الوجود وغموضه، من السراديب المجهولة للكون.. الحياة الماورائية والوصايا المدفونة في الأزل.

كنت قد حدثتني.. كلمت نفسي، عن تلك الرحلة، لكن لا بأس أن أسمع الحكاية من جديد، أكلمك مرة أخرى، وأنت صداي، يا صوتي البعيد؟ أنت أنا التي تسكنني يا من أسميته جدي دون أن أعرف

سبباً لذلك. كان ذات ليل أن رأيتك في الحلم فأحببت أن تكون صورة جدي.. لا توجد في بيتنا شجرة نسب حتى لو أنها مخترعة كأغلب الأشجار المزروعة في الحوائط، الكل يفتخر بها.. جدي فلان.. أنا سليل الأصفياء..

الآن منتصف الليل بالضبط، نهاية أسبوع مشغول بالملل.. تطلّ علي أطياف روحك، وتنزع عني النوم، فعادة أن أنام مبكراً منذ أن أصبحت حياتي مشغولة بالنظام، ربما هو عامل السن والخوف من العلل والأمراض التي تحاصر البدن، تلك القبة التي علينا أن نكون داخلها شئنا أم أبينا.. لا تحرر منها إلا بالهروب إلى السراديب الخفية والمجهولة.. ذلك الغيب الغريب. تقلقني، فتوقظني، تهز جسدي هزاً، أتخيل ذي البدء أن زلزالاً قوياً يضرب الأرض. ولا أعلم أمراً عن تاريخ الهزات الأرضية في هذه الأرض.. وهل هي واقعة في خطوطها التي يتوهمها العلماء الجيولوجيون أم خارجها؟ وهذا ليس مهم الآن، فصورتك هي التي تبدد أي اهتمام بصورة أخرى، بفكرة ثانية سواك يا أيها الجد المتوهم.

●●●

(٢)

هذه المرة تبدو لي أكثر إلحاحا في حضورك وتمثلك أمامي، تبدو حقيقة أكثر من المرات السابقة، لأنني بمجرد أن أنهض وأراقب المدينة من الطابق العاشر، على ما أتذكر.. فعلاقتي بأرقام المباني العالية وكننها ليست جيدة.. أراك تسافر في بهاء الضوء المنزلق بين البنايات والنوافذ شبه المعتمة، رغم أن السماء صافية.. وخلت أن في عيني غبش ما يجعلني لا أرى بشكل حسن، فأتحسس لهذا وجهي، ثم أزيح نظارتي فأمسح عيني بطرف قميص نومي، فلا أعود أتبين سوى الظلام، كأن الكهرباء قد انقطعت عن المدينة، أو أنني لم أغادر منامي.. ومن ثم أتذكر أنني لا يمكن أن أرى الأشياء بوضوح منذ عشرين عاماً خلت، من ذلك اليوم الذي انطفأ فيه وهج العينين وفقدت فيه الوضوح وقوة الرؤية، لأرتدي أول نظارة لي في حياتي..

بعدها كانت لافتات الشوارع مضاءة تبرق من بعيد.. أضواء المدينة الكسولة تصبح نشطة، السيارات تصبح أكثر سرعة بفعل سرعة الضوء في عيني. العالم يتغير ويلبس لوناً جديداً لا يشبه ما كان عليه، أفكر في تاريخ العمي، ومتى اخترع الإنسان النظارة، مرات انشغل بمثل هذه الأفكار وأسرع للاكتشاف والتلهي بذلك ثم أغفله، إذ أنه يبعدني عن أبحاثي وعلومي وما يجب أن أخلص له، فالحياة قصيرة جدا.. لا يمكن

للإنسان أن يعيش أكثر من مرة لكي يفعل كل ما يريد. بالنسبة للخالق بتقديري فقد كان هناك متسع من الزمن.. لم يكن الزمان نفسه سوى فكرة في ذهنه، فقام بأخذ الوقت الكافي لكي يفكر بهدوء بعيداً عن ضجيج المخلوقات. وفي النهاية منحنا حياة قصيرة.. ووعدنا بالخلود في عالم آخر يكون لنا فيه أن نحقق المنتظر والمعجزة.

أعيد تركيب نظارتي القديمة.. التي فقدت على ما يبدو خواصها، كان علي أن أغيّرها منذ شهرين، وفات الموعد. لا التزم بالبطاقة التي يمنحها لي البائع وهو يخبرني بأنها مهمة ويجب أن أنظر إليها بعد ستة أشهر على الأقل لكي أتأكد من الموعد المضروب عليها.. ويذكرني بأنه لعَالِم مثلي يجب أن يهتم بذلك. وأنا لا أهتم، أنسى أن بصري ضروري لكي استمر في معاركة الوجود الذي سأقبله على علاته، يقيني الخاص وخواصي العجيبة في إدراك روحي حتى لو أني كائن منهك وتَعِب لا يجعلني أغير قناعاتي في تفاصيل الحياة الحقيقية لي.

دائما ثمة حياتان لدى الإنسان.. حياة الخمول والعادية التي عليه أن ينسى فيها كل شيء.. أن يكون عاديا كما ينبغي ويعيش الترهات ويحترم النظام.. وحياة أخرى هي حقيقته الذاتية التي لا يعرفها إلا هو، يكون قريبا منها، تقدره ويقدرها. يقترب منها، من خواص ذاته الأولى التي تشكّل عليها في أزله الشخصي، هويته الغائبة في

ملهى الوجود. قلة من يدركون هذه الحياة الثانية، ويترضون بالعادي والتقليد وألفة النظام. في حين أن حقيقة الإنسان قد خلق لكسر النظام، لكي يخلق الفوضى ويربك الوجود ويغير النواميس. إن الذات العلية تحترم الناس الذي يعيدون تركيب العالم ولا تنظر بأي تقدير للإنسان الذي يألف ويكرر الاعتياد ولا يمله.

تتلاشى الصورة أمامي، لم أعد أراه.. جدي.. أمسك بمقبض الباب في الفندق العتيق بالمدينة الأسطورية.. التي عشعشت بخيالي منذ سنوات الطفولة البعيدة. رأيت ذات يوم أنني سوف أجيء إلى هنا، كنت ما أزال أتهجأ المعرفة، جالساً في الفصل الثالث أم الرابع. ليس للذاكرة أن تنتبه بجدية، يدخل مدرس التاريخ لكي يحكي لنا عن حضارات سادت ثم بادت. يعلمنا صيرورة الأزمنة التي يفقهها (هو) في حقيقة الأمر. فحياته الشخصية في الحي كانت أكبر دليل على انكساراته، وعدم يقينه بأن السلطة المتمركزة والمهيمنة عليه سوف تزول. كان خنيعاً لا يفتر عن الانصياع للرجال الآخرين الذين يقررون المصائر.

مرة وقفنا وتحديناه بأن يثبت جدوى ما نتعلم، إن كان لا يقدر على تطبيقه في حياته. عدم قدرته على الانتصار على العدم كما يسميه. يتحدث لنا بمقولات فلسفية أكبر من عقولنا الصغيرة. ثم يهرب إلى مكتبه الطيني يندس فيه ليبدأ التحضير لدرس جديد وهو يهجس خوفاً من سياط بعض الغرباء الذين سوف يأتون في منتصف

النهار ويأخذونه إلى جهة مجهولة ويعيدونه في اليوم التالي منهكاً تعباً. أقاويل كثيرة تدور ولا أحد يعرف فحوى ما يجري بالضبط. قيل إنه يتم توظيفه في مهام نادرة لأناس معينين لا يمكن النطق بأسمائهم. وقيل إن القصة كلها مسرحية هزيلة ضمن ألاعيب المتمرسين في الحكم يشغلون بها الناس، والرجل ليس إلا فزاعة لرسم قرارات قادمة في مقبل الأيام.

تلاشت صورته الآن أمامي.. ومضت كل هذه الوقائع لا يقدر العقل على الربط بينها أو إيجاد منطق خاص لها. تبدو مثل أحلام متشرذمة، كوابيس قاهرة، جنون أزلي يعيش في دماغي المتعب، وأزيح كل ذلك لا أعود مفكراً بسوى المدينة التي جئتها فعلاً قبل خمس سنوات، متتبعاً أثر معرفتي المنشودة، في أن أصبح شيئاً له قيمة ذات يوم. تحفزي الذي يسكنني أنني سوف أقدم قيمة أو حقيقة جديدة للإنسانية. هذا اللهب الذي يحرقني منذ صباي. عظمتي الكامنة وراء سكوني، حتى لو أن رفاقي وأهلي كانوا يسخرون مني بأنني لن أكون سوى ذبابة في مهرجان الحياة القذرة، سوف أتسول وأعيش بائساً. قد أكون ذلك البائس بتقدير نفسي، غير أن تعريفي يختلف عنهم. هم يؤمنون بنواميس الحياة الشكلية، بالطقوس والقيم والتقليد البحت وأنا هارب من كل ذلك لذلك رفضوني وعافوني، جعلوني غريباً بينهم وحكموا عليّ بالهجران والقطيعة.

●●●

(٣)

يلوح أمامي الضوء مرة أخرى.. الأضواء الباهرة في المدينة تطل قوية هذه المرة، يبدو أن شمس صباح جديد قادمة من وراء المجهول. قبة السماء العتيقة كهذا المكان. أشعر برجفة تعتريني كأنني استعد لاستقبال وحي سماوي، أو براق يحملني على صهوته إلى مجاهيل الأفلاك القصية.

أرى الضوء يدخل في مكامن ظلمتي، حيث للضوء والظلام أن يصطرعا في هذا الصباح. وحيث أفكر في أمور كثيرة متداخلة لا أبدي أي رغبة في فرزها بسبب ذهني المشوش من التفكير المستمر في هوية ذلك الجد الغريب.. هل كان حقيقة ذات يوم أم أنه مجرد اختراع لواحد من مزيفي التاريخ. وأفكر في أمر آخر ما السبب الذي يجعلني أحب هذا الكائن وأراه هوية أخرى مماثلة لي، هل ثمة قانون غيبي، قانون «فوقكوني» يطرز العلاقات غير المرئية بين الأشياء في العالم. يربط بين الماضي والمستقبل، بين ذات هنا وتلك التي عاشت قبل قرون بعيدة. ولا يمكن تفسير ذلك بتناسخ الأرواح أو الحلول الجديد للروح القديمة في كائن حديث، أو غيرها من نظريات بعضها أؤمن به وبعضها لا يقنعني. لا يمكن لأي قانون أو قاعدة أن تفسر ما أفكر فيه. سوى أنني يجب أن انتظر تلك اللحظة التي سوف يخرج

فيها القانون مني، من ذاتي، أن أكون ذلك الكائن المنتظر منذ صباه بأن أصنع فرحتي في العالم وأحقق كياني، وأضحك في وجوه الذين سخروا مني في ليال متفاوتة وما زالوا يسخرون ويهزءون بلا ذوق.

أتخيل ذلك الكائن، القديم، الذي يسكنني ليخبرني بحكايته، يجلس معي الآن في الغرفة. أتخيله ولا أراه بالضبط. حتى لا أبدو غريباً عن ذاتي. أريد أن أسمع منه الحكاية مرة أخرى.. أريد أن أفهمها منه شخصياً لا مني. أتحرر من ظلمتي وعدم قدرتي بعض الأحيان على أن أقتل الأوهام بداخلي، العدو اللدود الذي يقلقني، الذي يجعلني أعيش التيه والضلالات، كلما ظننت أنني اقترب من هويتي، حقيقتي، أجد أنني ابتعد مرات ومرات. أرى العالم يظلم أمامي أو يغمرني ضياء شديد فلا أعود أرى، سيان أن تعلو الظلمة أو يفيض الضوء. هما متضادان يعطيان المعنى نفسه في الذوات التي ترغب في الصفاء لا الاحتيال على الأرواح.

أتخيله. يكلمني أن التيه مرده على الألفة القاسية التي يحاول المرء أن يصنع بها وجوده. حياتنا الحديثة الغارقة في النظام، رغبتنا في أن نكون أبناء الحاضر ونحن سلالة الأمس، لم نتطهر تماما لكي نلج الوجود الجديد. وكنت أظن أنه يحدثني عن حداثة الحياة الغربية ثم اكتشفت أن له تعريفات أخرى ليس لعقلي أن يستوعبها بالشكل الكافي في اللحظة.

يبدو أن أمامي أشواط كبيرة لكي أصل. ويبدو أنني سوف أنازع العقل وهفواته كثيراً حتى أتدرب على إدراك المعنى. أن أفهم كيف أميز بين الإيقاع والنشاز. أن أتعلم قانون الناموس الكوني، وأطيعه، لا أظل مجرد ذلك التائه الذي يتخبط في ردهات الحياة بظن أنه يعلم ويعرف، وهو لا يرى سوى خيالات ويقلد ما حوله دون معنى عميق للأشياء أو دراية كافية.

قال لي:

«ما لهذا خلقت يا عبد الله؟! يجب أن تقترب من المعنى. ليس لك من سبيل إلا التطهر الكافي. وأنت أهل لذلك إذا رغبت، كن أنت، ولا تستعجل النتيجة. كن ذلك القلق المثير الذي يسكنك ولكن بعرفان وإدراك. وثق دائما أن الحياة لم تبدأ بعد، لا تزال في منصاتها الأولية قبل الانطلاق»

«ولكن ماذا لو انتهى العمر دون أن يصل الإنسان؟»..

كنت أريد أن أسأله فغاب عني، أو تحرر مني، أو تحررت منه لم أعد أراه أمامي ولو طيف غريب وغامض.

●●●

(٤)

ما بين تلك الأطياف القديمة والجديدة.. ذكريات الطفولة والصبا ولعنات الحياة وسيطرتك على عقلي أيها الجد البالي.. المتوهم.. أم الحقيقي، ليس لي من تحديد!، أرى صورتي كإنسان عاش مقهوراً، تعرض للعذابات وصبر عليها إلى أن وصل إلى هذه اللحظة، هذا الموقع، ولكن كما أخبرتني فالطريق طويل، وموج البحر لا يعرف الصمت، لابد للسفن أن تطارد المجهول وللبحارة أن يسافروا إلى بلاد بعيدة وللنجوم أن تزوي ويولد غيرها.. للمجهول نفسه أن يتغلغل في المجرات البعيدة باحثاً عن هويته. في يوم يمكن فيه للأسماء أن تصبح لها شخوصها فتهرب منها مسافرة في السماء ونصبح عاجزين عن الكلام، يصبح البشر أجمعهم مصابين بالصمم أو البكم. هل يمكن أن نتخيل العالم بلا لغات؟ وهل كانوا كذلك ذات يوم.

أتوقف لأسأل نفسي، هل تلك الأفكار مني، أم أنني قرأتها في مدوناتك.. تحديداً في مدونتك التي رسمت فيها الخطوط المفصلة لنهاية العالم كما تصورته. تحدثت عن الهلع الأكبر وكيف للمرء أن يحقق نجاته من ذلك العذاب الأرضي، قبل أن يحل مثيله السماوي. وصدقني قبل أن اقرأ ذلك كنت ذلك التائه ما بين الإيمان والإلحاد، لم تكن حقيقتي مع نفسي جلية.

مرات أصلي لأيام وشهور ثم أعود بلا صلاة. أفكر في هوية اللّه ثم أنساه فينساني وأعود إليه. تارة أقول أن الموسيقى هي إله الحياة الذي يكلم الجميع. رغم أنني لا أجيد العزف على أي من الآلات فقط أعرف كيف أسمع بدقة تامة، منذ ذلك اليوم الذي أخذني فيه صديقي إلى صالة في وسط المدينة وأخبرني هناك يسكن عالم جديد بالنسبة لي، وقد كان.

في ذلك النهار اكتشفت كيف للموسيقى أن تكون اختراعاً خطيراً في تاريخ البشر، وقمت بتفكيري الذي يقفز بصورة غير طبيعية على الأمور، أقارن بين صورة الجسد وتلافيفه وكيف تهتز المؤخرات وترهف ثم تُمطّ في أقل من لمح البصر مع الإيقاع.. الألفة والنظام. تلك اللحظات التي كونت أول معاركتي مع رغباتي الدفينة في أن أفهم النواميس، هل ثمة قاعدة تؤلف هذا العالم، سر خفي تخبأ في مكان مجهول، لا يعرفه إلا الخالق وبعضٌ من أحبائه، واستمر القلق لا يبارحني إلى اليوم الذي رأيت فيه خيال جدي المزعوم.

●●●

(٥)

قرأت في سطورك الكثير من العبارات التي آلفتها وصعب عليّ أن أنساها أو تغيب عني إلا أن أصاب بالزهايمر أو أموت. وقد لا أنسى بعد موتي، فقد علمتني أن الموت ليس مرعباً كما يتخيل البشر، هو انتقال من هيئة إلى أخرى. وإن كان مفهوم الهيئة الذي تتحدث عنه غير واضح بالنسبة لي. ولم أجد له تفسيراً جلياً في المدونات الأخرى لك. قد يكون ثمة مدونات أخرى مفقودة أو غائبة لم أصل إليها تفسر فيها بعض من الأمور الغامضة التي تركتها ككتاب مفتوح بلا نهاية. مع معرفتي بأن الإنسان مشروع مفتوح، لا يمكن للأفكار أن تكتمل أو للسؤال أن يدرك مصبه النهائي. ولهذا ربما بقيت لديك في ذهنك رؤى كثيفة لم تتنقل إلى حيز التدوين، تكلست في ذلك الدماغ الذي دفن في الأرض وذاب، صار شجرة أو ثمرة في جوف طفل وليد.

أعلم أن في حكايتك. أسرار ومساحات شاسعة من الفراغات التي لا يقدر أحد على ملئها، ربما سواي.. أظن أنني أعرفك جيدا. أفهم خواصك. فهل ستعطيني الفرصة لكي أنال هذا الشرف بأن أكتب مدونتي، عنك من خلال ما خبرته عنك. أسمح لي بذلك وإلا سوف أعيش بقية حياتي مكتئباً سيدي. لا أعرف من ملاذ لي سوى الترهات والانسياق لعالم الجنون البشري، في حين أن عالمك الآخر هو

مجنون بيد أنه مشوّق وعامر بالوله لحياة ثانية لم يختبرها الكثيرون بل أغلب البشر. حياة في عالم مقبل، مخيف ومسل. عالم النهاية التي اخترعتها للعالم والإنسانية قبل تلك القرون..

دعني إذن أعيش في تفاصيل الحكاية والمرويات.. ليس ثمة سر بيني وبينك في هذا الصباح بعد أن انتهى الليل بكل ما فيه من أضغاث.. ليس ثمة مجهول ولا قلق.. نحن في مواجهة بعضنا بعضاً، لن أذهب عنك قبل أن تذهب عني.. سنفضفض لبعضنا بأسرارنا أن بقي ثمة سر، وسوف نسمع موسيقانا الساحرة التي ألفناها سويا، سوف نغسل النهار بالانتظار إلى الليل لأنه الظلمة هي مرتعنا حيث تصفو النفوس من كدر الحياة العادية وحيث يرتخى البدن، وحيث يطل الغياب حضوراً.

●●●

ثانياً: الوداع عند سفح قاسيون

الأحد
قاسيون – دمشق

٤	
١٢٨٢	أكتوبر

٢٧	
٦٨١	رجب

(١)

في تلك الليلة دفنوا القزاز بن زرعة، أخذوه إلى الجبل، وفي المقبرة وسدوه الثرى، بكاه الكثيرون ممن عاشوا على علمه، رغم أن الرجل آثر معظم حياته أن يكون وحيداً في بيته لم يرد أن يحتك بالفوضى التي عمرت العالم في زمنه، من دخول التتار إلى بلاد المسلمين وخراب بغداد ووصول هولاكو إلى حلب وفرار الحكام الذين باع بعضهم الأرض وارتضوا بأن يبحثوا عن المنجاة لنسائهم وأولادهم، وفي تلك السنوات لم يجد سوى أن يتفرغ لكتابة مدوناته الأخيرة التي حلم بها وهو على أعتاب السبعين من عمره، لم يكن يظن أن عمره قد دنا وأجله قد اقترب. لم يكن في حسبانه أن السنوات قد اقتربت من النهاية المحتومة. وفي اليوم نفسه الذي نام فيه تحت التراب، وصعدت روحه إلى السماء، كان قد دفن ابن خلكان أحد علماء عصره.

في اليوم الذي كانت فيه جيوش المغول تقترب من دمشق، كان القزاز يقارب العقد السادس من عمره، وكانت بعض العلل قد أصابته، غير أن مهارته في علم الطب ساعدته كثيراً على الاستشفاء الذاتي، وقد خشي أن يموت قبل أن يكمل بعض من أحلامه اللامتناهية. يقضي الليالي وهو يكتب ويقرأ، لا يمل ذلك الأمر ولا يكله، عاكف عن النساء والحياة البهيجة، فبالرغم من الفوضى التي كانت تغوص فيها مدن الشام وقبلها أرض الرافدين جراء الهلاكات التي جاء بها هولاكو فإن قلب القزاز كان مشغولاً بالآمال، لا يعلم الجهة التي تغذيه بهذا الأمل الكبير، وتزرع فيه محبة المضي إلى تحقيق المراد إلى أن يلقى خالقه.

اجتمع العلماء وأعيان دمشق يبحثون أمر العدو القادم، هل يسلمون له مفاتيح المدينة أم يتركونه يدخل ليعيث فيها فساداً، كان هناك من يرى أن تسليم المفاتيح أفضل حتى يكون إشارة سلام في حين رأى طرف آخر أن ذلك يعني الخنيعة والرضا بالمذلة والخوف من هؤلاء الأشرار، وقد نأى القزاز عن حضور هذه الاجتماعات، حتى اتهمه البعض بأنه بائع لوطنه، ولم يهتم بالأمر. تعرض للمضايقات إلى أن انجلى الأمر وغفل هولاكو عن دخول المدينة.

ومما يروى عن زهد القزاز عن صحبة العلماء أن الظاهر بيبرس أرسل إليه ليكون من رجاله في الديوان الملكي فأبى واعتذر

بشكل لطيف، وقد غضب بيبرس وقرر أن يفتك به ثم نسي الأمر مع انشغالات أخرى له في حياة لم تكن مستقرة، فقد كان القرن السابع الهجري مليئاً بالفتن والمشاحنات والصراعات والحروب، وكان البلاد تتمزق والدنيا تفقد رونقها، كانت قيامة العالم تقترب كما وصف القزاز الأمر في إحدى مدوناته وهو يتكلم عن قيامة قريبة للوحش الذي يظهر في نهاية العالم.

لم يهتم القزاز في كتبه ومخطوطاته بأمر الحياة والمجتمع أو التنازع السياسي في زمنه، لكن ما قام به كان انعكاساً لذلك الزمن، فأغلب مدوناته تشير إلى دنيا مضطربة، جعلت الرجل يفكر بأسلوب ينذر بنهاية العالم التي اقتربت أو على وشك ذلك، ولئن لم يحدد تاريخاً لحدوث الحسم، إلا أنه كان يتكلم عن الوقائع التي يرى أنها سوف تصير كما لو أنها صارت. استعان بمدونات أهل عصره وغزاها بخرافاته وخياله الذاتي وبرع في ذلك أيمّا براعة، وفي كل الظروف كان يقدم نسيجه الشخصي ولا يقلد أي من أهل عصره، بوفق ما روى عنه ابن كثير باقتضاب شديد، وكأنه لم يكن حاضراً في تلك الأزمنة ولا مشاركاً في حدث. وقد تعرضت أعماله لتغييب طوال قرون طويلة، ولم تظهر إلا مع النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي بنشر أول مخطوطة له عرفت باسم «مملكة الماء».

●●●

(٢)

ﻓﻲ «مملكة الماء» يتحدث القزاز عن عالم غريب وبديع، عن مملكة كاملة اختفت تحت الماء تكاد تشبه أتلانتيس التي أتى ذكرها كثيراً ﻓﻲ الغرب، لاسيما لدى أفلاطون الذي كان أول من أشار إليها. ويبدو أن ثمة مقاربات ﻓﻲ الأمر دون قرائن واضحة بخصوص ذلك. وقد نسج لنا القزاز صورة لمدينة كانت تعيش غاية ﻓﻲ التطور التقني والحضاري وهي شبه جزيرة أو جزيرة تقع ﻓﻲ بحر القلزم، كانت تحكمها سيدة كشجرة الدر التي تولت عرش مصر لثمانين يوماً ﻓﻲ عام ٦٤٨ هـ الموافق ١٢٥٠م، ولا يعرف هنا إن كان ثمة صورة تشابه بين الملكتين وأين حدود الخيال والواقع ﻓﻲ سرديات وقصص القزاز الذي اتضح أنه كثيراً بل غالباً ما يضيف من خياله بطريقة ذكية لا تجعلك تقبض عليه.

يروي لنا الكتاب، أن زلزالاً عظيماً شطر الجزيرة إلى نصفين بعدها انتهى كل شيء، وأن فساد العباد كان سبباً ﻓﻲ تعجيل النهاية. وطوال النسخة المنشورة بأنقرة ﻓﻲ ديسمبر ١٩٥٣م لم ترد أية إشارة إلى العصر أو الزمن الذي وقعت فيه هذه الأحداث، بما يجعل القارئ يحتار أين الحقيقة، وهل هذه الحكاية تاريخية أم هي من نسيج خيال الرجل؟.. وترد ﻓﻲ الكتاب كذلك ملامح لعبادة وطقوس سكان الجزيرة التي هي غالبا تميل للوثنية ما يعني أنهم ربما عاشوا قبل الإسلام لو كان لهم حقيقة وجود، وكان لهم معبد كبير مبنى على شكل هرم،

ويمكن ربط ذلك بقصة الأهرامات كما في مصر، وأيضا ليس من إشارة هل بني هرم «مملكة الماء» أولاً أم سابقاً، أيهما كان الأول. كما أشار إلى أن اللّه غضب على أهل الجزيرة فمسخهم كما مسخ بني إسرائيل من قبل إلى قردة وخنازير. وإن كان أمر أهل الجزيرة في المسخ أهون، لأنه إلى حد كبير احتفظوا بطبيعتهم البشرية.

والكتاب وفق التقديم الذي لم يشر لكاتبه، يقدم لنا شذرات من الخبرات والحكم في الحياة التي توضح عمق المعرفة التي تمتع بها القزاز، بالأحرى قدرته على كتابة الحكمة واستنطاق أسرار الوجود والخبرة الإنسانية التي لا يمكن أن يصل لها أي إنسان إلا بعد عناء روحي وبدني، ويمكن من خلال تحليل النصوص بدقة أن نصل إلى بعض من تفاصيل حياة الرجل التي ظلت غامضة ولم يشر لها كثيراً، وربما كان في ذلك نوعاً من الإجحاف أو أنه إهمال مقصود في زمن انتشر فيه الحسد والغبن، وراح كل مؤرخ يعمل بشاكلته وخياراته وكان للسياسة كذلك لعبتها في الأمر. وإن كان هناك من يرى بغير وجه تأكيد أن الرجل شخصية مختلقة وأن هذه المخطوطات التي ظهرت فجأة ما هي إلا كتب منحولة، سطرت في فترات لاحقة لتلك الفترة من القرن السابع الهجري، وفي كل الأحوال فإن هذا لا يعني التعامل مع المؤلفات على أنها فارغة أو غير جديدة بالدراسة والتأمل واستخلاص المعاني الثرية.

●●●

(٣)

في أيامه الأخيرة، كتب القزاز مخطوطته الأهم التي كان لي الفضل في تنضيدها والعمل عليها تنقيحاً، بعد أن عثر على النسخة الوحيدة منها في حفريات بدمشق في العام ١٩٩٥م، وذلك بتعاون بين عدد من العلماء كنت واحداً منهم، في الواقع كنت رئيس الفريق الذي تولى هذه المهمة. وكان نصراً بديعاً لنا فهذا الكتاب بالذات فيه تصور تام لرؤية نهاية العالم التي كتب عنها الكثيرون من علماء السلف، بينما عمل القزاز على إبداع سرد غريب ومدهش ومتناسق، يشبه الأساطير وفي الوقت ذاته يمتزج بالدماغ الإنساني فيجعلك في حيرة أين هي الوقائع وهل ذلك سيحدث أم أنه حدث بالفعل.

ويبدو جلياً أن المخطوطة المسماة «الوحش» قد كتبت بعد مدونة «مملكة الماء» ففيها تبدو اللغة أكثر صفاءاً والأفكار أعمق وأبعد اختماراً من سابقتها، وتتجلى عبقرية ذلك الرجل المفتون بالحكايات وتعميق المعنى الإنساني للكائن البشري حتى في أكثر اللحظات الإنسانية وحشية، وهذا كله يتطلب الكثير من العمل عليه والبحث المضني لإجلاء العلوم والحقائق، وقد بدأت في ذلك منذ سنوات دون أن أصل ولو لربع الطريق إلى اليوم، ما يجعلني في حيرة، مرات أفكر هل واقعياً أن القزاز كان شخصاً واحداً أم هو مجموعة أشخاص مثل

أخوان الصفا مثلاً، ما يجعل هذا العمل جباراً بالفعل، لكن من ناحية أخرى فاشتغال أكثر من شخص على عمل كهذا سوف يزيل عنه روح التآلف والحبكة المتصلة والمتسقة. وهذه حبكة تكاد تكون موجودة في كل مدوناته بغض النظر عن أمر الأفكار التي تتطور تدريجياً مع امتداد العمر والحياة المتصلة بالخبرات والتجارب.

●●●

(٤)

نزل مشيعو الجثمان من أعلى الجبل وهم ينظرون إلى المدينة أسفلهم، كأن ثمة ضوء غامر يغسل الظلمة ففي السابع والعشرين من رجب ليس ثمة بدر في السماء، لكنه يوم عظيم فيه يعلمون أنه يوافق اليوم الذي أسري فيه بالنبي إلى السماوات العلا ليلتقى المليك الأعلى. والرقم ٢٧ نفسه هو لليلة القدر المشهودة في رمضان التي تنزل فيها القرءان على محمد، أيكون ذلك الضوء انعكاس لصدى ذلك الزمان البعيد؟ قال بعضهم ذلك، وهم يحصون مآثر الفقيه والولي العارف بالله القزاز بن زرعة، رغم أن قلة كانت تشكك في إيمان الرجل وأنه من زنادقة العصر كلآخرين الذين سبقوه. فمن السهل إلصاق صفة الزنديق على أي إنسان لو أرادوا محاربته أو النيل منه، بدعوى التخلص منه.

ثمة أقاويل أن القزاز مات مسموماً، وهناك من يقول إنه مات موتة طبيعية كما يرحل أغلب الناس، غير أن الذين رءوه في المسجد الكبير قبلها بيوم واحد، حاروا في الأمر، لقد كان قوياً، صلب العود، شديداً. بالنسبة لابن خلكان فالغالبية كانوا يتوقعون موته لمرضه الذي ألمّ به منذ فترة وقد أعياه تماما فأصبح عاجزاً عن مغادرة بيته، أما ابن زرعة فالقول فيه ليس سهل التأكيد.

●●●

ثالثاً: اختراع الوحش

الأحد
الرميلة (مسقط الرأس) - السودان

١٨	
١٩٩٩	يوليو

٥	
١٤٢٠	ربيع الآخر

(١)

في تمثلاتي لجدي المتوهم.. كنت اقترب من حقيقة ذاتي مرات.. أرى فيه صورتي تماما.. حتى لو أنه ليس ثمة إثبات يمكن لي أن أقنع به الناس. وقد كانت عندي نظرية مفاداها أن القناعة الشخصية هي الأهم وليس بالضرورة أن يعترف بك الناس. وهذا يجعلني في قلق مع نفسي، وما كنت أفكر فيه من كيف لي أن أصبح ذلك الكائن الذي أبحث عنه، ولماذا في بعض الأحيان يشغلني أمر شهرتي وأن أحقق نجاحاتي، ككيد عظيم ضد الذين وقفوا ضدي ذات يوم وسخروا مني، أنني لا شيء.

بدأت حقيقة ذلك القلق الوجودي الآثر والعجيب، في اليوم الذي استيقظت فيه من حلم مزعج.. كنت أظن أنني سافرت إلى تركيا وعشت في ذلك الفندق العتيق الذي حدثتكم عنه وعن أمر الرجل الذي صار محور حياتي.

تلفت حولي لم يكن ذلك سوى هواجس لا أعرف مردها، يمكنني أن أفهم بعد قليل. في تلك الأيام استطيع أن أقول أنني ربما في السادسة عشر من عمري، يانعاً، وسيماً، خفيف الحركة ومتعطشاً للمعرفة. مرات أقول إنه ليس حلم ذلك الذي رأيته، إنما هو تكليل لمجموعة من الأيام والليالي والشهور التي أنفقتها في قراءات متفرقة وأنا وحدي في الغرفة القصية من البيت، ولأنني الولد الوحيد في عائلتنا، فقد كان لي الفرصة بأن أنجو حتى لو أن ذلك يعرضني للإزعاج أحياناً لأن والدي يرغب في أن يأخذني معه إلى كثير من المناسبات الاجتماعية لأداء الواجب كما يقول.

كان والدي من الناس العاديين لحد بعيد ولم يكن له ثمة اهتمام بالتاريخ أو مرويات الماضي، لهذا فالحديث معه عن أي من الشخصيات التي تعشعش برأسي لا يكتسب أية قيمة، فهو لا يعرف من هو ابن خلكان ولا القزاز ولا غيرهم، وبالتحديد لن يعرف القزاز لأنه صناعتي الخاصة، فأنا الذي خلقته منذ عامين تقريبا قبل أن يصبح محوراً في حياتي، بل بدأ يطاردني في اليقظة والمنامات لدرجة أصبحت تخيفني بعض المرات فأقول لنفسي ما هذا العجب، أن تصنع فكرة ثم تصدقها حتى تصبح أنت ضحيتها، ولكن ليس من مفر إذ يكون مقابل ذلك التزام مني بأن أكمل اللعبة إلى النهاية. التي بدأت لي مسلية، بأن أقرر مصير هذا الرجل الذي أسميته جدي.

●●●

(٢)

بدأت اللعبة في اليوم الذي أخذني فيه أبي إلى وليمة أقامها شيخ من شيوخ المنطقة في السابع والعشرين من رجب، وهو اليوم الذي اخترته لاحقاً لتكون فيه وفاة القزاز بن زرعة، جاء الجميع من كل صوب وحدب، وهم يتشوقون لرؤية نجل الشيخ الذي ستتم ولايته في ذلك اليوم لأن أباه سوف يتنازل عن عرش المشيخة، وهو أمر نادر الحدوث أن يكون التنازل قبل وفاة الشيخ الكبير، فالعادة لابد من انتظار رحيله لكي يعين في الغالب ابنه الأكبر خليفة له. لكن الشيخ يبدو أن له حكمة ما، كما سمعت الناس يرددون، فالابن الذي تم اختياره للمشيخة ليس هو الأكبر، بالتالي يفهم الأمر أنه أراد أن يثبت أمراً قبل أن تحدث فتنة بعد وفاته بأي شكل كان.

وقفت أتأمل في نجل الشيخ، الذي يكبرني ربما بعام أو عامين، كان يلبس ثياباً بيضاء ويبدو ممتلئ البدن، ليس أوسم مني، لكنه محاط بالإعجاب والنظرات، وفي تلك الليل دقت الطبول وقام الدراويش بتقديم كل ما عندهم من المدائح والأغاني المتوارثة، وأكل الجميع وشربوا، وناموا. وفي الصباح استمر الحفل يأكلون ويشربون ويتمتعون بهذا المقام البهي كما يسمونه. أما أنا فقد كنت أشعر بشيء ما في حلقي يجعلني أتضايق، وأحس بأنني ولدت بلا قيمة كون أبي ليس

شيخاً ولا ولياً من الصالحين، فأنا وريث زمرة من الفقراء والبائسين الذين لا مال لهم ولا ثراء ولا شأن.

هذا اليوم شكّل لي عقدة في حياتي، بمثلما عمل من ناحية ثانية على أن يأخذني نحو الانطلاق بأن حررني أن لا أقبل الأمور على علاتها، وعكفت اقرأ وأقرأ.. فقد سمعت من ينصحني وهو قد رأى اكتئابي، أن عليّ أن انتصر لنفسي بالعلم والمضي في المعرفة، فالمشيخة زائلة ذات يوم قريب، ولن يبقى سوى العلماء الحقيقيين والناس النجباء أمثالك. والواقع أنني كنت ذكياً ومتوفقاً في مدرستي لولا سخريات القدر بسبب فقرنا ما يعرضني للهوان عند الناس عديمي الأدب.

تلفت لأرى من ذلك الذي يكلمني، كان جدي منصور الذي غاب عن العالم قبل سنوات فما الذي جاء به في تلك الليلة، وخفت أن أكلم أحداً بذلك فيقول لي أجننت يا فتى، كيف يعود من مات؟

وهكذا ظللت احتفظ بذلك السر إلى سنوات طويلة، إلى اليوم عرفت فيه بعلمي ومعارفي الخاصة وعلاقتي الخاصة مع شيخي القزاز، أن الحياة ليست هي ما نراه بل ما نتوقعه ونصنعه وما نفكر فيه، هي الاحتمالات التي لم نشكلها بعد ولم نرها بعد، هي فوق الطبيعة والقانون والرؤية الساذجة للأشياء.

●●●

(٣)

يوم مات جدي، كنت في السابعة تقريباً، دفناه ذات عصر، وهطلت السماء. قال الناس إنه عاش صالحاً وكان عفيف اليد واللسان. وجاء خلق كثيرون لدفنه، وأكل الناس وشربوا دون علم لي من جاء بهذا الطعام الكثير والشراب. في ذلك اليوم قلت لنفسي وأنا قد اكتشفت مسألة المفارقات الاجتماعية منذ وقت مبكر، أن الناس يمكن أن تتضامن مرات مع الناس حتى لو أنهم من البؤساء، ولاحقاً فهمت سراً فكّ طلاسم الأمر، فقد كان جدي عبداً من عبيد الشيخ الكبير، الذي سيجلس ابنه على العرش في يوم الرجبية بعد عشر سنوات تقريباً.

وكلمة «عبد» هنا ينبغي أن تؤخذ بحذر، فجدي لم يكن من العبيد الذين جيء بهم من جهات بعيدة من البلاد وبيعوا في الأسواق قبل عقود طويلة، إنما كان لديه التزام أخلاقي بخدمة شيوخ المنطقة والعمل معهم وفق عهد قديم قطعه والده، أي جد أبي؛ بأن يهب ابنه للشيوخ وهو أمر يتكرر عند عدد من الأسر. ولأن جدي في سنواته الأخيرة أنهك وبات أسير البيت وصار يتبول في السرير ولا يدري ما يدور حوله، فقد أخذوه قبلها من بيت الشيخ إلى بيتنا ليبقى هناك وكنت أراه يعاني النهاية، ومات.

ربما بعض هذه التفاصيل لم أدركها لصغر سني ولم أعِ بها جيداً إلا فيما بعد، ولهذا فإن الشيخ قد قام بواجبه يوم مات جدي، ويشكر على ذلك وقد انتهى الواجب بنهاية العزاء في اليوم الثالث للوفاة. وكان أبي قد حافظ على علاقته مع الشيخ يذهب إليهم في المناسبات الكبيرة دون أن يكون قد وهب حياته لهم، ولما علمت بالقصة.. قصة جدي.. خفت أن يتصرف أبي ذات يوم بطريقة رعناء فيقوم ويحلف أنه وهبني لخدمة الشيخ، إذا ستكون كارثة. ومرت الأمور بسلام.

تفتق وعيي لأهرب من مصاحبة أبي لدار الشيخ، خاصة بعد أن تولى الأمر نجله الذي كان متعنجهاً وكان لا يعيرني اهتماماً ورأيته حاسداً لي كوني متفوقاً في المدرسة، في حين كان هو لا يعرف أن يحسب الأرقام بدقة. كان الناس يتهامسون بذلك دون أن يتكلموا بصوت مرتفع حتى لا يغضبون الشيخ الكبير، وهم يعلمون حق العلم أن المساس بالشيوخ سوف يسبب لهم المتاعب الجمّة في حياة ليس فيها من تصاريف أو مقادير كثيرة مفتوحة الاحتمالات أو هكذا كان يقدرونها، لافتقادهم المغامرة والجنون الذي يكون الإنسان في حاجة إليه ليطفئ من الغل الذين يرهق الذات الإنسانية فيهلك البدن والروح.

●●●

(٤)

ثم قفز الوحش، ذات يوم.. فإذا به أنا أم هو لا أدري.. كانت أمامي صورة النسب التي علقها الشيوخ في صالون بيتهم ووقفت أمام الشجرة اقرأ كيف أن هذه العائلة المحظوظة ينتهي جدها إلى الحسين بن علي، في حين أننا لا نعرف من نكون بالضبط، وقلت لأبي ونحن عائدان إلى البيت:

«أليس لنا من شجرة نسب في بيتنا كهذه؟»

تغافل أو تجاهل سؤالي، ليسألني عن أمور أخرى، ومررنا على سوق البلدة نشتري بعض الأغراض، وفي الطريق مرة أخرى كررت السؤال، فنهرني بطريقة غير مألوفة عنه، فالعادة أنه أليف وهادئ، وقال لي:

«هل تريد أن تكون مثل أحباب الله، الله لم يخلق الناس مثل بعضهم.. هل ترى أصابعك هل تتشابه؟»

كنت أعلم ذلك، وكان أدرك أكثر أنني استفز والدي وأحرضه ليكون رجلاً له قيمة في الحياة، بدلاً من إضاعة الوقت في كل مناسبة مع هؤلاء الشيوخ.

ثم أدركت أن ذلك مستحيل، فوالدي بلغ من الكبر ما يجعل أي قرار مستحدث بالنسبة له صعب جداً. فالذي شب على تقاليد الأرض ليس من السهل أن يغادرها. ولهذا قررت أن أصنع شجرتي الخاصة، ومنذ ذلك اليوم رسمت وخططت الخارطة التي علقتها بغرفتي القصية ولم يرها أحد سواي. وحيث كان نسبي ينتهي إلى القزاز بن زرعة الرجل الذي وهب العالم اثنين من أعظم الكتب في التاريخ «مملكة الماء»، «مدونة الوحش».

ظللت أعكف على عوالمي هذه دون أن أدري إلى أين ستقودني الأيام، أمارس الحياة بخيالاتي وأحلامي إن كان الواقع ضيقاً ولا يسمح لي بتمرير الأحلام. مؤمناً بأن في الحياة فرصاً أوسع من اليقظة القاتلة. هناك حياة داخل حياة، لهذا يلجأ بعض الناس إلى القراءة أو الكتابة أو التأمل أو عشق الموسيقى أو حتى ممارسة الجنس.. هذا الشيء العجيب الذي جربته قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه لدار الشيخ للمرة الأخيرة حيث حدثت المعركة الفاصلة بيني وبين نجله عصام الدين، معركة انتهت بخصومة كبيرة وطردي من البلدة.

●●●

رابعاً: سقوط الزمن

الاثنين
أنقرة – تركيا

١٩	
١٩٩٩	يوليو

٦	
١٤٢٠	ربيع الآخر

(١)

لليلة الثانية تشرّد النوم عني، فأسرعت إليك استعين بك في يقظتي، أحسبك أمامي، أصوّرك على هيئي، تشبهني شكلاً ومضموناً.. طولاً وحجماً. أنا متوسط القامة لي لحية صغيرة مشذبة نصفها أبيض، ارتدي تلك النظارة التي تعرفها جيداً. يمكن أن يكن ثمة اختلاف هنا لا اعتقد أنكم كنتم تعرفون النظارات الطبية.. أخالك جالساً في بيتك الدمشقي وأنت تسطر الحروف الأخيرة من مدونة «الوحش» فهي التي يهمني أمرها، لقد اطربني أمر ذلك الدجال الذي سوف يأتي في نهاية العالم ليملأ الأرض ذعراً ويخيف البشر، لا أعلم إن كنت قد أتيت به من التراث والمأثور أم أنك قد اخترعته من دماغك. يبدو لي أنه من التراث ولكنك أضفت إليه فجعلت له صورة أخرى، وكان كعهدك، خيالك باذخ في وصفه وإعطائه السلطة والسلطان على أهل الأرض.

وأتذكر.. أم أتخيل.. أنه في ذلك اليوم كنت قد ودعت والدك الذي دفنته في المقبرة الجنوبية من المدينة، كان الوقت شتاء والبرد قارس في دمشق، وكانت الأشجار تهز بهدوء كأنها تعلن ميلاد زمن جديد ولم تكن خائفاً كعهدك تعاني الارتياب المستمر من هواجس لا تعرف لها مصدراً، ترى أنها تخرج من أماكن مجهولة في بدنك طريح العلل. يبدو أن البرد له تأثيره عليك وربما سبب آخر. أما اليوم فالموت يجعلك أكثر نقاءاً، يشعر قلبك بالثبات والانتباه لقيمة الوجود التي نادراً ما يفكر فيها الناس، فهم يعيشون أسرى الحياة العابرة، يريدون للزمن أن يهتم بهم وهم لا يهتمون به. لا يفكرون بسوى الترهات والملذات. كم من أصدقائك يقضي وقته في أمور لا فائدة وراءها، وهم يسخرون منك لأنك تضيع الوقت في القراءة والتدوين، بل يقولون لك، وما الفائدة ذات يوم ستعود مقبوراً فمن سوف يتذكرك وحتى لو كان ذلك فماذا سوف تستفيد حيث ستصبح حينها عظاماً نخرة.

سأتركك في ناصية من خيالي، بيتك.. وأعود لأجد أنني في هذا الفندق لم أغادره منذ يومين مشغول بك، أخطط للأفكار القادمة كيف سأصوغ مصير هذا الوحش الكاسر الذي هو من سلالة البشر، كيف أنه خرج من عزلته في الجزيرة ليجعل العالم قمئاً ويعذب الناس، مهما تصور الناس بشاعة بعضهم البعض، فلن يتصوروا بشاعة هذا الوحش الذي هو أيضا يفرق بين البشر ويعرف كيف يختار حلفاءه

من الأشرار، ويبغض الأخيار. هل كان العالم محتاج فعلاً لكل هذا التخويف والرعب في نهايته، ألم يكن يكفي أهوال يوم القيامة المقبل على الأبواب؟!..

كل منا يسكنه هذا الوحش يا سيدي القزاز.. لهذا فأنت الوحش.. وأنا الوحش.. كلانا وحوش أزمتنا القادمة والغابرة.. الوحش الحقيقي ليس بذلك المخيف، هو مسالم وطيب. والوحش الذي يظهر قوته للناس هو الضعيف في واقع الأمر، لأنه أراد أن يظهر هيئته وقوته من خلال التمتع بمرأى البشر وهم يتعذبون ويبكون، يريد للعالم أن يكون فظيعاً ومريباً وغامضاً، ربما فيه من عمق الفيلسوف بلا أسباب لفلسفته التي تدمر الإنسانية، وقد نجد له العذر في ظلمته بأن له منطق لأشيائه.. وقد لا نستطيع أن نوجد ذلك المنطق، المسألة تتوقف على من يعيش مع الوحش أو يطالعه أو يقف بجواره هو من سيعرف كيف يصنع الصورة والتقييم النهائي، فكل منا له خاصيته المحددة التي يرى بها الوحش. له مصلحته، في عالم بات كل يعيش الوجود من زاويته ومن هاجسه وطموحه.

●●●

(٢)

في حقيقة أمري فقد مضت لي ثلاثة أسابيع في هذه المدينة وأنا أعود للمرة العشرين.. ربما أكثر.. ليس لي أن أحصى جيداً، فالأرقام في حياتي تائهة لا قيمة لها. كما أن أيام الوحش تفتقد لجدارة الاحتفاء بالأيام.. ففي زمن الوحش تذبل خاصية الترقيم وتسقط «الكالندرات» من الحوائط ليكون العالم قد توقف تسييره بالتاريخ واليوم والساعة، فالوحش يريد للكل أن يعترف به هو بوصفه الزمن لا غير. لا يريد للناس أن تنشغل بسراب الزمن المنساب منذ الأزل، وهو يعلم أنهم في واقعهم لا يهتمون بالزمن إنما بعد أن يتم تجريده فسوف يقومون بالنظر إليه على أنه له قيمة من خلال ذات الوحش القوي، الجبار، القوي الذي هو الآن الزمن نفسه.

إذاً ثلاثة أسابيع، ولا جديد.. أفقد قدرتي على إحصاء الأيام.. أعود عشوائياً كما كنت منذ سنوات صباي وطفولتي، فأنا سليل الفوضى وغياب النظام.. سليل تلك البلاد التي لا تعترف بالألفة إلا لحين ثم تغرق في الفوضى مجدداً.. الناس نواميسها الاستسلام للمجهول، إغراق الزمن في الغيب والمجهول، يمكن لهم أن يؤمنوا بالخلود، يحبونه، الزمن المطلق، أما أن يعيشوا زمنهم الخاص والمحدد فهذا محال. ولهذا فعندما كنت تحاول أن تسرق وقتك منهم بأن

تذهب إلى غرفتك القصية أو ضفاف النهر مرات لتقرأ مدوناتك كانوا يطاردونك، بأنك لست على ما يرام.

قالوا هذا الصبي المجنون. هذا المعتوه. أوصوا أباك بأن يحملك للشيخ لكي يداوي علتك.

وصرخ فيهم:

«لكن ابني سليم العقل. إنه ليس مجنوناً؟!»

ولم يصدقوا فهم يريدون لك الجنون، يرغبون في إضافتك إلى قائمة أولئك الذين استغرق بهم المقام في سجن الشيخ الأبدي، وراء التكية الكبيرة له، المكان الذي خصصه للمجانين، المجاذيب وهم يقرأون القرءان أو يقومون على خدمة الناس مجنزرين في أرجلهم ليس لهم أن يمشوا بعيداً إلا بحدود، وإذا هاج أحدهم تمّ القبض عليه وركل كالبهيمة في الغرف البعيدة وربما عوقب بأن يظل بلا طعام لعدة أيام يتغوط في ملابسه ويتبول، حتى يقتل عفنه العابرين.

رحت تتخيل أنك واحداً منهم. وتخيلت أن القزاز قد مرّ بهذه التجربة، أليس الوحش قد عاشها؟! ألم يكن سجيناً في الجزيرة إلى أن خرج إلى العالم بعد أن تحرر واتضح أنه إنسان بكامل عقله، ولكن هل يكون عاقلاً من يقتل الناس ويعذبهم بل يحرقهم بالنار؟ ما هي حدود العقل والجنون هنا؟

●●●

(٣)

في هذه المرة كانت رحلتي قد تبددت دون تحقيق جديد، مضى الوقت بطيئاً وسيئاً للغاية.. المدينة تفقد قدرتها على دعمي لأفكر جيداً كما كانت في سابق عهدها تفتح ذهني وتفتق لي ورود الأفكار، تجعلني ذلك المثابر الذي يعرف كيف يصل إلى أهدافه دون أن يملّ الطريق العسير، وحيث أعلم أن العالم لا يمكن أن يحقق لك ما تريده بالسهولة التي تتوقعها، إذ لابد من المعاناة الطويلة والقسوة على الأنفس، وأنا لم أكن ذات يوم متساهلاً مع نفسي، كنت قاسياً، جاداً، وهذا ما كان يخيف الذين كانوا حولي، يجعلني أمامهم وحشاً، فمن صفات الوحش أنه جاد إلى أبعد الحدود، لهذا هو مخيف، جديته تظهر في صفات قاتلة ومرعبة، وقد تظهر في بعض الآونة لقلة من البشر بشكل أو بآخر.

مضى الوقت دون الواجبات المفترضة في متاحف يجب أن أزورها، أقارن مخطوطات ومدونات، أقابل أناس مفترض أن لديهم علاقة بما كان الوحش قد سطره قبل مئات السنين، الوحش، القزاز.. ربما هم متوهمون في ذهني، أو حقيقة ليس لدي من تأكيد، فأنا قادر على تخيل المنازل التي يقطنونها في أحياء معينة من المدينة، واحد منهم قريب، من أقارب الوحش. بالنسبة لي كل تصور ذهني أو تخيل

في الدماغ البشري يمكن أن يصبح له وجود، ما دمت تتخيل صورة معينة فثق أنها قائمة في مكان ما، حتى الموقع نفسه الذي أنت تخيلته أو حددته، الإشكال غالباً ما يكمن فيك، في أن قدرتك على النفاذ إلى الواقع لم يتحقق لأنك بعيد أو أن أدواتك ناقصة. ولهذا كان صعب علي أن أدرك الحقيقة لأنني بعيد عن أنقرة في واقع الأمر. لهذا اكتفي بإكمال الصور الذهنية المستعارة من عوالم لا أعرف أين هي بالضبط، مناطق ما ورائية في جهة مجهولة من هذا الدماغ الذي يأخذ معرفته من عالم غيبي بعيد وغامض كذلك.

●●●

(٤)

مع اقتراب عودتي، إذ تبقى لي يومان على حجزي بالخطوط التركية، عائداً إلى الخرطوم، أشعر كما لو أنني تائه، لماذا يضيع الوقت ويتسرب مني دون أمل، هل هو هذا الوحش يعاندني لسبب ما، يحول بيني والوصول لحقيقته، يرفض أن يخرج إلى العالم وفق تصوري له، وهو ما زال حبيس تلك المدونة التي لم تسطر بعد، قائمة في رأسي، دماغي الذي يكاد ينفجر بالصداع مع آخر الليل وأول الفجر. وهنا أتصوره في جزيرته، أكاد أراه مجنزراً منذ ذلك اليوم الذي تركوه وحيداً وهربوا عنه يمخرون البحر بعيداً عن الجزيرة، لقد ظنوا أنهم تخلصوا منه إلى الأبد، لم يظنوا أنه خارج إليهم ذات يوم قريب، ليهلك الأرض والنسل ويغير قانون الوجود الذي ألفوه.

من تلك الجزيرة يطل نحوي، يرمقني بعينين تشبهان عيني. إحداهما عوراء. اليمني تحديداً، مثلي تماماً كان الوحش أعوراً، أخاف منه، أهرب من موقعي عند النافذة، أكاد أصرخ مجنوناً، فقد وقف بالفعل أمامي.. يكاد يقبض علي من ورائي حيث لا أمان له، ومن ثم أتمالك نفسي وأتبسمل بكل ما عندي من شجاعة استعين بالجبار الذي خلق الوحش أن يحررني منه في هذه البلاد التي أنا في وحيد غريب عن دياري.

●●●

(٥)

في المطار أجلس وحيداً، لا شغل لي سوى تأمل أجساد البشر العابرين أمامي، من كافة جنسيات الدنيا، أحاول أن أتخيل لو أن الوحش أطل الآن بينهم في هذه المدينة، في المطار ذاته، كيف سيتعاملون معه، هل سيخافون. نعم سوف يسري الفزع في الجميع، سوف يصرخون، وكلٌ سوف يرى الموت مجسداً بشكل أو بآخر أمامه، ثمة نساء سوف يهرولن ويتركن أطفالهن للوحش وهو يجرب أن يغرس أظافره الطويلة التي لم يقصها منذ أن تم نقله للجزيرة، تخيلوا أظافر لم تقص لقرون طويلة جداً كم سيكون طولها؟ أسنانه القوية سوف تمزع اللحم مزعاً. هذا الوحش العجيب يأكل لحوم الأطفال ولا يستحي، إنه يستمتع بأن يشاهده الناس في هذا المطار وهو لا يهتم. سوف يأتي رجال الشرطة والأمن وسوف يحاولون القبض عليه ولكنهم لن يقدروا على اصطياده فجسده مقاوم للرصاص وقوته باذخة قوية وشديد لا أحد يقدر على أن يصارعه، كل من يقترب منه ينظر إليه بعينيه النارتين فيحرقه دون هوادة.

أعيش تفاصيل المشهد حتى أنسى حقيقة وجودي في المطار، وأنا جالس في كنبة من الحديد الموجع للمؤخرة، أقوم أتلمس مؤخرتي لأجد أنها تصلبت، وأنظر للساعة أمامي.. منبه كبير معلق في صالة

الانتظار الأخيرة قبل صعود الطائرة، ما دامت ثمة ساعة، أي هناك زمن فالوحش لم يأت بعد، زمانه لم يهل. لا خوف إذن. أشاهد أجساد البشر حولي، هم يتحركون بشكل عادي وليس من ذعر ولا تحسب، أشعر بالهدوء وآخذ مجلة بجواري عند المقعد المجاور لا أدري من تركها، أتصفحها مكتوبة بلغة لا أفهمها. يكون الزمن قد تجمد تماماً يطول انتظاري في المطار، أغفو ثم استيقظ لأجد أن الطائرة قد غادرت وأنا لم انتبه، ثم انتظر طائرة أخرى سوف تقلني في آخر الليل الثاني.

●●●

خامساً: مع القافلة

الاثنين
قاسيون – دمشق

٥	
١٢٨٢	أكتوبر

٢٨	
٦٨١	رجب

(١)

مضى يوم، تدفقت دموع وسرعان ما توقفت. كان ثلة من الرجال قد دخلوا بيت القزاز وكان همهم الوحيد أن يأخذوا المخطوطات والمدونات.. فكل العقود التي خلت خراب بغداد في ٦٥٦هـ الموافق ١٢٥٨م كانت مشغولة بالفوضى، أصبحت المراجع والكتب نادرة وظهر لصوص المجلدات الذين يأتون من جهات مجهولة يسرقون الأوراق والمحابر ويهربون. ولأن القزاز كان يعيش وحيداً في بيته، فقد سهلت عليهم المهمة لم يجدوا أية مقاومة من أحد، حمّلوا ثلاثة من البعير بالخارج بالحمولة وانزلقوا في سرداب ليل المدينة الغارقة في الترقب، احتمالات المجهول.

الشاهد الوحيد على تلك الواقعة كان «الفتى الوحشي» كما لقبه صاحبه والذي كان يخدم القزاز، وبحسبة المقادير الشكلية فقد انتهى دوره بموت سيده، وعليه أن يدبر أمره في الحياة بحثاً عن سيد جديد أو من يعينه على العيش، أو يعود إلى جهة بلاد الحبشة وراء البحر من حيث جاء ذات يوم، وحيث هو نفسه لا يعرف هويته بالضبط.

وقف بجوار العصابة يكلمهم أن يأخذوه معهم:

«ليس لي من أحد، وقد رحل سيدي، وأريد أن أجاور هذه الكتب»

استغرب الرجال من فكرة مجاورة الكتب ومن عبد يريد أن لا يحرر نفسه، فما هي إلا حيلة بحث عن سيد جديد، من يعين الفتى في حياته المقبلة، وتطوّع أحدهم ليأخذه معه، باحتمال قوي أن عنده من أسرار وحياة العالِم الراحل، وبالتالي يمكن بيعه لمن رغب في كتابة المزيد من سيرة الوحش الكبير، القزاز بن زرعة. تلك السيرة التي طمرت مع الأيام ولم يعد من أحد يذكرها فمنذ ذلك اليوم غاب أثر المخطوطات كما غاب الفتى الوحشي لا يعلم عن مساره الجديد أحد من أهل دمشق الذين رأوه في أيام القزاز الأخيرة قائماً على خدمته.

بالمقابل كان الوحشي يعلم أمر سيده، ويعلم مقبل أيامه، ويستطيع أن يخبرنا بقصة المخطوطات التي سرقت إلى أين ذهبت بالضبط، ومصيرها إلى اللحظة التي لقي فيها حتفه ضمن قافلة من التجار

والعلماء الذين كانوا في رحلة ببحر القلزم، حيث كانوا يظنون أن بإمكانهم وهم على ظهر السفينة الوصول إلى جزيرة الوحش للتخلص منه قبل أن يخرج ليرعب البشر، وقد عرفوا أمره مما كتبه القزاز، وهذا يدل على أنهم كانوا على دراية تامة بهوية القزاز ومشروعه وقدراته العلمية بل أنهم ذهبوا إلى أنه يتلقى وحياً سماوياً ويمتلك خبرات ليست ذات صلة بمعارف الأرض فحسب.

هبت العاصفة، قوية، فجرفت السفينة إلى اتجاه الجنوب بعيداً عن الموقع المفترض للجزيرة، إلى أن غامت السماء تماماً بسبب السحاب الأسود الداكن ولم يكن ثمة ملجأ سوى الاستغفار والدعاء والبكاء على الذنوب الماضية، وواجه الجميع الموت، النهاية. لينتهي فصل من فصول العذابات التي عاشوها لعدة أيام، وحيث نجا الصبي الوحشي، في معجزة إلى أن أدرك الجزيرة بمفرده ليتأكد من أمر الوحش الذي كان سيده يتكلم عنه كحقيقة، لا شك فيها. بل كان يناديه في الظلمات وفي وحشة الأيام وهما وحيدان.

ما أن يفرغ من كتابة صفحة من صفحات مدونته حتى يصرخ بصوت قد يسمعه الجيران..

«يا وحش.. يا وحش»..

ومرة أنشد له قصيدة طويلة لا يتذكرها الصبي الآن، وهو يرى نفسه وسط غابة من أشجار النارجيل والليمون والبرتقال وأمطار غزيرة تهبط من السماء الداكنة على مدار اليوم.

●●●

(٢)

الصبي متأكد من أن المخطوطات كانت في السفينة لكنه ليس لديه تأكيد على أنها كلها، فقد توقفت القافلة في البر بأحد مناطق الحجاز وهنا صارت جلبة في بيت واحد من رجال زمانه، ولابد أن الرجل دفع مالاً كثيراً وأخذ بعض من المجلدات وإن كانت الحمولة بقيت على حالها لسبب لا يفقهه الصبي، واستمرت الرحلة.

كان الصبي يريد أن يبقى فهو لم يجرب أهوال البحر إلا قبل عشر سنوات، عندما جاء من الحبشة مع أحد التجار الذي اشتراه مع العشرات وتم تحميلهم في السفينة إلى مكة حيث بيعوا هناك ومن حظه أن من اشتراه شيخ من شيوخ دمشق كان عائداً إلى بلاد الشام، كان رجلاً لطيفاً لم ير الوحشي ألطف منه ولا أجمل وجهاً ولا ابتسامة، وقد قام هذا الشيخ بإهدائه للقزاز لجميل بين الطرفين لا علم للصبي به. كعادته الوحشي لا يشغل باله بأمور لا تهمه في الحال.

الآن في ضفة الأرض اليابسة من الأدغال، لم يكن الوحشي يدرك أنه قد وصل جزيرة الوحش الموعود، بل لم يكن على علم بأن هذه جزيرة، فهي قد تكون أرض ممتدة كجزء من اليابسة الكبيرة. كان وحيداً يشعر بالخوف ثم يزيحه، متذكراً بعض من وصايا سيده بأن:

«الإنسان يجب ألا يخاف، مهما حدث له فلن يكون إلا النازلة، أو القدر الإلهي والرب لا يختار لنا إلا أفضل الحلول التي تسعدنا.. خاصة إذا ما كنّا من صناع الخير»

الصبي مع نفسه لا يشك في أنه لم يفعل أي عمل ينسب للشر، لهذا فالنوازل القادمة ستكون سعيدة بوعد السيد الذي ذهبت روحه للمولى العلي.

●●●

(٣)

خلد للنوم تحت إحدى الأشجار وهو يحلم بالليلة التي جاء فيها السارقون وأخذوه مع المخطوطات والأغراض، وحلم بالوحش وهو يقابله في هذا المكان، وهذا يعني أن هذه هي الجزيرة الموعودة وإن لم يكن من دليل على ذلك حيث لا صديق ولا أخ، فقد ضاع الجميع في البحر أخذهم إلى الأبدية.

استيقظ يرتجف خائفاً إن كان الوحش هنا فالأمر مرعب، وفكّر ماذا سيكون مصيره، فالوحش لا يرحم من يكون بجواره، حتى لو أنه جاء ليساعده، فهو لا يظن الخير بأحد، وهو كذلك ينتظر يوماً مضروباً في الأزل ليخرج إلى الناس، وإذا تبرع من أحد ليفك سلاسله وأغلاله بظن تحريره فهذا سوف يقلق الوحش وستكون النتيجة أن هذا الشخص سيلقى نفسه ميتاً.

ارتبك الوحشي، فهو يدرك أن بعض الأحلام ليست لها قيمة وبعضها هو إشارة قوية من الخالق، تعلم ذلك من سيده، القزاز. وهو الآن يدرك أن هذا الحلم ليس إلا واحدة من الإشارات الربانية بأنه في جزيرة الوحش، فالأمر حقيقي إذن والهول قادم، وعليه أن يكون شجاعاً لمجابهة المقبل من الوقائع في مقبل الأيام، ولو كان المضي إلى الموت بنية المرء وتنفيذه حلال لا يغضب الله لفعلها قبل أن يعيش

الهول الأكبر ويتعذب مع هذا الكائن المخيف الذي كان القزاز يحذر منه نفسه، ويسأل الله أن يموت قبل أن يرى زمانه.

●●●

(٤)

مات القزاز، وفي اللحظات الأخيرة كما يستعيدها الوحشي الآن، كان قد أوصاه بأن أكبر فتن العالم هي الوحش وعليه أن يكون حذراً إن عاش زمانه، لم يكن الصبي يخال أنه سيجاور الوحش في معقل داره، بأن يكون قريب منه. وإن لم يكن له دليل على ذلك إلا أن قلبه بعد الحلم الأخير، بات يحدثه أن هذه هي جزيرته التي سوف يخرج منها إلى العالمين التي سُجِن فيها ذات يوم من الأيام البالية.

تشجّع الوحشي، استعد لأي حدث يمكن أن يقع، وتبسمل كثيراً، وهو يرفع يديه إلى السماء يدعو اللّه أن ينجيه من أهوال الوحش، كان مميزاً في حفظ الأدعية وقراءة المعوذتين والأذكار التي حفظها من المعلم القزاز وهو يجاوره في كتابة المخطوطة التي كأنها تملى عليه من قوة خارقة، ففي أيام وهنه ومرضه كانت يده تمشي بالريشة على الورق، ثم تنغمس في الحبر وتعود، حتى يحتار من ينظر نحوه هل أنه يكتب أم لا، ثم يقترب منه فيرى خطأً واضحاً وأن هناك علوماً تسطر لم يخبرها أحد من الناس سابقاً. وهاهو الآن أمام تلك التخيلات يبصرها أمامه يبحث عن المنجاة!

●●●

سادساً: المنفى في الجزيرة

الاثنين
الرميلة – السودان

١٨	
يوليو	١٩٨٣

٨	
شوال	١٤٠٣

(١)

ولدت في برج السرطان، في ليل خريفي ماطر، فاض فيه النهر، وغرقت البلدان، كان أبي يعالج في المياه التي تكاد تهوي ببيتنا المكون من غرفتين مبنيتين من الطين، في حين كانت أمي تدعو الله أن يمر هذا اليوم بسلام. قلق كبير سيطر على الجميع، وخاف أهلي أن أكون نذير شؤم، وقد زاد من تعقيد صورتي أنني ولدت أعوراً له رسمة سوداء على جبينه، ما أقلق الأقارب ما هذا الولد العجيب؟!..

وإذا كنت الولد البكر والوحيد فقد تم الاحتفاء بي بشكل لائق، أبديت تعلماً سريعاً للأشياء من حولي، وحفظت تفاصيل العالم الخارجي بجدية، لا يمكن أن يبديها طفل في مثل سني، حتى أن ذلك كان مخيفاً للبعض وجرّ لي المتاعب لاحقاً في كبري. هناك من قال

إن الولد ممسوس ومن ثم جروا علي الجنون لاحقاً، كان أبي بقدر ما يراني مدعاة للمتاعب، كان يفخر بي، أنني سوف أغيّر تاريخ العائلة سيء الحظ منذ الأزل، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي حدثت فيه المشادة بيني ونجل الشيخ عصام الدين، واتخذ مجلس البلدة قراراً بنفيي من الأرض عقوبة لي، على خروجي عن طاعة السلطان.

قبل أن يحدث ذلك، عشت تجربتي مع الوحش، الذي لازمني طوال حياتي وأصبح قلقاً يجاورني. لا أقدر على التخلص منه في حلي وترحالي، كلما أجلس في مكان ما أتخيله بجواري أو أنه، أنا. أكلمه ويكلمني. وربما هذا السبب جعلهم يدعون أنني مجنون، فليس لإنسان يكلم نفسه بدون سبب أن يكون سوى مجنوناً في عرفهم.

بعد أيام من خروجي كان أبي قد مات حزناً علي، وهو يرى رجال الشيخ عصام الدين يأخذوني إلى جهة مجهولة، كنت شجاعاً ولم أبكِ أو أُبدي ضعفاً وقلت بصوت مسموع للجميع وكان أبي بينهم:

«سوف أعود يا أبي وأنتصر لك ولي»

كان أبي خائفاً من ردة فعلي، أو أي كلمة أتفوه بها، وكان يفضلني ألا أتكلم البتة، حتى لا يتعقد الوضع أكثر مما هو عليه. أعرفه كان جباناً، ولكن ماذا سوف أفعل لأنه من الصعب أن تغير طباع كبار السن. ومضيت إلى سبيلي في حين جاءني الخبر بعد سنين أن أبي

قد مات بعدي مباشرة، حزنت عليه أنه عاش ذليلاً لم يحقق أملاً في حياته أو يراني أنسج أمله المنتظر، أعرف أنه كانت له أحلام جمّة، وقررت مع نفسي أنه مهما يكن لن أكون سوى ذلك الوحش الذي يسكنني سوف انتصر لأبي وأحقق المحالات لن أكون مثله أبداً ولا جدي الذي وهب حياته لأجل الشيوخ. ربما استطيع أن أرضي أبي في قبره الذي لم أشاركه في دفنه فيه.

●●●

(٢)

هل يمكن للإنسان أن يتخيل مستقبله أو يراه من خلال أشياء يراها في الغيب ثم تتحقق؟ وإلا كيف أفسر أنني أخذت إلى جزيرة معزولة في البحر بعيداً عن الديار لأبقى سجيناً هناك ليس فيها سوى بعض من الطيور والحيتان الصغيرة التي تتجول بعيداً عني وفي الليل غالباً، وليس من أحد من البشر قريباً مني لكي أتكلم معه، وكان علي أن أعد طعامي بنفسي وأقضي وقتي ليس عندي من فكرة محددة انشغل بها سوى مراقبة الزمن الذي كان يهلكني أمره فالوقت يمشي ببطء ومرات يسرع دون أن أعرف كم مضى من الزمن أو الوقت، ولو أردت أن أخرج من الجزيرة فكيف يمكن لي أن أقاوم رجال الجيش الذين كانوا يتبادلون الحراسة من أماكن بعيدة في البحر على ظهور قواربهم، وهم يحملون بنادقهم مستعدين لإطلاق الرصاص في أي لحظة استجابة لأوامر عصام الدين، الذي لم أفعل سوى أن واجهته بأمره أمام الجميع، جمهرة البشر والحيران، وهو ما رآه خطأ عمري، في حين أنني كنت أفعل ما يجب أن أقوم به. ألست ذلك الوحش الذي عليه أن يواجه الترهات؟!..

كان الجميع قد التفوا حول الشيخ، وهم يباركون مقدم ابنه البكر، فقد تزوج عصام الدين منذ أن تولى عرش المشيخة، وقد سمى ابنه

عماد الدين، وجاءوا به في دائرة وسط القوم وضربت الطبول وغنى الجميع، ورقصوا وكانت البهجة في عيون البؤساء بما في ذلك المجانين الذين كان من الممكن أن أقيّد بينهم، غير أن عصام الدين ابتكر حلاً جديداً لم يكن قد نفذ من قبل منذ مولدي، لأن هناك من ذكر أنه منذ سنين طويلة كان آباؤه يقومون بهذه العقوبة على الذين يخالفون نواميس المشيخة. وهذا يعني أنني كان علي أن أكون كجدي وأن امتثل للأمر عندما طلب مني الشيخ النجل أن أقف أمامه وأُقبّل طفله الرضيع، وقد فعلت ذلك إرضاءاً للطفل، وليس لأبيه قليل الأدب، ومن ثم قال للجمع وهو يستفزني بوضوح وينظر اختلاساً نحوي:

«من اليوم فالوحش عبدي وهو في خدمتي»

كانوا يسمونني الوحش، وأنا الذي أطلقت الاسم على نفسي. ولا أدري إن كانوا قد فكروا في الأمر مثلي أم لا، المهم أن اللقب كان قد سار وعرفه الجميع وباتوا يرددونه بما فيهم أبي الذي قد يتضايق دون أن ينزعج كثيراً مع ابتسامته المبتسرة التي لا تعرف إن كانت مصنوعة أم حقيقية. أما أمي فقد كانت تعرف كأغلب النساء أن تدسُّ مشاعرها.

قفزت باتجاه الشيخ أكاد أخنقه وأنا أمسك بعنقه، وفي صرخة واحدة قلت له:

«لا.. لن أكون عبدك أيها المعتوه»

وارتفع الضجيج، كيف بي أن أصف الشيخ بالمعتوه. وحدث ما حدث في ذلك اليوم المنير من حياتي. فالوحش قد انتفض وبدأت رحلتي بالذهاب إلى الجزيرة، مثلما ذهب الوحش الكبير.. وحش القزاز إلى هناك، فأنا ذاهب اليوم لأعود للانتقام ذات يوم قريب.

●●●

(٣)

ثمة مقدمات حدثت قبل أن يعلو صوت الشيخ أمام القوم، إذ كان قد دعاني أنا وهو لا أحد معنا وطلب مني أن أقوم بعمل غير لائق بتقديري. أحضر بنتاً صغيرة وجميلة من بنات أحد الأسر الفقيرة في البلدة وطلب مني أن أضاجعها أمامه، وكان يعلم أنني قد ضاجعتها من قبل، وهي رفيقتي وسط النخيل في الليالي بجوار النهر، الاختلاف أن غرضه لم يكن نزيهاً، كان يريد أن يتسلى بذلك، وهذه واحدة من هواياته التي شيع سراً أمرها، ولكن لا أحد يقدر على مقارعة الشيوخ أو مواجهتهم. وقلت له:

«لا يمكن أن أفعل ذلك.. أعذرني»

إلى هنا كنت مؤدباً في ردي، غير أنه أصرّ قائلا وهو يزبد:

«لئن لم يكن فسوف أريك جهنماً»

ثم أردف:

«لن أسكت عن فعائلك يا كلب»

وسكتُ عنه لأني أعرف أنه يريد التحرش بي بأي شكل كان، وأنا من جهتي كنت لا أريد أن أزجَّ بأهلي في المتاعب، لكن الأمر فاض

كيلاً ووقع ما وقع بعدها.. وأنا في حيرةٍ من أمري ما الذي جعلني أخرج عن طوري وكان ممكناً لي أن أسكت قليلاً، ومن ثم فكرت لاحقاً أن قراري كان صائباً فلو أني سكتُ فسوف يحدث ما أكرهه في كل الأحوال حيث سأكون في خدمته مجنزراً ومحروساً بالبنادق والأفضل لي ما يجري معي في الجزيرة أن أكون حراً، حتى لو أنني مقيد من على البعد لا أقدر على الهروب، فخيرٌ للإنسان أن يكون مع نفسه وهواجسه من أن يكون عبداً في خدمة السفلة أمثال عصام الدين.

●●●

سابعاً: صندوق أبي

الاثنين
جزيرة الوحش

١٨	
١٩٨٣	يوليو

٨	
١٤٠٣	شوال

(١)

ولدتني أمي أعوراً، الأمر الذي جعلني مهزلة صباي، فلا أحد إلا ووقف أمامي يهزأ بي، قائلاً:

«ها هو الأعور قد جاء»

وذلك مما زاد الضيق بي، أن ابن الشيخ سخر مني وغلبني إلى حين من الوقت، وربما كان ذلك من أسباب اختراعي للوحش ورغبتي في الاستئناس به ومحبته، ثم كبرت ففسدت عيني الثانية كان ذلك بعد سنين طويلة ربما وصرت مركّباً تلك النظارة الطبية، وعندما اقتربت من سن الرشد، أظن أنني أعمى، ليس بإمكاني أن أتذكر بدقة. فقد جاء زمان الوحش الحقيقي، جاء كما تصورته وقد ظننت أنه لن يأتي.

قالوا إنه في آخر الزمان وما قبل النهاية الموعودة من قبل الرب في الأزل، يفور العالم فورته الكبرى، يختلط الإنس بالجان والشيطان، يتزاوجون وينجبون ذرية لا تعرف من يتبع لمن؟

ويبدو أنني عشت ذلك الزمان الغريب. وحيث تتداخل الأزمنة والأمكنة، الظلمات والنور. وحيث أكتب أنا أو أملي قصتي هذه دون أن أعلم موقعي من التاريخ والقدر. فلا تلوموني على القول ولا على الإخفاق والتداخلات ما بين الأوهام والحقائق.

إذ ماذا أفعل مع الوحش الذي خرّب الأزمنة، فأدخل الليل في النهار، وجعل اليوم ساعة والساعة شهراً وكلٌ متداخل بحيث يصعب فرزه أبداً. لهذا فإن الحقائق تتباعد والأمور تتضاءل أمام الأعين والآذان لا تسمع سوى هوى بارداً وبعيداً ليس له من قيمة في الآن.

وأنا في الجزيرة انتظر اليوم الموعود الذي رأيته في خاطري، وحيث جاءني إيمان عميق مجهول المصدر، أنه في لحظة ما يكون للإنسان أن يرى وراء عوالم الغيب والأزال، ويفكر بغير ما صوت مسموع، من ما وراء عقله المرئي وصورته الماثلة، فيرى ما لا يراه الناس ويسمع ما لا يسمعون. أنا في ذلك فسدت عيناي، فظننت أنني سأكون أعمى إلى الأبد تماماً، لا أقدر على تلمس دربي، ولا مواصلة حياتي وصناعة أحلامي. وما كان لي أن أشفى من علتي،

أو أزور طبيباً في سجني، فأنعم بالدواء.. ثم أن خروجي من جزيرة البحر، كان في زمن فسد فيه كل شيء وتأخر، بعد أن كان الإنسان سيد البر والبحر، مخترع الحواسيب الضخمة، والطائرات العملاقة، والغواصات، والمركبات الفضائية. كل شيء تعطل تماماً، ولا أحد يعرف السبب. باختصار كانت الحياة قد عادت إلى بدائية موحشة. ثم أدرك الجميع أنها ساعة الوحش الذي يعطل المواقيت والمعاني ويجعل العالم في صيرورة البداية القديمة.

قالت لي أمي، وهي تتذكر أبي الذي ربما أعاده الوحش للحياة من جديد، أو على الأقل مثّل صورته لنا:

«لو كان ذلك قد حدث وأنت في السادسة عشر من عمرك، أي قبل أربع سنوات، إذن لكان الأمر هيناً، ولوجدنا لكَ صِرْفَةً.. كنت سأذهب بك إلى أقرب طبيب، ليركّب لك عينين صناعيتين بديلاً لهاتين المعطوبتين، ولن تستغرقَ العملية سوى ظهيرة، فإذا جاء العصر عدنا بك إلى البيت لتسقي الزهور التي زرعتها في أول الصبح.. كنت قد تركتها بذوراً، فإذا بها أغصان وأوراق وورود ببتلات رائعة وتيجان ورائحة فواحة الشذى»

وكان كلام أمي يعني أن عليّ الإدراك لحقيقة الوحش. أن الحياة قد توقفت فعلياً عن التطور، تخرّبت التكنولوجيا وأجهزة الإرسال

والحواسيب وتناثرت المباني الشفافة ذات الخصائص الدقيقة والتي بناها الإنسان فوق الأرض.

ولأن أمي كانت تحبني حتى لو أن ابن الشيخ، عصام الدين، غرغر بي، فقد كانت تتمسك بالأمل، حتى بعد أن أصابني العمى، وجاء زمن الهول الذي فيه لم يعد الأطفال يغسلون وهم يخرجون من بطون أمهاتهم، فرجال الوحش يبقرون البطون بلا أدنى ضمير، ورأيت أمي وهي رغم كل حب لي تذهب بعيداً عني إذ تتبع الوحش وتسير مع جواريه، وقد وجدت لها العذر أنها ترغب في أن تجد العلاج لي عنده.

وسمعتها تكلمه:

«هل لديك دواء العمى؟»

قال لها الوحش:

«نعم. لكن ابنك ضال.. ولا يتبعني»

قالت لي:

«يا ولدي اتبعه وتعال معنا»

فقال لها الدجال مقاطعا:

«أنا اقرأ الضمائر وأعرف من يؤمن بي ومن لا يؤمن. فلا يخدعني من أحد.. ابنك لن يخدعني»

وهكذا قذفت بي وسارت في دربها، وصار لها حشم وخدم، وجاه وسلطان، وصارت في ظرف وجيز سيدة ذات تجارة واسعة ورزق وفير، وثراء فاحش، لكن الحياة الجديدة مع الوحش لا صفاء لها، إذ سرعان ما تتكدر لأنه ذلك الدجال لا يؤتمن، فإذا به يغضب عليها ذات يوم فيقلب كل الأمور، فتعود أمي أسوأ حالا تبحث عن ولدها القديم، وكأنما كل ما جرى كان حلماً، وسارت في دروب البلدة القديمة تبحث عن الشيوخ وعصام الدين ولم تجد من أحد فقد ساروا جميعهم يتبعون الوحش ويسجدون له، بعد أن نسوا ربهم وخالقهم، ففي الزمان الجديد تغيرت نواميس الحياة القديمة، وبات كل شيء بإرادة الوحش حتى الأكل والشرب، فالعملات الورقية عادت ورقاً أبيض لا قيمة له، وتعطّلُ الحواسيب أربك العالم، فعاد الغني مثل الفقير وكلهم بلا ضمير. حدث هذا ليومين، ثلاثة، ثم استقر الناس على أمرهم بتجارة بكماء، يتبادلون السلع والحبوب، لكنهم عجزوا أن يصنعوا أي عملة جديدة، أو آلة جديدة، لأن ثمة سحر ما أوقف ذلك. إنه سحر الوحش الجسور.

ثم إن أمي سمعت ذات يوم، وهي كالمجنونة تمشي في طرقات البلدة التي تركها أغلب الناس وهم يسابقون طريقهم باتجاه الوحش

طمعاً في الخلود، على الأقل الأكل والشرب.. سمعت هاتفاً يناديها من جزيرتي التي سجنت فيها ذات يوم قريب. لكن الزمن صار صعب الحساب.

قال لها الهاتف:

«تعالي.. تعالي»

ورغم أنها لم تميز إن كان هو صوت الوحش أو بعض من جماعته، أو صوت ملاك سماوي انتهز فرصة غير مفهومة لينزل إلى الأرض، فقد أسرعت لتتبع الهاتف الإلهي.. كانها قد أدركت ما وراء الجبل ومن ثم وجدت قارباً بجوار البحر، كأنه ينتظرها، ركبت فيه، وجدفت حيث لا رياح ولا فوران للماء، إلى أن أدركت الجزيرة، وهناك وجدت رجلاً عجوزاً بانتظارها يشبه أبي، أو كأنه هو.

لم يكلّم أي منهما الآخر، فقط قام العجوز بتقديم صندوق مغلق لأمي، أخذته وعادت في ذات الطريق، عبرت البحر، فالجبل، فوصلت إلى البيت، ووضعت الصندوق في مكان آمن، وطوال شهور لم تفتح الصندوق، ولا أحد علم بخبره سواي. وكلما حاولت أن أصل الصندوق لأتحسسه أتذكر أنني أعمى، ولن أقدر على رؤية كل شيء. ومرات أقول لنفسي إن القصة كلها ليست إلا اختلاق ذهني، فالذي يعيش في العتمة ماذا سيكون حاله سوى تأليف القصص ليتسلى بها، يتنقل

من مكان لآخر، من بلده لجزيرة في البحر إلى بلد بعيد مثل تركيا ثم يعود، وحتى لو سافر في الواقع فماذا سيرى بعينين معطوبتين، هل يكتفي بالسماع فحسب. ولكن ما قيمة السمع دون عين ترى، إذ تظل النعمة ناقصة، والحياة مبتذلة، وهكذا أحسستها منذ أن صار ما صار معي. وحيث لم يتدخل الوحش لأجل العلاج لظنه السيء بي.

أمي بارعة في الاختلاقات ليس هذا جديداً على أية حال، فمنذ صغري سمعت منها الكثير من القصص أكثر مما سمعت من جدي، أو أبي.. وكان خيالها باذخاً غير معترف به من الآخرين، وكانت في طفولتي تسليني بالحكايات حتى يدغدغ النوم عيني الصغيرتين وأنا طفل، حتى أدخل في غابة النوم اللذيذ، وأنا أحاول أكثر من مرة أن أعثر على دليل مادي ملموس لما تحكي، فأعجز.

أذكر أنني أنفقت أياماً بعد قصة ذلك الصندوق السحري، أبحث عنه في كل زاوية من زوايا البيت المبني من الطين، دون أن أعثر له على أثر. وقد انتبهت أمي لما أقوم به فحذرتني:

«قد تجده.. وهذا يعني أن كارثة جديدة قد تحدث في الكون، أفظع من تلك التي حدثت يوم مولدك»

وسألتها:

«وماذا حدث يوم مولدي؟»

شعرت بابتسامتها تضيء وراء عتمة العمى، قالت لي:

«ألا تعرف يا ولدي؟ ألا تدري أنه يوم مولدك كان قد فك قيد الوحش عنه فخرج إلى العالمين؟»

«لكنه لم يخرج في اليوم نفسه»

«نعم لم يخرج في ساعتها فقد تأخر في معارك مع الشياطين والأبالسة حتى استطاع أن يخلو بالأرض له وحده»

كانت تقول ذلك، وهي بين اليقظة والنوم، فلا أفهم إن كانت تتحدث واعية أم داخل حلم تراه في منامها!، ليس بإمكاني أن أدقق في الأمر، كما أن تلك الواقع تبدو كأنها أضغاث أحلام، كما لو أنها لم تجر أصلاً.

●●●

(٢)

اليوم مضت سنتان على آفتي، ووحدتي مع الظلام، وعدم قدرتي على التعايش مع عالمي الجديد. كان ممكناً لي أن أتدرب على تلمس الأشياء والسير بينها وأن أعيش مع عالم الأصوات، غير أن ما حدث نزع مني الرغبة في العيش، وبقيت طريح الفراش، لا أفعل غير الأكل وإفراغ حاجتي بمساعدة أمي تأخذني إلى حمام، عبارة عن حفرة في الأرض غطيت بألواح من الخشب الصلب.

كان ما جرى معي قد أفقدني أيضاً قدرتي على التفكير والتأمل، وسلب ذكائي، الذي يتحدث عنه الناس، وأصبحت الآن أعتقد بعكس ما اعتقدت في الماضي أن التأمل يمكن أن يكون أقوى وأكبر ثمرة في الظلمة مع توحُّد الإنسان.

لم أعد ذلك الصبي أو الشاب الذي يحلم بأن يرى العالم وفق هواه، كانت الأحلام تتضاءل والظروف تقيدني، وأنا أفكر في وحدتي، هل كل ما عبرت به كان حياة أخرى أم هي حياتي الحالية التي أعيشها. فمرات وقد تكون تلك الحقيقة التي يجب على الإنسان أن يؤمن بها، أن الروح البشرية تتناسل بين عالم وآخر، فهل أنا كنت حاضراً ومعاصراً للوحش أم أنني أتخيله، وما حقيقة صندوق أبي الذي مات وتركني يتيماً لأم غير قادرة على أن تمنحني سوى العطف والشفقة، ونحن فقراء لا نملك سوى الأمل.

وسمعت صوت ما يكلمني، كان ابن الشيخ، عصام الدين، ما الذي جاء به في هذه الظهيرة الحارقة إلى بيتنا، قال لي:

«قم معي سوى نأخذك إلى العلاج في المدينة، هناك في الخرطوم»

واستغربت أكلمه:

«أنت الذي ستعالجني؟»

قال لي:

«نعم هل جننت.. أبوك كان من أهلنا وكان سيدنا مثلما نحن سادته يا ولد.. لا تكن عنيداً.. أعرف عنادك الشديد»

قلت له:

«عيناي سوف تشفيان من غير ما طبيب»

رد علي بغضب، شعرته بزبده المتطاير، يكلمني:

«والله لتقوم الآن.. لن تنطق بأي كلمة بعدها»

وأخذوني.. في الطريق إلى العاصمة. وكنت أفكر، وعصام الدين بجواري في السيارة الفارهة كما أتخيلها من نعومة صوتها، أفكر في حالي وذكرياتي البائسة مع نفسي.. حقيقتي من أنا؟ من أكون؟ ما علاقتي بهذا العالم الغريب الذي أنا جزء منه. هل أنا شيطان أم إنسان؟

كان عصام ذكياً بغير توقعي. ورأى فيّ ما لم أره في نفسي. قال لي:

«لا تبتئس كثيراً كلنا نعيش في زمان الوحش»

سألته وأنا لا أعرف إن كنت أسأله أم أسأل نفسي:

«وهل جاء الوحش.. بل قل لي من حدثك عنه؟»

ضحك بصوت مسموع هذه المرة، رد:

«أتظنني غافل.. أبداً من لم يسمع به أو يراه.. أين كنت أنت طوال الزمن الماضي. يبدو أن سجنك وقلقك الفردي وعدم رغبتك في معاشرة الناس جعلك تعيش هذه الوحدة المجنونة التي عطلتك عن العالم والوجود»

كنت أقول لنفسي.. وماذا سأخبره؟ هل أخبره أن الوحش الذي هو اختراعي بات حقيقة أمامهم.. هل أخبره بذلك فيصدقني؟ لا أظن ذلك. لا أحد يمكن أن يصدق أحجيتي سواي.. أنا البائس الأعمى!..

كانت السيارة تضرب في الطريق البري الحديث، الإضاءة القوية لها تكشف منعكسة على جبال بعيدة.. نقترب من مدينة مضاءة بأنوار متناثرة وأنا أغوص في عوالمي الخاصة لا أعرف خطوتي المقبلة.

انتهت

مسقط ٢٠١٦

الفهرس

الفهرس	الصفحة
الجزء الأول: سرجون	٥
أولاً : ظهور الجزيرة:.........	٩
ثانياً : قبر القرصان:.........	٣٥
ثالثاً : الفريق الاستخباراتي:.........	٥٣
رابعاً : طبيب البحر:.........	٧٧
خامساً : الرضيعة الآدمقلزمية:.........	١٠٧
سادساً : اغتيال باترس:.........	١٢٣
سابعاً : ظهور النوراني:.........	١٤٥
ثامناً : قصف جوي:.........	١٦٧
تاسعاً : ظهور الوحش:.........	١٨٥
الجزء الثاني: الوحشي	٢٠٥
أولاً : كوابيس ومناجاة:.........	٢٠٧
ثانياً : الوداع عند سفح قاسيون:.........	٢٢١

ثالثاً: اختراع الوحش:........................ ٢٢٩
رابعاً: سقوط الزمن:........................ ٢٣٧
خامساً: مع القافلة:........................ ٢٤٧
سادساً: المنفى في الجزيرة:.................. ٢٥٧
سابعاً: صندوق أبي:........................ ٢٦٥

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع إلى الناشر